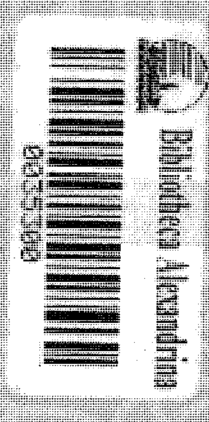
محمد قطب

التطور والثبات

في حياة البشرية



دار الشروق

التطور والثبات

في حياة البشرية

الطبعة السادسة

١٩٨٦ م - ١٤٠٦ هـ

الطبعة السابعة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

الطبعة الثامنة

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

محمد قطب

التطور والثبات

في حياة البشرية

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا العصر هو عصر التطور . .

كل شيء فيه يتطور . .

الأفكار والعقائد . . القيم والمفاهيم . . الأخلاق والتقاليد . . الصور المادية للحياة . . المسكن والملبس والمأكل . . وسائل المواصلات ووسائل الإعلام . . الحرب والسلم . . الآلة . . الإنسان !

ولا يمر يوم ولا تمر ساعة . . بل لا تمر لحظة لا يذكر فيها لفظ التطور من أقصى الأرض إلى أقصى الأرض . . فى الغرب «المتحضر» والشرق « المتأخر ». . فى كل مكان !

ولا يوجد شيء واحد ولا عمل واحد ولا مفهوم واحد لا تدخل فيه فكرة التطور . . ولا يتصور الناس شيئا فى الحياة كلها إلا من خلال فكرة التطور التى تشمل كل شيء وكل كيان !

* * *

وحين تستولى فكرة التطور على أفهام الناس بهذه الصورة ، فلا بد أن يصطدم تفكيرهم بالدين ! فالدين — فى حس البشرية — يمثل الثبات . ثبات الإله . وثبات العقيدة . وثبات العبادة . وثبات القيم . وثبات المفاهيم . وثبات التقاليد . وثبات الحياة .

وما دام الدين فى حس البشرية يمثل هذا الثبات كله ، فلا بد أن يصطدم

فى حسبها بمفهوم التطور الشامل ، الذى لايطيق تصور الثبات فى أى شىء على الإطلاق ، ولو كان فكرة الله أو فكرة الدين .

* * *

وفى الغرب اصطدمت بالفعل فكرة التطور بمفهوم الدين . وقام بينهما صراع عنيف منذ « عصر النهضة » الذى قام على أساس لاديني . وانتهى الصراع بتنحية الدين عن الحياة العملية . وعن الاقتصاد والاجتماع والسياسة . وعن العلم والفن .. ولم يبق له إلا ركن ضئيل فى حياة الأفراد . . يشبعون ميلهم الشخصى إليه بالذهاب إلى الكنيسة ، أو اتباع بعض تعاليم الدين فى السلوك الشخصى ، بينما الحياة الواقعية كلها تحكمها المفاهيم المضادة لفكرة الدين .

وفتر الصراع الذى كان حادا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لأن الدين لم تعد له القدرة على الصراع ، والمتدينين ورجال الدين لم يعد فى وسعهم إلا الرضى من الغنيمة بالسلامة الشخصية ، والانعزال عن الركب المتحرك . . أو محاولة اللحاق بذلك الركب عن طريق « تطوير » الدين (!) وجعله تابعا ذليلا للتطور ، بعد أن عجز عن قيادة الحياة !

* * *

أما فى الشرق .. « الإسلامى » .. فمازال الصراع قائما بين الدين والتطور!

لأن الدين — من ناحية — مازالت له قبضته على نفوس الجماهير ، كعقيدة وفكرة إن لم يكن كواقع وسلوك ، رغم الجهد الضخم الذى يبذل لتفتيت العقيدة وتحطيمها ، وتحويل الاهتمامات عنها إلى مفاهيم جديدة وأفكار جديدة ..

ولأن « التطور » من ناحية أخرى لم يبلغ مداه بعد . . لا التطور الصناعى

ولا الاجتماعى ولا الاقتصادى المجلوب من الغرب ، والذى يحمل فى أطوائه المفهوم « اللادينى » للحياة

ومن ثم فمازال هناك معركة !

والكتّاب ورواد التطور يختلف موقفهم من المعركة باختلاف درجة اصطباغهم بالفكر الغربى ، ودرجة صراحتهم فى إدارة العراك !

فبعضهم يهاجم الدين صراحة ، ويقول إنه بقية من الماضى المظلم ينبغى أن تزول . . وخرافة لا يصح أن تعيش فى عصر النور !

وبعضهم لا يجد فى نفسه الجرأة التى يهاجم بها الدين صراحة ، فيستتر وراء مهاجمة « الأفكار الرجعية » أو « رجال الدين » . . . ومن هناك يهاجم كل المفاهيم الدينية وهو آمن من تهمة الإلحاد والمروق . فلا يستطيع — مثلا — أن يقول إن الله — سبحانه — رجعى لأنه يقصر زينة المرأة على رجلها أو محارمها . فهذا القول الوقح يعرضه لامحالة لغضبة الجماهير ، فلا ينسب إلى الله هذا القول ! وينسبه إلى رجال الدين الرجعيين ! ولا يجرؤ — مثلا — أن يقول إن الله — سبحانه — مخطئ حين يحرم الفاحشة ، وقيام أى علاقة جنسية خارج الزواج الشرعى . فلا ينسب هذا التحريم إلى الله سبحانه! ويقول إن « المفاهيم الرجعية » للأخلاق ، التى تحرم الصداقات والعلاقات بين الجنسين هى مفاهيم بالية ينبغى أن تتطور . . وأن تزول !

وبعضهم يقول إن الدين أفكار سامية جميلة (!) ولكن مافيه من تشريعات وتوجيهات قد نزل لعصر معين وظروف معينة . . والظروف قد تغيرت . . فلابد من إبقاء الدين « روحا » صافية ، لاتتدخل فى التشريع ، ولا تحكم الحياة الواقعية . . من أجل الإبقاء على معانيه السامية وأفكاره الرفيعة ، ومنعها من الاصطدام بالواقع المتغير المتطور، فتتحطم ، وتترك الناس بلا هداية من روح الدين!

وبعضهم لايذكر اسم الدين على الإطلاق . . وإنما يهاجم المفاهيم الدينية « كمفاهيم » لاعلاقة لها بالدين. مفاهيم اجتماعية أوفكرية أوسياسية أو اقتصادية . ويسخّفها لعدم تمشيها مع روح العصر ، والتطور العلمى والحضارى .. و يترك هذا التسخيف يفعل فعله الخفى فى تحطيم القيم الدينية دون أن يتعرض إطلاقاً لذكر الدين!

وبعضهم — للتوريط — ينسب إلى الدين كل مايريد بثه من أفكار « تطوّرية » بحجة مرونة الدين وصلاحيته للحياة فى كل عصر . . فهو يبيح الاختلاط ، و يبيح تزين المرأة ، ويبيح قيام علاقات بين الجنسين (دون الفاحشة من باب التأدب !) ويبيح نقد المفاهيم بل النصوص الدينية ذاتها وتمحيصها (للاقتناع بها عن تفكر وتدبر !) و يبيح ترك بعض المفاهيم الدينية واستبدال غيرها بها (لأن الناس أعلم بأمور دنياهم !) أو بعبارة أخرى يبيح نقض الدين كله بحجة التجديد والتطوير !

وبعضهم — المضلَّلين المخدوعين ! — يكتبون — فى إخلاص ! — عن وجوب تطوير الدين حتى لايفوته الركب ، و ينعزل فى زوايا النسيان !

* * *

والجماهير تتشرب الإيحاءات المختلفة التى يصبها فى أذهانها « المثقفون » بمختلف وسائل الإعلام : الكتاب والقصة والمسرحية والمقال والخبر والتحقيق الصحفى والرسم الكاريكاتورى والنكتة المصورة . . والإذاعة والسينما والتليفزيون . . وتظل هذه المفاهيم تدور فى نفوسهم ، وتصطرع — فى وعى أو غير وعى — بمفهوم الدين . وتنتج عن ذلك نتائج متباينة . . فبعضهم ينتهى به الأمر إلى الخروج الصريح من دائرة الدين . وبعضهم ينعزل الدين فى وجدانه عن الحياة . « فيتدين » فى داخل قلبه : يصلى و يصوم ، وقد

يزكى ويحج ، ثم يمارس الحياة الواقعة بكل مفاهيم « التطور » ، فيترك بناته ـ مثلا ـ يلبسن فساتين فوق الركبة ، ويخالطن الشبان ، لأن « العصر » يريد ذلك ، وهو يريد لبناته أن يكنّ على « موضة » العصر . وبعضهم يتجمد ـ فى تحجر ـ على مفاهيم معينة يظنها هى الدين ، ويخاصم الحياة المتحركة كلها لأنها خروج على الدين . وبعضهم يظلون فى حيرة ، لا يدرون ماذا يصنعون !

* * *

وهذا البحث يتناول قضية التطور ، فى مواجهة قضية الدين . .

وقد تناولت هذا الموضوع من قبل فى كتب سابقة ولكن دون تفصيل .

تناولته أول مرة ـ بصورة مباشرة ـ فى فصل « أنتم أعلم بأمور دنياكم » فى كتاب « قبسات من الرسول » فتحدثت حديثاً سريعا عن قضية التطور ، وعن الثابت والمتطور فى كيان الإنسان ، وطريقة الإسلام فى معالجة هذا وذاك.

ثم تناولته فى فصلين من كتاب « معركة التقاليد » تحدثت فيهما عن المفهوم الأوربى للتطور ؛ وما يحمله فى طياته من حقائق وأباطيل ، وكيف أثر فى الحياة الأوربية ثم انتقلت عدواه إلى الشرق عن طريق الاستعمار .

ثم أفردت له فصلا فى كتاب « دراسات فى النفس الإنسانية » بعنوان « الثابت والمتطور فى كيان الإنسان »

ولكن الرغبة كانت تتزايد فى نفسى كل مرة أن أتناول الموضوع فى بحث متخصص ، لا تناولا عرضيا فى أثناء الطريق .

وأخيراً كان هذا الكتاب ، تناولت فيه الموضوع من جميع الزوايا التى جالت فى خاطرى ، فى الفكر الغربى والإسلامى سواء .

وهو يتناول أربع قضايا رئيسية :

المفهوم الغربى للتطور ، وأسبابه ونتائجه فى الحياة الغربية .

حقيقة الفطرة البشرية وما تشتمل عليه من جوانب ثابتة وجوانب متغيرة .

المفهوم الإسلامى « للإنسان » وطريقة الإسلام فى معالجة الثابت والمتطور فى حياة البشرية .

والقضية الرابعة تتناول الموقف الراهن للحضارة الغربية وللإسلام ،وما يحمله الموقف من دلالة لمستقبل البشرية .

والموضوع واسع مافى هذا شك ، والقضايا التى يتناولها شديدة الخطورة بالنسبة للمفاهيم الحالية للحياة . وهو فى حاجة إلى دراسة واسعة مستفيضة جادة فى كل مناحى التفكير البشرى والحياة البشرية .

وما يتسع بحث كهذا لكل جوانب الموضوع بطبيعة الحال .

ولكن حسبه أن يتناول القضية فى جوهرها. بل حسبه أن يفتح الباب للتفكير.

فإن نجح فى ذلك فما توفيقى إلا بالله .. وله الحمد وله الشكر فى جميع الأحوال؟

محمد قطب

عصر التطور

فى العصور الوسطى كان « الثبات » هو الطابع المسيطر على الحياة كلها فى الغرب . وكان العالم الإسلامى قد أخذ دورة من النشاط الحى المتحرك الغلاب .. ثم أخذ يركن إلى الهدوء أو إلى الركود التدريجى البطىء .

وكان مفهوم الثبات فى أوربا مستمداً من الدين ، كما هو مستمد من الوضع الاقتصادى والاجتماعى الثابت الأركان .

كان الدين — بمفهومه الكنسى الأوربى — «عقيدة» .. أى علاقة بين العبد والرب تحكم الوجدان ، ولاتحكم — إلا قليلا — واقع الحياة . أما هذا الواقع فتحكمه تشريعات مستمدة من القانون الرومانى ، ومستمدة من أهواء حكام الإقطاع ، أى مستمدة — فى النهاية — من أصول وثنية لا علاقة لها بالدين .

وما دام الدين « عقيدة » بهذا المفهوم ، أى اعتقادا فى الله ، وارتباطا وجدانياً به ، وتعبدا روحياً إليه .. فهو « ثابت » بكل معنى الكلمة . فالله فى الوجدان ثابت ، وطريقة الوجدان فى التطلع إليه تمثل كذلك لوناً من الثبات .

على أننا حتى لو فرضنا أن الدين — بمفهومه الكنسى الأوربى — كان ديناً كلياً شاملا [كما هو منزل من عند الله فى الحقيقة] أى ديناً يحكم الوجدان والحياة الواقعة فى ذات الوقت ، ويشرع للناس أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلى جانب ما يشرع لهم عباداتهم وسلوكهم الفردى . . فلا ندرى على وجه التحقيق كيف كانت تصبح صورة المجتمع الأوربى ، مادامت الحكومات الأوربية لاتحكم بهذا الدين !

إنما نحن نعلم على وجه اليقين — من التاريخ — أن دور الإسلام لم يكن كذلك . .

فهو أولا قد حافظ على مفهومه السماوى فترة طويلة من الوقت ، كان فيها يشرع للوجدان وللحياة الواقعة على السواء . وعلى الرغم من الفساد الجزئى الذى أصاب الحكومة الإسلامية ، وأصابها مبكرا منذ عهد الدولة الأموية ، فإن « الدين » لم يعش فى عزلة عن المجتمع قط ، إلا فى العصر الأخير . . فى القرن الثامن عشر الميلادى وماتلاه ، بعد الحملة الصليبية التى قادها نابليون على مصر ، وتبعتها حملات صليبية أوربية متعددة على العالم الإسلامى : فرنسية وانجليزية وبلجيكية وهولندية وألمانية . . ثم أمريكية . . فى صورة « استعمار » حربى واقتصادى وسياسى . . يعمل بادئ ذى بدء على خلع الحكومة المسلمة القائمة بتنفيذ شريعة الله ، وإخضاع الحكم لتشريع غير ربانى ، وبصفة خاصة غير إسلامى .

كما أن الإسلام قد « حرك » الحياة و « طورها » فى كل مكان حل فيه . . وكانت آيات التطوير شاملة لشتى الاتجاهات .

ففى الجزيرة العربية وما شابهها فى البناء الاجتماعى والاقتصادى ، أحدث حركة ضخمة حين حول المجتمع القبلى إلى « أمة » . أمة متماسكة ، تحكمها حكومة مركزية واحدة ، وتطبق فيها قانونا واحدا ، ويجمعها فى النهاية شعور الأمة الموحدة ، لا المقاطعات المستقلة ولا الأقاليم المتفرقة المنعزلة . وفى البلاد ذات الحضارات السابقة أحدث حركة مماثلة حين حرر الأمة من عبادة الوثن الحاكم إلى عبادة الله . . فانطلقت المشاعر التى كانت حبيسة فى عبودية الحاكم ، تنشط فى مجالها المتحرر مختلف ألوان النشاط .

وفى جميع الأحوال أحدث « حركة » اقتصادية ضخمة ، فانتقل بالمجتمع الإسلامى الواسع من مرحلة الرق ، والرعى ، إلى الزراعة والتجارة والصناعة على مستوى « دولى » . . فحال دون الركود الاقتصادى على وضع معين فترة طويلة من الوقت . وأهم من ذلك أنه — بتشريعاته الخاصة ، الاقتصادية والاجتماعية — حال دون « ثبات » الوضع الاقتصادى والاجتماعى للأفراد والأسرات . فلا نظام

فيه « الطبقات » كالذى عرفته أوربا . ولا « أشراف » بالمولد يظلون يتوارثون الأرض والمال والمركز الاجتماعى والسيادة . وإنما هو مجتمع « مفتوح » يستطيع كل فرد فيه بوسيلة أو بأخرى أن يرتفع إلى القمة وأن ينزل إلى الحضيض . ثم تتفتت الثروات بتشريع الإرث فلا تبقى فى يد شخص واحد أو أسرة معينة . ثم التجارة بتقلباتها تغنى هذا وتفقر ذاك ، وتحدث حركة دائمة فى أوضاع الناس ، فلا الغنى يبقى غنيا إلى الأبد ولا الفقير يظل على فقره ، وإنما يتبادلون المراكز كلما تقلبت الأحوال . ثم « الصناعة » فى المدن الصناعية تحدث ألوانا من الثروة وألوانا من العلاقات غير ثروة الإقطاع وعلاقاته . . وهكذا تمور الحركة فى العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه .

وكذلك كانت الفتوح والغزوات التى صاحبت تاريخ الإسلام سببا فى حركة من نوع آخر . حركة الجيوش وحركة الأفكار وحركة الحضارات . فمع كل فتح جديد حركة . ومع كل حركة تبادل حى بين الغالبين والمغلوبين . تتولد عنه مفاهيم اجتماعية واقتصادية وسياسية جديدة ، يحكمها فى النهاية مفهوم الإسلام .

وفوق ذلك كله كانت الحركة العلمية . . وهى تعتبر فى ميزان التاريخ أكبر حركة فيه إلى ما قبل العصر الأخير . وهى ليست مجرد علم . وإنما هى على وجه التحديد « حركة علمية » . حركة تأخذ وتعطى ، وتنمو وتزداد . حركة تأليف وترجمة ونشر [عن طريق المدارس والمكتبات العامة] على نطاق واسع غير معهود من قبل فى التاريخ . حركة فى الفلسفة التجريدية والعلوم النظرية والتجريبية . . ويكفى من دلالاتها أن يكون العلماء المسلمون هم الذين أنشأوا المذهب التجريبى الذى سارت عليه العلوم كلها فيما بعد ، وطبقوه على أوسع نطاق ، فى الجغرافيا والفلك . . وفى الطب والكيمياء والطبيعة . . وفى اتجاه الحياة عامة بلا استثناء .

فى هذا الجو « المتحرك » النامى المتطور كان يعيش العالم الإسلامى ، حيث كانت تعيش أوربا فى جو من الركود و « الثبات » . . .

وحتى حين استهلك العالم الإسلامى طاقته [لأسباب تاريخية ليس هنا مجال تفصيلها ، ولكن يمكن تلخيصها فى كلمة واحدة : أنها البعد التدريجى عن « الإسلام » . . أى عن مصدر الحركة والإشعاع] . . حتى حينئذ كانت فيه من بقايا الرصيد الضخم ، رصيد الحركة والنماء والتطور ، فى أيام الحروب الصليبية ، ما كان كافيا لأن يشعل الشرارة فى أوربا ، فيخرجها من الظلمات إلى النور .

فى الحروب الصليبية التقت أوربا « ببقايا » الحركة الإسلامية .. أكبر حركة مد فى التاريخ .. فكانت هذه البقايا تحمل من الحيوية والحركة والاشتعال ، ما استطاع أن يوقظ أوربا من سباتها ، ويبعثها تطلب الحركة والحياة .

أولى ثمار الحروب الصليبية فى أوربا كانت حركة البعث العلمى . فقد تعرف الصليبيون على المعارف الإسلامية ، سواء ما كان منها من أصل إغريقى ، وما كان إضافة جديدة أضافها العلماء المسلمون فى فترة الركود الأوربى الطويل . وكانت حركة البعث هذه أول شرارة انطلقت لتحرر الأرواح فى أوربا من ظلام الجهل والخرافات والأساطير .

ثم كان تحطيم النظام الإقطاعى والسعى لتكوين الدول والأمم فى مكان الإقطاعيات والقبائل ، حين لمس الصليبيون فى حربهم مع المسلمين مزايا الحكومة المركزية الموحدة ، والقانون الواحد الذى يسرى على الجميع ، القانون الذى لا ينبع من هوى حاكم الإقطاعية ، ولا تتداخل فيه السلطة القضائية والسلطة التشريعية والسلطة التنفيذية ، كما كانت كلها تتداخل فى شخص الحاكم هناك . كما ساعد تكوّن المدن التجارية والصناعية التى نشأت فى أثناء الحروب الصليبية — على غرار المدن الإسلامية الساحلية — على تفتيت الإقطاع وتحرير العبيد .

باختصار بدأت أوربا « تتحرك » من سباتها الطويل .

* * *

وحين بدأت تتحرك .. أخذت الحركة تصطدم بمفهوم « الثبات » .

وقد كان هذا المفهوم بعيد الغور فى التربة الأوربية .. فلفترة طويلة من الزمن كان كل شيء ثابتا فى أوربا لا يتحرك ولا يريم . العبيد فى الأرض . والسادة فى الإقطاعيات . كل منهما يرث عبوديته أو سيادته على مدار الأجيال ومدار القرون . ورجال الدين ذوو المنزلة والسطوة عنصر يكمل الصورة ويثبّت الإطار .

الحياة هى الحياة .. الرجل والمرأة والأطفال يتعاقبون على طور واحد . فرد يذهب وفرد يخلفه فى مكانه ، يأخذ نفس السمت ويؤدى نفس الدور ، فكأنما لا يذهب الذاهب ولا يجيء .. فى حـــدود « الطبقة » بإطارها الجامد الذى لا يتحطم ، يعيش كل إنسان . الشريف فى «شرفه» والشعب فى شعبيته ، ورجل الدين فى مسوحه .. بلا تبديل .

الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والروحية تسير على نفس الوتيرة منذ عهود لا يعيها وعى الفرد ، وإنما يتصورها امتدادا « أزليا » ثابتا فى الماضى ، ويراها فى الحاضر ثابتة ، فيتخيل لها كذلك ثباتا أبديا فيما يُقبل من التاريخ ..

وفى ظل هذا المفهوم الثابت تثبت الأفكار والقيم والأخلاق والتقاليد . . ويشمل ذلك كلّه من الخارج إطارُ الدين ، فيُحكِم الصورة الثابتة ، ويزيد فى تثبيت المفهوم .

* * *

والجهل والأساطير والخرافة تزيد من عنصر الثبات . .

فالعلم حركة .. حركة فى الذهن تتبعها حركة فى واقع الحياة . وما دام الذهن

يعمل ويتحرك ، ويعرف جديداً كل يوم ، فلا سبيل للركود الجامد ولا الثبات الجاثم .. وإنما السبيل للتغير والتطور ، والتحوير والتبديل .

ولقد كانت الكنيسة الأوربية قيّمة على هذا الجهل حريصة عليه .. فأى شيء — كالجهل — يمكن أن يضمن لها استنامة الجماهير لسلطانها الطغيانى ، وأى شيء يمكن أن تحذره أكثر من العلم الذى « يحرر » الأرواح والنفوس ؟!

ومن هنا كان الدور « الطبيعى » للكنيسة — من موقفها الذى ترصد منه الحياة الأوربية — أن تحافظ على الجهل أطول مدة تستطيعها ، وتمنحه سلطان الدين وعنوانه ، وأن تحارب العلم ما وسعتها المحاربة ، وتسمه بالعصيان والمروق ، وتطرده من رحمة الله . . كذلك فعلت مع كوبرنيكوس وجاليليو وجوردانو برونو .. ومع كل عالم تجرأ أن يناقض جهالتها المقدسة ، ويفتح الباب للعلم كى ينير الطريق .

* * *

من هذا « الثبات » الهائل الراسخ العميق الغور ، أخذت أوربا تتحرك على صدى الحروب الصليبية ، وما أطلقته هذه الحروب فى كيانها من هزات .

وكان أمراً طبيعياً أن تقوم « الحركة » فى أوربا على غير أساس الدين .. أمراً طبيعياً من جميع الوجوه ..

فالدين كما تصورته الكنيسة الأوربية وصورته للناس ، كان — كما قلنا — يمثل الثبات المطلق فى جميع الأمور . فالحركة إذن لا بد أن تصطدم به ، كما تصطدم كل حركة بالسكون . ولا بد أن تقوم على غير أساس منه ، لأنه لا يسمح بمفهوم الحركة ، ولا يمكّنه من الوجود .

والكنيسة فوق ذلك كانت قد أصبحت غولا بشعاً يطارد الناس فى يقظتهم ومنامهم ، يفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين ، ويفرض عليهم العشور

والضرائب ، وأعمال السخرة فيما تملك من الأرض ، والتجنيد فى الجيوش التابعة لها التى تحارب بها الملوك . فكان رد الفعل الطبيعى هو « التحرر » .. التحرر من سلطان الكنيسة الطغيانى ، و إقامة البناء الجديد — بناء النهضة — على مبعدة من ذلك السلطان .

فإذا أضيف إلى ذلك أن الكنيسة قد بدأت بالفعل بتعذيب العلماء وتحريقهم وقتلهم لأنهم يعلنون ما تصل إليه أبحاثهم العلمية المخالفة لأساطيرها المقدسة .. فقد كان الطبيعى إذن أن تقوم الحركة « العلمية » مناهضة لسلطان الكنيسة ، بعيدة عن مفهوم الدين .

وذلك كله فوق الروح الإغريقية الرومانية الوثنية العميقة الغور فى النفس الأوربية ، والتى كانت تختفى تحت قشرة رقيقة من المسيحية فى العصور الوسطى ، فما إن واتتها الفرصة فى حركة العداء للكنيسة حتى برزت من تحت السطح ، وعادت تحكم الحياة وتحكم الأفكار والنفوس !

* * *

ولا شك أن هذا كله كان بطيئاً جداً وتدريجياً جداً .. فالحركات — مهما اشتد أوارها — بطيئة الحدوث فى النفوس ، بطيئة التغلغل ، لأن عليها أن تقاوم رواسب كثيرة واعية وغير واعية ، وتصطدم بكثير من العقبات . .

والأفكار التى تبدأ فى نفوس أفراد متحمسين ، يقتحمون المخاطر ويرتادون الطريق ، لا تتحول إلى أفكار « جماهيرية » على نطاق واسع ، إلا بعد أجيال من دورتها الخفية فى النفوس .

ومن ثم فقد استغرقت « النهضة » قرونا عدة وهى تقاتل سلطان الكنيسة ، وتقيم الحياة — جزءا جزءا — بعيداً عن سلطان الدين . ولكنها كانت

« لادينية » منذ مولدها ، و «هيلينية» فىوجهتها ، وفى استمدادتها و إيحاءاتها ، أى .. بعيدة عن روح الدين .

* * *

وقام الصراع . . الخفى والعلنى فى نفوس الناس بين مفهوم النهضة ومفهوم الدين .

صراع مرير بطىء طويل الأمد .

فقد كانت ثمار النهضة مغرية ولا شك .. ثمارها الفكرية والعلمية والفنية .. كانت — بالنسبة لأوربا — نورا ينفذ فى الظلمات ، وتتفتح عليه العيون مبهورة بعد طول الظلام . وكانت حركة من الركود الآسن المتعفن . والحركة فى ذاتها محببة ، لأنها تلبى الفطرة التى تكره السكون . كما أنها كانت تعتمد — فى أغوار النفس الأوربية — على الميراث الإغريقى الرومانى الذى لم تكن المسيحية قد أطفأته إطفاء كاملا ، إنما كان مكموراً فقط تحت غشاء الدين ..

كل ذلك يسّر للنهضة أن تمضى قدما فى نشر رسالتها فى المعرفة والحضارة ، والعلوم والفنون . .

ولكن — من جانب آخر — كانت « العقيدة » عزيزة على الجماهير . فقد صاحبتها ألف سنة أو تزيد . وأياً تكن درجة تعمقها ، وأيا يكن تغلغلها الحقيقى فى الحياة ، وحكمها لسلوك الناس .. فقد كانت « موجودة » ومؤثرة فى وجدان الجماهير . ولم يكن من السهل اقتلاعها ولا محوها من الوجود .

ومن ثم عاشت أوربا فترة من الوقت غير قصيرة بشخصية مزدوجة : مسيحية من ناحية ، وهيلينية من ناحية . مسيحية فى داخل الكنيسة ، وهيلينية فى واقع الحياة . مسيحية فى الوجدان وهيلينية فى التفكير .

واستمر هذا « الطور » عدة قرون .

ولكن المعركة الخفية كانت تدور فى داخل النفوس .. وتدور — رويدا رويدا — فى صالح الهيلينية المنبعثة فى عصر النهضة لا فى صالح الدين .. وإن كان الدين — بعد — صاحب سلطان فى نفوس الجماهير .

* * *

وجاء اليوم الذى وقع فيه الصدام الحاد المدمر العنيف .

وقع على يد دارون ..

فقد أصدر دارون كتابه فى « أصل الأنواع » سنة ١٨٥٩ ، وفى سنة ١٨٧١ نشر كتابه فى « أصل الإنسان » .

ورُسم خط واضح من خطوط التاريخ .

فمن قبل وقع الصدام بين الكنيسة وبين كوبرنيكوس[١] وجاليليو[٢] وجوردانو برونو[٣] ، وعذبتهم وأحرقتهم ونكلت بهم أبشع تنكيل حين عارضوا فكرتها فى أن الأرض مركز الفلك والإنسان مركز الكون .. وقد تكون الجماهير قد استبشعت عمليات النكال والتعذيب ، ولكنها رغم ذلك وقفت فى صف الكنيسة تصفق لانتصارها على « الملحدين » .

ثم جاء دارون بالطامة الكبرى حين قال إن الإنسان أصله حيوان ..

وكفرته الكنيسة بلا شك ..

ووقفت الجماهير فى بادىء الأمر فى جانب الكنيسة . فقد عز عليها بطبيعة الحال أن يصمها دارون بالحيوانية ، وينزع عنها « قداستها » وتميزها ورفعتها ، حين ينزع عنها كرامة الإنسان ويردها إلى أصل الحيوان .

ولكنها رويدا رويدا فى المعركة الحادة التى قامت بين دارون وبين الكنيسة ، غيرت موقفها ! فقد وجدت أن هذه فرصة سانحة للإجهاز على ذلك الغول البشع الذى يضطهد الناس بسلطان الدين .

---

(١) سنة ١٤٧٣ — ١٥٤٣ (٢) سنة ١٥٦٤ — ١٦٤٢ (٣) سنة ١٥٤٨ — ١٦٠٠

ونسيت الجماهير بعد فترة كرامتها «الإنسانية» المهوزة ، وفرحت بالانطلاق والتحرر .. ولو فى إهاب الحيوان ! وحمدت لدارون وقفته « الجريئة » فى وجه الطغيان . وحمدت له أكثر من ذلك أنه أعطاها السلاح الجبار الذى تحطم به ما بقى من سلطان الكنيسة الجائر : سلاح « العلم » .. سلاح العرفان .

* * *

ولكن شيئاً كبيراً كان قد حدث فى هذه الأثناء ..

فكرة « التطور » حلت محل فكرة « الثبات » ..

لقد كانت « الحركة » من قبل قد اصطدمت بالثبات فعلا ، وبدأت تزلزله من مكانه . ولكن الصراع كان خفيا ، وكان هينا لينا داخل النفوس. فقد عاشت الهيلينية والمسيحية معاً جنبا إلى جنب فى ظل ازدواج الشخصية الذى عاشت به أوربا طوال عصر النهضة وما بعده .. وكان من الممكن أن تستمر فى هذا الازدواج فترة طويلة أخرى لولا هذه الأحداث ..

وكان دارون هو الناقوس الذى دق معلنا مجىء الأحداث .

لقد صارت الحركة المضادة للثبات الآن نظرية « علمية » ، ولم تعد مجرد وجدان خفى فى داخل النفوس . نظرية اسمها « التطور » . . اسم جديد ، مغرٍ جذاب!

واندفعت الجماهير وراء اللعبة الجديدة . .

العلماء أولا . . ومن ورائهم الجماهير . .

« هيجة » ! . . كل شىء يتطور . .

إذا كانت الحياة تتطور . . من الخلية الواحدة إلى الإنسان المعقد الشديد التعقيد ؛ وإذا كان الإنسان ذاته قد تطور من حيوان سابق إلى حيوان يشبه الإنسان ، إلى إنسان يشبه الحيوان . . إلى إنسان . . فماذا يمكن أن يكون ثابتا على وجه الأرض على الإطلاق ؟ !

لقد كانت صدمة عنيفة لفكرة الثبات . .

صدمة لم تطقها فى مبدأ الأمر أعصاب العلماء ولا أعصاب الجماهير . .

ولكن هؤلاء وهؤلاء حين أفاقوا من الصدمة أخذوا يتشبثون فى فرحة ولهفة باللعبة الجديدة ، وأخذوا ينطلقون بها فى كل مكان .

إنه ليست الأحياء وحدها هى التى تطورت أو تتطور .

إنه كل شىء . . كل شىء فى هذه الحياة . .

حتى الأفكار والمجتمعات تتطور . . إنها ليست « ثابتة » كما كانت تبدو من قبل .

والدين . . ؟ ! ياللعجب ! إنه هو الآخر يتطور ! من كان يتصور ؟ !

إن فكرة الله « تطور » فى تفكير البشرية ! إنها ليست فكرة أزلية ثابتة كما كان يصورها الدين وتصورها الكنيسة . لقد تطورت من قبل ، ويمكن اليوم أن تتطور . كانت عبادة للوالد . وعبادة للطوطم . وعبادة لقوى الطبيعة المختلفة . وعبادة للأوثان . ثم صارت عبادة لله . ولكنها يمكن أن تتطور . . يمكن أن تكون عبادة لأى شىء آخر . . ماذا لو أصبحت عبادة « للطبيعة »؟!

الطبيعة جميلة . . الطبيعة خلاقة . . الطبيعة هى الأم التى ولدتنا . . أو «خلقتنا» .. فلنعبدها ! إننا كاسبون بذلك مكاسب عظيمة . سنحطم الكنيسة ذات السلطان الطاغى الذى لا يرحم ، وذات الجهالات والخرافات والأساطير . وسنعبد إلها « جميلا » . . وفوق ذلك فإنه إله بلا كنيسة ! بلا التزامات ! بلا ضرائب ولا عشور . بلا رهبانية . . بلا تزمت . إله يمنحنا الحرية لأننا سنعيش فى ظله أحراراً من كل قيد .. طلقاء .. نفعل ما يحلو لنا، لأنه لا يحاسبنا ولا يزجر أفعالنا . سنولد من جديد . لن نولد — هذه المرة — فى المسيح . ولكن سنولد فى أحضان الطبيعة . . فأى فرحة لنا فى هذا الدين الجديد ؟ !

* * *

ولـكن موجة الاندفاع وراء التطور ، والابتعاد عن مفهوم الدين ، لم تـكن قائمة على دارون وحده ، وإن كان دارون بطلها المغوار . .

لقد كان هناك حدث اقتصادى واجتماعى ضخم يهز أركان الحياة هزاً ، ولا يقل مفعوله عن مفعول نظرية التطور .. ذلك هو الانقلاب الصناعى فى أوربا.

بدأ الانقلاب الصناعى بظهور الآلة . . وأحدث انقلابا كاملا فى الحياة الأوربية لا يقف عند حدود العلاقات الاقتصادية أو الاجتماعية وإنما يتعداها إلى كل نواحى الحياة .

بدأت المدن الصناعية تنشأ ، وتجتذب إليها الشباب من الرجال يعملون فى المصانع الجديدة ويسكنون فى المدينة على نسق جديد لا يعرفونه من قبل .

لقد كانت الحياة من قبل هادئة رتيبة بطيئة آسنة . . تمر بمتاعبها وملاعبها على وتيرة واحدة فى القرية أو الإقطاعية . . الفلاحون يعملون فى الأرض أرقاء أو طلقاء ، وزوجاتهم فى المنازل يدبرن شئونها ويغزلن الغزل ليبعنه فى السوق . . والأسرة — فى صورتها تلك — مكينة الروابط ، لا يفـكر أحد أو يجرؤ على تفتيت روابطها . والناس متعارفون على مفهوم معين للدين والأخلاق والتقاليد ، يرعونه حق رعايته أو لا يرعونه ، ولـكنهم لا يفـكرون فى مناقضته حتى ولو خالفوا تعاليمه فى سلوكهم الواقعى . ولـكل شىء من ذلك قداسة . قداسة استمدها من طول الممارسة وثباتها ، فوق استمدادها من رهبة الدين . . والجريمة الخلقية يرتـكبها نفر من الشبان الطائشين لأنهم طائشون . . وقد يتغاضى عنها « المجتمع » ولـكنها فى نظره جريمة . والفتيات لا يرتـكبن هذه الجريمة لأن سمعتهن تذهب إذن إلى الأبد — كذلك تقضى مفاهيم المجتمع . فهناك الفضيحة وهناك العار . . وهناك أيضاً — فى هذه الحالة — رهبة الدين . فلا تقدم الفتيات عليها إلا فلتة عابرة فى القرية فى كل جيل .

وفجأة أخذت الأمور تتغير ..

فالمصانع الجديدة تجمّع حولها الشبان الأقوياء المفتولى العضلات . . الذين يقدرون على الجهد العضلى العنيف ، فقد كانت الآلات فى منشئها تحتاج إلى مثل هذا الجهد لإدارتها . وقدجاء هؤلاء الشبان إلىالمدينة أفرادا بلا أسر ، يرتادون الطريق و يمارسون هذه التجربة الجديدة ، لايجرؤون على إحضار أسرهم معهم قبل أن يستقر لهم المقام .

وهم شبان مغامرون .. انفلتوا من « القيد » الإقطاعى .. الذى كان يكبلهم بالأرض ، والمذلة للسيد ، فجاءوا يمارسون « الحرية » فى المجتمع الجديد .

وهو مجتمع لايعرفهم .. لايعرف ذواتهم . إنهم فيه أغمـــار مجهولون ، لا يحفلهم أحد ، ولا يتقيد سلوكهم بمعرفة الناس لهم ، واستحياؤهم هم من الناس الذين يعرفونهم ، ويعرفون أسرهم و يعيّرونهم بالسلوك المنحرف . .

ثم هم شباب قوى فى فترة الفتوة الفارهة .. بلا أزواج .

إذن .. فالطريق هو الجريمة الخلقية ، والظروف كلها تمهد الطريق .

وجاء دور المرأة لتعمل . .

ساءت العلاقة بين العمال وأصحاب المصانع . يشغلونهم فوق ما يطيقون و يعطونهم أبخس الأجور . ويضرب العمال أو يهددون بالإضراب ، فيبحث « السادة » الجدد عن سلاح مضاد .. هو إيجاد « جيش احتياطى » من العمال الذين يقبلون العمل بنفس الأجر بل بأجر أقل ..

وجاءت المرأة التى هجرها عائلها ، أو التى لاتجد عائلا بعدنزوح ألوف الشبان إلى المدينة وترك ما يقابلهن من الفتيات بلا رجال .. جاءت فوقعت فى المصيدة المنصوبة . جاءت تبحث عن عمل لتعيش . ورضيت بهذا الأجر الدون تحت وطأة الظروف .

ورُسم خط جديد من خطوط التاريخ ..

المرأة تعمل « بالجملة » ..

وتأخذ أجرا فى يدها تملكه لنفسها دون شريك أو رقيب .

وصحيح أنها تعول به نفسها أو أسرتها . ولكنها صارت « تملك » بعد أن لم تكن تملك و « تتصرف » فى ملكها بعد أن لم تكن تتصرف . فقد كانت تقاليد المجتمع الأوربى وتشريعاته تحجب المرأة عن التعامل الحر فى المال والملك ، وتمنعها من حرية التصرف المباشر فى أى شأن من الشئون .

وأحست المرأة رغم وطأة الظروف كلها أنها « تتحرر » .

والتقى شاب متحرر بفتاة متحررة !

لم لايلبيان معاً — فى حرية — داعى الجنس المحبوس ؟!

ولم يكن هذا دفعة واحدة بطبيعة الحال ، وما كان من الممكن أن يكون . فهناك الرواسب الواعية والخفية العميقة المترسبة فى النفس تزجرها عن الانطلاق. ولكن رويدا رويدا تتم جميع الأمور .

* * *

ونشأ مع الرأسمالية الصاعدة جيل يمارس لونا من الحرية السياسية لم يكن موجودا من قبل . برلمان وانتخابات وتمثيل شعبى ومهنى ونقابى . . وخطب واجتماعات . وحرية فى القول والعمل . . شىء لم يكن موجوداً فى داخل الإقطاع . شىء دافع إلى النشاط والحركة . دافع إلى الأمام . وفى الوقت ذاته « متحرر » . . يطلب مزيدا من الحقوق مزيدا من الحرية . ويقابل صعابا فى الطريق ، من « السادة » أصحاب النفوذ ، الحريصين على التفرد بالسلطان ، فيحفزه ذلك إلى مزيد من الصراع فى سبيل الحرية . ويعدى التحرر النفس من شعور إلى شعور . ومن فكرة إلى فكرة . فتطلب الحرية فى جميع المجالات

ومن بينها التحرر من قيود الأخلاق كما رسمها المجتمع الزراعى فى ظل الإقطاع وثبتتها إطار الدين . . .

* * *

وتتفكك روابط الأسرة . .

الرجل يعمل والمرأة تعمل والأطفال يعملون . .

ولا يعود البيت فى حسهم جميعاً هو ذلك الرباط المقدس الذى يربط بعضهم ببعض ، والذى يلتزمون نحوه بآداب ومشاعر وتقاليد و « طقوس » .. كانت تنشأ فى المجتمع الريفى من وجود « امرأة » مستقرة تنظم هذه المشاعر وتمسكها بيدها . . أو بقلبها . . فلا تفلت منها . كما تنشأ من سيطرة الزوج على الموقف كله داخل الأسرة ، وصدور « التشريعات » فى داخل المنزل منه وحده ، فيوجد رباطان متقابلان يربطان كل أفراد البيت : رباط عاطفى تملك قياده الأم ، ورباط عملى يملك قياده الأب ، والأطفال بين هذا الرباط وذاك يروحون ويجيئون فى « حضن » الأسرة لا يتعدونه .

كل ذلك تغير حين خرجت المرأة من مستقرها فانفلت الرباط العاطفى . . فلا وجود له فى زحمة العمل والجهد الناصب الذى تبذله المرأة فيه . وتغير كذلك حين « استقلت » المرأة اقتصاديا ، فصارت « سلطة » مع سلطة الأب . . فانفلت الرباط العملى الذى كان يحكمه تفرد الأب . . ثم تغير مرة ثالثة حين ذهب الأطفال يعملون ، فيصهرهم جو العمل مبكرا قبل أوانه ، ويفسد فيهم مشاعر الطفولة ، ويستحث فيهم مشاعر النضوج فى كيانٍ طفل ، فتختل مشاعرهم وينفلتون من الرباط . . الرباط العاطفى والرباط العملى سواء .

* * *

ويحدث ذلك كله تغيرا ملحوظا فى صورة المجتمع .

كل العلاقات المعهودة تتغير .. أو .. « تتطور » !

العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والخلقية والفكرية .. لا شيء على حاله ، بعد أن ظل على حاله مئات السنين .

الصورة الثابتة ، التي كان الفرد مجرد لبنة فيها ، يذهب فيجيء غيره يخلفه و نفس مكانه .. لم يعد لها وجود .

لا الرجل ولا الطفل ولا المرأة .

لا البيت ولا الشارع .

لا العبد ولا السيد .

لا العمل ولا نوع الثروة .

كل شيء قد تغير ..

وتغير بسرعة مدهشة لا عهد بها من قبل فقد كانت من قبل تمر السنوات العشر أو العشرون أو الخمسون أو المائة لا تكاد تحدث تغيرا يذكر في الصورة . بحيث يغري الأمر بالظن أن كل شيء « ثابت » ، لبطء الحركة وضآلتها . فاليوم صارت السنوات المائة ، بل الخمسون ، بل العشرون ، بل العشر . تحدث تغيرا ملموسا واضحا في كل شيء :

رجل من حيث هو « رجل » لم يعد له السلطان المطلق في بيته كما كان .

وامرأة لم تعد تعتبر نفسها قعيدة بيتها ، ولا ملزمة بالطاعة الكاملة لذلك الرجل الذي كان .

وطفل مشرد نفسيا وإن كان يحمل بين أصابعه شيئاً من النقود .

و بيت لا رباط فيه .

وشارع مزدحم بالناس . أصناف مختلفة من الناس . رجال ونساء وأطفال ، كزحمة للمواسم والأعياد في القرية ، ولكن في غير موسم أو عيد . وعلى نحو

آخر غير ازدحام القرية . فهنا ناس لا يعرف بعضهم بعضا ، ولا يحفل بعضهم شئون بعض ولا يلتزمون إزاء بعضهم البعض بتقاليد التعارف والارتباط .

وعبد « تحرر » من ربقة الأرض . ووقع فى عبودية جديدة ، هى عبودية المصنع ورأس المال . ولكنه مع ذلك مستبشر : دخله زاد . وأصبح يصارع . يملك حق الصراع . ويطالب بحقوق . ويملك حق المطالبة بالحقوق . ويتكتل فى تكتلات ذات فاعلية ووزن ، ويصبح بالتدريج قوة سياسية متزايدة . ثم هو يعيش مع غيره من العبيد فى جو سمته [الظاهرية على الأقل] هى الحرية لاالعبودية . وخصوصاً فى الجانب الخلقى . ثم هو يشعر بفرديته المتميزة [فى سلوكه الشخصى] حيث كان مقيدا فى كل خطوة من قبل بالسلوك الجمعى الذى يربط إطار القرية كله ؛ بينما يشعر بجماعيته المتكتلة [فى النقابات والأحزاب والهيئات والجماعات] حيث كان يحس بالضياع من قبل كفرد لامجموع له ، لأن المجموع الذى يمثله ليس له حساب . وباختصار قد انقلب كيانه كله ، بجميع جزئياته ، وأصبح صورة مقابلة تمام التقابل لكل ما كان !

وسيد مازال يشعر بالسيادة ولكن من نوع آخر . فهى سيادة صارت تعتمد على المال السائل بعد أن كانت تعتمد على الأرض . صارت مركزة فى حيز أصغر ولكنه أفعل . ومع ذلك فهى سيادة تحتاج إلى صراع مع العمال والنقابات من جهة ، والمنافسات الشديدة من جهة أخرى ، بصورة لم تكن موجودة من قبل فى الإقطاع المستقر الثابت الأركان .

وعمل من نوع جديد . لايتعامل مع « المجهول » لايتعامل مع « الغيب » كما كان يصنع وهو يبذر البذرة فى الأرض وينتظر الناتج من السماء ، وإنما يتعامل مع القوى المنظورة التى تتدخل فى « المادة » فتشكلها وتصوغها كما

يريد « الإنسان » . يتعامل مع « الطبيعة » لا « ما وراء الطبيعة » ! يتعامل مع المادة لا مع الله .

كل شيء صورة مختلفة تمام الاختلاف عما كان قبل ذلك « الانقلاب » .

* * *

ثم يتدخل « العلم » فيكمل صورة التغير ..

التقدم العلمى يقفز قفزاً هائلا كل يوم ، ويغير شكل الحياة البشرية .

الآلة .. المركبة البخارية السيارة . الكهرباء .. الصناعة الآلية فى مكان الصناعة اليدوية .. كل شيء قد تغير عن ذى قبل . ثم .. هو دائم التغير لا شيء يثبت على حاله أكثر من بضع سنين ، قد تختصر إلى بضعة شهور .. ثم يتغير . يدخل عليه تحوير جديد .

وصورة الحياة تتغير تبعا لكل تغير جديد يحدثه العلم .

فالسفر بالقطار شيء يختلف تماما عن السفر على الحصان أو العربة التي تجرها الخيول .

والنسيج الآلى شيء آخر غير النسيج اليدوى ..

والكهرباء غير الفحم ..

والشارع الذى تصب فيه المخترعات الجديدة كل يوم ، شيء آخر غير الشارع الثابت فى طوله وعرضه ومعروضاته .

والبيت الذى يستحدث أدواته يختلف عن البيت الذى ظل قروناً يستخدم نفس الأدوات ..

بل نظريات العلم ذاتها تتغير .. فى الطبيعة والكيمياء والطب والفلك والرياضة والأحياء .. نتيجة للكشوف العلمية الجديدة والآلات العلمية المستحدثة .

وهل هناك ما هو أضخم من القول بأن الكائنات الحية تطورت من الكائن

الوحيد الخلية ؟ أو القول بأن الهواء مملوء بملايين من الأحياء الدقيقة التي لا ترى ولا تحس ، وهي مع ذلك شديدة الخطورة ، تحدث الأوبئة والأمراض ؟ أو القول بأن الكواكب ليست سبعة فقط ، أو أن هناك ملايين من النجوم لا تراها العين وهي مع ذلك أكبر وأشد اشتعالا وإضاءة من الشمس ؟ !

وينشأ من ذلك كله شعور عميق بالتغير .. أو التطور .. أو عدم الثبات .

* * *

وتتجمع « حصيلة » هذا كله في اتجاه معين ، أو اتجاهين متصاحبين ..

التطور من ناحية .. ومن ناحية أخرى الابتعاد التدريجي عن الدين ..

التطور لم يعد « نظرية علمية » كالتي نادى بها دارون في داخل المعمل ، وفي حدود العلم الذي بحث فيه : علم الأحياء .. وإنما صار « لوثة » أصابت العلماء كما أصابت الجماهير .

لوثة تصيب كل شيء ، وتتصور كل شيء من خلال فكرة التطور .. لا شيء ثابت على الإطلاق .

لا الدين . ولا الأخلاق . ولا التقاليد . ولا القيم . ولا الأفكار . ولا « الحقائق » . ولا المعلومات . ولا شكل الحياة . ولا شكل المجتمع . ولا كيان الفرد . ولا علاقات الفرد بالمجتمع . ولا علاقاته مع الدولة .. ولا مشاعر الرجل ولا مشاعر المرأة . ولا أهداف الحياة ..

بل ينبغي العمل على محاربة « الثبات » بكل وسيلة من وسائل الحرب .

كل شيء « ينبغي » أن يُطوَّر بالقوة ، إذا لم يتطور من تلقاء نفسه . لا شيء ينبغي أن يكون ثابتاً على الإطلاق . فالثبات ضد ناموس الحياة . والناموس هو التطور . وكل شيء ثابتٍ فهو إذن مخالف للناموس !

ومن ثم أصبح التغيير أو التطوير هدفا في ذاته وليس وسيلة إلى غاية فحسب .

وأصبح الناس يكرهون أن يروا شيئاً ثابتاً على وضعه فى كل الأرض !

فإذا كانت العقيدة فى الله تمثل لونا من الثبات .. فلتتغير .. إما أن نغير المعبود أو نغير العبادة ! فلنكف عن عبادة الله . ولنعبد الطبيعة . أو نعبد أنفسنا .. المهم هو التغيير ! ولنكف عن الطريقة التقليدية للعبادة . فلنتعبد بطريقة أخرى ، ولتكن العربدة والانفلات .. المهم هو التغيير !

وإذا كانت الأخلاق تمثل لونا من الثبات .. فلتتغير .. فلنستحدث أخلاقا جديدة . ولو لمجرد التغيير ! فلتكن الانتهازية فضيلة ، والأنانية فضيلة ، وتقطع الروابط العائلية فضيلة ..

وإذا كانت التقاليد تمثل لونا من الثبات .. فلتتغير .. فلتسبق المرأة الرجل . وليتجرأ الصغار على الكبار . ولتتغير الملابس : ملابس الرجل وملابس المرأة . ولتكثر « الموضات » فذلك أدعى للتغيير السريع والتبديل .

ذلك من جانب لوثة التطور ..

أما من الجانب الآخر فلم يعد للدين وزن حقيقى فى هذه الأمور !

لقد جاءت الزلزلة الأولى للدين من أنه يمثل مفهوم الثبات فى عصر يتمثل كله بمفهوم التطور والتغيير ، أو مفهوم الحركة على وجه العموم . الحركة التى تصطدم بالسكون .

ولكن الأمر زاد اتساعا فى هذا الاتجاه .

إن كل علاقات المجتمع تقوم على غير أساس من الدين ..

ليست النهضة « الفكرية » فقط ، هى التى قامت على أساس لاديني « secular » ، وإنما الواقع العملى كذلك الذى انبثق من النهضة الفكرية ..

فالنظام الرأسمالى الصاعد قام على أساس ربوى صريح . والدين يحرم الربا ويمنع التعامل على أساسه . وعلى الرغم من احتجاج الكنيسة وصراخها ضد

نظام الربا ، فقد مضت الرأسمالية الطاغية فى طريقها لاتصيخ سمعا لصراخ الكنيسة ، مدفوعة بشهوة المال المجنونة التى لاتتريث ولا تتأثم . . ولا تهمها قيود الأخلاق أو قواعد الدين .

والعلاقات الجنسية « الحرة » التى قامت بين الرجل والمرأة فى ظل العمل المشترك ، والاختلاط فى المجتمع ، والاشتراك فى النوادى ، والسعى المشترك إلى « الترفيه » . . وفى ظل الاستقلال الاقتصادى للمرأة وظنها — من ثم — أنها لم تعد ملزمة بالمحافظة على عفتها ، لأنها تستطيع أن تعول نفسها إن رفض الرجل إعالتها بسبب أخلاقها . . وفى ظل صعوبات الحياة المتزايدة التى تشغل الشاب فترة من الوقت عن تكوين الأسرة والاستقرار الوجدانى والجسدى فى إطارها . . الخ . . هذه العلاقات قامت كلها على أساس مخالف للدين . ورغم المواعظ التى ألقاها « رجال الدين » بالمئات والألوف ، فإن الصياغة الواقعية للمجتمع ظلت تسير فى اتجاهها المنفلت من رباط الأخلاق . لأن الأخلاق كانت قد أصبحت مثلا معلقاً فى الفضاء لارصيد له من الواقع . ولأن الدين — وهو فى عزلة عن المجتمع منذ مولده فى أوربا ، لايحكم الحياة الواقعة ولايشرع لها فى كل شىء — لم يكن يملك أن يوجه سفينة المجتمع فى خضمها الهائج المضطرب الذى صنعه الانقلاب . .

والعلم سار منذ البدء فى طريق غير طريق الدين ، لأن الدين — كما تمثله الكنيسة يومئذ — لم يكن فى طوقه أن يمد العلم بشىء ؛ لا بمذهب — كالمذهب التجريبى الذى أمد به الإسلام التفكير العلمى — ولا بمعلومات صحيحة تفيده ، ولا بتشجيع من أى نوع . بل كان العكس هو الحاصل . فالكنيسة تشجع الجهل وتحارب العلم وتنكل بالعلماء .

ومنتجات العلم — بعضها على الأقل — تتجه نحو الكسب قبل أن تتجه

نحو الفائدة ، مدفوعة بشهوة رأس المال ، وذلك مخالف لروح الدين . ولكن الدين هناك ليست له قوة التوجيه ولا الخبرة بالتوجيه فى ذلك المجال . .

ورويدا رويدا أحس الفرد العادى أن حياته تصوغها الأشياء « المتطورة » ولايصوغها الدين .

العلم يصوغ حياته المادية و يشكلها . .

والسياسة تصوغ علاقاته السياسية وتشكلها

والرأسمالية تصوغ حياته الاقتصادية

والانقلاب الصناعى ومعقباته تصوغ حياته الاجتماعية

والهيلينية تصوغ حياته الفكرية . . .

وينعزل الدين انعزالا شديداً فى داخل الوجدان . . فكل يوم تنتزع الحياة الواقعية جزءاً من مساحته ، وتزحزحه عن مكانه فى النفس ، فيسلك الفرد سلوكه الاجتماعى والفردى ، والعملى والعلمى ، والسياسى والاقتصادى دون أن يحس بمكان للدين فى هذا كله . أو يحس بمكان لفكرة الله .

وإن لم يكن ينفر من الدين . . فهو على الأقل يهمله وهو متوجه إلى واقع الحياة . . .

* * *

ولكن الأمر لم يظل فى داخل هذه الحدود . . حدود « إهمال » الدين وعدم تحكيمه فى أمور الحياة . .

لقد مضى الأمر خطوة أبعد . خطوة « التحطيم » المتعمد لقواعد الدين .

وتلك كانت مهمة اليهودية العالمية !! وقد قامت بها بنجاح منقطع النظير .

* * *

لا ينسى اليهود قط حقدهم على « الأمميين » أو « الأميين » كما يعبر القرآن

الكريم: « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل » . ذلك أنهم هم شعب الله المختار ، وغيرهم من « كلاب » البشرية لاجزاء لهم سوى الإضعاف والإفناء والتدمير ..

وثأرهم مع المسيحية فى أوربا ثأر قديم . . ثأر الاضطهاد الفظيع الذى نالوه تحت الحكم الرومانى المسيحى ، والإذلال الذى أصابهم فى كل مجتمع مسيحى .

إذلال تمثله رواية « تاجر البندقية » لشكسبير ، كما تمثله رواية « الزنبقة الحمراء Scarlet Pimpernel » تأليف البارونة أوركزى Orczy

كان المسيحى يحتاج إلى المال فيقترضه من اليهودى ، ومع ذلك يأبى إلا أن يحقر مقرضه ، فلا يسلم عليه بيده ، ولا يلمسه ، إنما يوقفه بعيداً عنه كالمنبوذ ، ويقول له آمراً موبخاً : ضع المال بعيداً واغرب عن وجهى يا خنزير . فإذا ابتعد خطوات فى ذلة ذليلة ، اقترب « السيد » المسيحى ليأخذ المال الذى اقترضه من اليهودى !

إذلال لا تنساه ذاكرة يهود . .

وقد فرحت اليهودية العالمية أيما فرحة بقيام النهضة الأوربية الحديثة على أساس لادينى (secular) فذلك نصف الطريق نحو تحطيم المسيحية ، خصمها القديم . . وقامت تنفخ فى هذا الاتجاه من وراء الستار .

وكانت فرحتها أعظم وأشد يوم ظهر داروين — المسيحى — بنظريته فى أصل الأنواع وأصل الإنسان ، فقد أحست بذكائها ، بما وراء ذلك الحدث الضخم من صدام عنيف مع الكنيسة .

يقول كتاب بروتوكولات حكماء صهيون فى ذلك : « إن داروين ليس يهودياً ، ولكنا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ، ونستغلها فى تحطيم الدين [المسيحى] »

وكان ذلك حقاً ..

بذل اليهود جهود الجبابرة لتوسيع الهوة التى قامت بين الدين وبين الداروينية، على أمل تحطيم الدين فى النهاية ، تحقيقاً لحقدهم القديم ضد غير اليهود عامة ، وحقدهم — فى أوربا — على المسيحيين بصفة خاصة ، من أجل مالاقوه منهم من اضطهاد .

واستغلت اليهودية العالمية نظرية دارون أبشع استغلال ..

استغلته على يد ثلاثه من أكبر علمائها .. قاموا بصياغة الفكر الأوربى كله فى ميدان الاقتصاد وعلم النفس والاجتماع .. أخطر ميادين ثلاثة فى عالم الفكر .. على أساس معاد للدين ، بل محطم لكل مفاهيمه .

أولئك هم : ماركس — وفرويد — ودُرْكايم .

اليهود الثلاثة
ماركس - وفرويد - ودُرْكايم

من الحق أن نقول إن اليهود ليسوا هم الذين أنشأوا الفُرقة بين أوربا وبين المسيحية . فقد قامت الفرقة بالفعل منذ قيام النهضة دون تدخل من اليهود [وإن كان ذلك قد جاء على هواهم بلا شك] وقام الخصام والصراع على يدى دارون دون تدخل منهم كذلك [وإن كانوا قد فرحوا لذلك فرحاً شديداً كما تقول بروتوكولات حكماء صهيون] .

ولكن الدور الذى قاموا به مع ذلك كان شديد الخطورة ..

قامت الفرقة بين الدين والعلماء ، وبين الدين والمفكرين ، وبين الدين ودعاة الحرية ، وبين الدين والمرأة الراغبة فى اقتحام المجتمع و « الاستمتاع » بالحياة .. ولكن الابتعاد عن الدين ، أو النفور منه ، أو الاكتفاء بإهماله والانصراف عنه كان حتى ذلك الحين مزاجا شخصياً لأصحابه ، يصنعونه لحسابهم الخاص كأفراد ..

وقامت الفرقة بين الناس وقواعد الأخلاق — فى ميدان الجنس بصفة خاصة — كمزاج شخصى كذلك ، أو « كضرورة » يتلمس الناس إليها الأعذار ..

ولكن « العلماء » اليهود الثلاثة تدخلوا فى الأمر ليجعلوا من كل ذلك نظرية يسندها العلم ، ويعطيها سند « الحقيقة العلمية » فى أنظار الجماهير ! فلا يعود الأمر بعد مزاجا شخصياً يحتاج الإنسان إلى الاعتذار عنه ، وتلمس المبررات له ، وإنما يعود واجباً يقتضيه التقدم العلمى ، لا يحتاج إلى مبرر آخر ، فهو يبرر نفسه بنفسه .. ولا يُعتذر عنه فهو فى غير حاجة إلى اعتذار .. بل الذى يحتاج إلى التبرير والاعتذار هو التمسك بالدين والأخلاق والتقاليد .. فهى تهمة ينبغى التبرؤ منها أو تقديم المبرر المعقول !

وذلك هو الدور الخطير الذى قام به ماركس وفرويد ودركايم .. كل فى اختصاصه .. وأثر تأثيراً بالغا فى الفكر الغربى كله فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ..

إنهم لم يقولوا إن المفهوم الكنسى للدين هو المنحرف ، وهو الذى يحتاج إلى تقويم .. وإنما قالوا إن الدين ذاته هو الانحراف الذى يحتاج إلى تقويم !

ولم يقولوا إن المفهوم السائد للأخلاق هو المنحرف ، المحتاج إلى تعديل .. وإنما قالوا إن الأخلاق ذاتها ليست قيمة حقيقية من قيم الحياة !

ثم قالوا هذه القولة وتلك لا كاعتقاد شخصى يراه المؤلف ، ويدعو إليه كمذهب فردى ! وإنما كدراسات علمية ونظريات علمية وحقائق علمية .. تلبس مسوح البحث والدراسة والتحقيق !

ومن هنا كانت الفتنة التى تعرض لها المجتمع الغربى كأعنف ما تكون الفتنة .. والتى يعيش فى نتائجها منذ ذلك الحين !

* * *

لقد كانت العوامل كلها موجودة بالفعل لتؤدى لذلك الانحراف الخطير .. وكانت — فى ذاتها — عوامل عنيفة ، اجتماعية واقتصادية وفكرية .. متمثلة فى نظرية دارون من ناحية ، والانقلاب الصناعى من ناحية أخرى .. ومع ذلك فلم يكن من الحتم أن تصل هذه العوامل إلى تحطيم الدين وتحطيم الأخلاق .

لقد ابتعد الناس عن الدين مرات كثيرة فى حياة البشرية لأسباب اجتماعية واقتصادية وفكرية . وانحرفوا مرات كثيرة عن الأخلاق وانغمسوا فى الشهوات .. وكانوا فى كل مرة يعودون .

ولكنهم فى هذه المرة أبعدوا فى الضلال جداً ، وكأنما قرروا بينهم وبين أنفسهم ألا يعودوا بعد ذلك أبداً مهما فعل الفاعلون !

ذلك أنهم — فى كل مرة سابقة — كانوا ينحرفون كمزاج شخصى، لا يجد سندا فى النهاية حين يشتد و يعم المجتمع كله أكثر من سند « الأمر الواقع » . ولكنه انحراف . وانحراف مرذول .

أما فى هذه المرة فقد قدم لهم « العلماء » السند العلمى للضلال المنحرف ، فزين لهم فرأوا أنه الحق ، وأنه الصواب ، وأنه الأمر الذى ينبغى اتباعه، لا تمشيا مع الأمر الواقع ، وإنما سعيا إلى الأفضل والأقوم والأصح !

قدموا لهم الفرملة التى تمنع العودة ، وتسمح فقط بالمضى المجنون فى طريق الشيطان .

* * *

اتخذ اليهود الثلاثة نواحى مختلفة من الفكر . فكتب ماركس فى الاقتصاد وفرويد فى علم النفس ، ودركايم فى علم الاجتماع . . . ولكنهم فى النهاية يلتقون فى عدة أمور .

لقد أخذوا كلهم ، بادىء ذى بدء ، من النظرية الداروينية فكرة حيوانية الإنسان وماديته ، فمدوها ووسعوا نطاقها ، وعمموا إيحاءاتها المسمومة فى كل اتجاه.

وليس هنا المجال — ولا هو من همى فى أى بحث — أن أناقش نظرية دارون .. وإنما أنا دائماً أناقش إيحاءاتها ، وليست هذه الإيحاءات نظرية علمية! ثم إنى أكتفى فى مناقشتها دائماً بإيراد رأى الداورينية الحديثة Neo Darwinism التى تؤمن بالتطور كدارون ، ولكنها مع ذلك لا تؤمن بحيوانية الإنسان ولا ماديته الكاملة ، إنما تؤمن بتفرد الإنسان ، تفرده بيولوجيا وسيكلوجيا ، وتفرده كذلك فى طريقة تطوره ، فهو يتطور على قاعدته الإنسانية الخاصة ، لا على قاعدة الحيوان .

وسنورد هذه المناقشة فى مكان آخر ، حين نحتاج إلى مناقشة الأراء . . . و إنما نحن هنا نثبت وقائع التاريخ .

* * *

كانت نظرية دارون ذات إيحاء قوى بحيوانية الإنسان لاشك فيه . يقول چوليان هكسلى فى كتابه «الإنسان فى العالم الحديث Man in the Modern World» — وهو من علماء الداروينية الحديثة — : « وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانًا » [1] .

وهذا الإيحاء هو الذى مده العلماء الثلاثة ووسعوه على أوسع نطاق . . .

وهنا يخطر — من أجل الحقيقة التاريخية — سؤال : هل كان فى الإمكان حبس نظرية دارون فى المعمل الذى نشأت فيه ، وحجزها عن التأثير فى المجتمع الغربى والفكر البشرى كله ؟

ربما كان هذا مستحيلا فى نظرية من هذا النوع ، وفى ظروف كالتى ولدت فيها تلك النظرية الخطيرة . .

ومع ذلك فلم يكن حتما أن تتجه هذا الاتجاه فى التأثير ، لو تلقفتها أيدٍ أخرى ، مخلصة للحقيقة ، مؤمنة بالله ، أو فى القليل مقدرة « للإنسان » والخير الإنسانى .

إن الفكر الغربى الذى كان يعيش فى ظل فكرة الثبات المطلق ، قد فوجئ مفاجأة عنيفة بفكرة التطور ، فأفقدته الهزة صوابه ، وصار عرضه للانحراف . . ولكن لم يكن حتما أن ينحرف . . كان يمكن أن يرتد إلى الصواب حين يجد الهداة الذين يردونه إلى الصواب .

ولقد عرف المسلمون التطور معرفة وثيقة ، وصاحبوه مصاحبة عميقة فى تاريخهم الحىّ كله ، فلم ينحرفوا به عن سواء السبيل .

---

(١) ترجمة حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر .

عرفوه فى فقههم ، حين قال عمر بن عبد العزيز : « يجدّ للناس من الأقضية (أى الأحكام) بقدر ما يجدّ لهم من القضايا » . وحين أخذ الفقهاء هذا الاتجاه فنمّوا الفقه بالاجتهاد حتى شملوا به كل ما جدّ فى حياة الناس من أحداث ووقائع واتجاهات .

وعرفوه فى علمهم : يقول « دريبر » الأمريكى فى كتابه « النزاع بين العلم والدين » : « وإننا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر . ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهباً حديثاً ، كان يدرس فى مدارسهم . وقد كانوا ذهبوا منه إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه ، وذلك بتطبيقه على الجامدات والمعادن أيضاً »(١) .

وظلوا مع ذلك مؤمنين بإنسانية الإنسان ، ومؤمنين بالأخلاق . ذلك أنهم كانوا يؤمنون بالله .

أما اليهود الثلاثة فلم يأخذوا على عاتقهم رد أوربا إلى صوابها بعد هزة التطور ، وإنما أخذوا على عاتقهم أن ينفخوا فى انحرافاتها بقوة وعنف ، وإصرار وتمكن ، حتى تزيد الهوة اتساعا وتشتد سرعة الانزلاق .

* * *

كانت نظرية دارون قد أعطت إيحاءين متصاحبين : الإيحاء بالتطور الدائم

---

(١) عن كتاب « الإسلام دين علم خالد » للأستاذ محمد فريد وجدى ص ٢٣٣ من الطبعة الثانية . وينبغى الاحتراس هنا من مثل هذا القول ولو كان يقال فى معرض إنصاف الإسلام والفكر الإسلامى . فالذى اهتدى إليه المسلمون فى تفكيرهم شئ آخر غير مذهب النشوء والارتقاء كما قرره دارون وولاس . لقد لاحظوا التدرج فى مراتب المخلوقات من الجوامد إلى الإنسان . ولكنهم لم يقولوا — كما قال دارون — إن الإنسان من أصل حيوانى ، ولم يبخسوه قدره ولا نفوا عنه مزاياه التى تفرد بها ، وردوا تميزه — ابتداء — إلى إرادة الله الصريحة من خلقه هكذا متميزا متفردا ليصبح خليفة الله فى الأرض . ومن ثم عرفوا فكرة التطور ولكنها لم تتحول فى تفكيرهم إلى لوثة مدمرة كما حدث فى الفكر الغربى .

الذى يلغى فكرة الثبات ، والإيحاء بحيوانية الإنسان وماديته ، بإرجاعه إلى الأصل الحيوانى من ناحية ، وحصر القوى التى تؤثر فيه من ناحية أخرى بالقوى المادية الممثلة فى « البيئة » أو على الأكثر فى « الطبيعة » ، وإغفال الجانب الروحى إغفالاً تاماً ، وإغفال تدخل الله فى عملية الخلق أو عملية التطور سواء[1].

ومن هذين الإيحاءين — أحدهما أو كليهما ، ومتصلين أو منفصلين — أخذ العلماء الثلاثة : ماركس وفرويد ودركايم .

فأما ماركس فقد كان ميدان بحثه علم الاقتصاد ، ولكنه لم يقصر بحثه على دراسات أكاديمية فى علم الاقتصاد ، وإنما وضع مذهباً كاملا ، يتناول تصوراً كاملا للحياة من زاوية معينة ، يتمثل فيها الإيحاءان الداروينيان متصلين متصاحبين .

فهو قد وطد أركان التفسير المادى للتاريخ ، وهو تفسير يجعل للقوى المادية السلطان الأكبر على نشاط الإنسان كله ، كما يجعل هذا النشاط مادياً بصفة أساسية ، ومنبعثا عن الكيان الحيوانى للإنسان .

القوى المادية — والاقتصادية — هى العنصر الفعال فى تاريخ البشرية :

« فى الإنتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها ، وهى مستقلة عن إرادتهم .. فأسلوب الإنتاج فى الحياة المادية هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة ، ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم ، بل إن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم [كارل ماركس] .

« تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتى : وهو أن الإنتاج وما يصاحبه من

(١) قال دارون : « لن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله ، هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت » .

تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى . فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لايجوز البحث عنها فى عقول الناس ، أو فى سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين، وإنما فى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل » [فردريك إنجلز] .

كلام صريح لايدارى هدفه الصريح !

فأسلوب الإنتاج فى الحياة المادية ، وأسلوب الإنتاج والتبادل — وليس الحق والعدل الأزليان — هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة ، وإليه ترجع الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية . .

وتاريخ البشرية كله هو هذا التاريخ المادى . . اختراع آلة جديدة أو تغير أساليب الإنتاج هو الذى يصنع التاريخ . و «الأطوار» التى مرت فيها البشرية من أول الشيوعية الأولى ، إلى الرق ، إلى الإقطاع ، إلى الرأسمالية ، إلى الشيوعية الثانية [والأخيرة !] ترجع كلها إلى اختراع الآلات وتغير أساليب الإنتاج .

والعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية ليست قيما قائمة بذاتها ، أصيلة فى الكيان البشرى .

إنما هى انعكاس لأسلوب الإنتاج فى الحياة المادية . . أى نتيجة للكيان المادى . . فى الحياة والإنسان .

والحق والعدل الأزليان ليسا قيمة حقيقية من قيم الإنسانية . .

إنما القيمة الحقيقية هى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل . .

وحين نرسم دستورا للحياة البشرية ، فهو محصور فى نطاق « المطالب الرئيسية للإنسان » المأكل والمسكن والإشباع الجنسى [المنيفستو أو الإعلان الشيوعى] .

أما الدين والأخلاق والتقاليد فهى السخرية العظمى فى نظر ماركس . .

الرسالات السماوية بادىء ذى بدء وهم من أكبر أوهام البشرية . . « لحقيقة العالم تنحصر فى ماديته »(١) ! وفى ظل التفسير المادى للتاريخ لا يوجد الله . ولا الوحى . ولا الرسالات .

والدين ثانيا — أفيون الشعوب — شىء ابتدعه الإقطاعيون لتخدير العبيد والطبقة الكادحة عن المطالبة بحقوقهم المسلوبة ، وإغرائهم بالصبر على سوء أحوالهم والرضى بها طمعا فى الجنة فى الآخرة ، مما ييسر لهؤلاء الإقطاعيين أن يستمتعوا بالثروات المغتصبة وهم آمنون .

والقيم ثالثا — ومن بينها القيم الخلقية — إنما هى مجرد انعكاس للوضع الاقتصادى ، ومن ثم ليس لها وجود أصيل فى الحياة البشرية ، فضلا عن كونها غير ثابتة . فهى متطورة بحسب الطور الاقتصادى الذى تمر به البشرية . ولما كانت الأطوار الاقتصادية للبشرية حتمية ومتعاقبة ، فالقيم الخلقية تأخذ أوضاعا محددة ومتطورة . . وهى حتمية التطور مع تطور أوضاع البشرية .

وإلى هنا يتضح المقصود من النظرية فى أوضح صورة وأصرحها . .

أولا . . لا دين .

فالدين أسطورة ابتدعها أصحاب المصالح هنا فى الأرض ولا علاقة له بالسماء ، ولا رصيد له من الحقيقة .

وثانيا . . لا قيم ولا أخلاق .

فالقيم ليس لها وجود ذاتى ، إنما هى انعكاس للأوضاع الاقتصادية . وليس لها ثبات لأن مصدرها — وهو الأوضاع الاقتصادية — دائم التغير . ثم هى

---

(١) كارل ماركس فى كتاب « Anti _ Dihring »

حتمية التطور فلا يمكن الإمساك بها على وضع معين مهما حاول المحاولون من المفكرين أو رجال الدين .

.. ولم يقل دارون كل ذلك ولا شيئاً من ذلك !

ولا كان من همه أن يقول!

ولكن العالم اليهودى الذى أخذ إيحاء نظريته المسموم ، قد مده مَدَّة واسعة فشملت الحياة كلها ، تحت ستار البحث « العلمى » فى علم الاقتصاد .

وانتشر الإيحاء المسموم — على يد ماركس — فدخل كل الحياة الغربية على الاتساع .

حقيقة إن روسيا وحدها — فى مبدأ الأمر — هى التى اعتنقت المذهب الشيوعى كاملا وأعطته قوة التطبق . وروسيا وحدها — فى مبدإ الأمر — هى التى قاومت الدين مقاومة « رسمية » على نطاق واسع ، واضطهدته كل أنواع الاضطهاد ، من أول القتل والاعتقال والمصادرة والنفى ، إلى تدريس الإلحاد رسميا فى المدارس والجامعات . .

ولكن الغرب كله — الذى لم يصبح شيوعيا من حيث المذهب — قد أخذ مع ذلك بالتفسير المادى للتاريخ .

أخذ به فى إعطاء الجانب الاقتصادى الاهتمام الأكبر ، والميل إلى تفسير الحياة الإنسانية كلها من خلال التفسير الاقتصادى والمادى ، وإغفال « القيم » وأثرها فى الحياة ، وفى توجيه سلوك الناس . .

وأخذ به فى اعتبار القيم الأخلاقية « متطورة » لاثبات لها ، ولا سبيل إلى ثباتها . . ومتطورة على أساس التطور الاقتصادى بصفة خاصة .

وأخذ به فى اعتبار الدين آخر مايمكن أن يؤثر فى الحياة !

وصارت الحياة الغربية القائمة فى ظل النظام الرأسمالى — المضاد للنظام

الشيوعى — لاتفترق كثيراً فى الأساس الفكرى والحضارى و « الإنسانى » عن مثيلتها فى العالم الشيوعى .

صحيح أن الدين فى الغرب لم يصادر . .

وصحيح أن الأفراد هناك « متدينون » بمعنى الذهاب للكنيسة يوم الأحد، ورسم علامة الصليب فى الصلاة ، والإيمان بأن هناك رباً خلق الحياة والإنسان ، ويقدر على كثير من الأمور (١).

ولكن هذا «الدين» لايكيف شيئاً من حياة الناس الواقعية ولامشاعرهم.. فالتنظيم الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والفكرى قائم على أساس أن الحياة المادية هى الأصل . وهى الحقيقة بالعناية . وهى المسعى الذى يستغرق نشاط الإنسان . وهى « حقيقة » الحياة .

ثم إنه لاوجود — فى واقع المجتمع — للأخلاق المستمدة من مفهوم الدين. فالنشاط الجنسى « الحر » للأولاد والبنات والرجال والنساء لاصلة له البتة بمفهوم الدين . والصراع المتكالب على الحياة لاصلة له البتة بمفهوم الدين. والمتاع الحسى الزائد عن الحد لا صلة له البتة بالمفهوم المسيحى على وجه الخصوص .

والإيمان السارى عند الجماهير كلها فى الغرب — أوربا وأمريكا سواء — هو أن مقاييس الأخلاق قد تغيرت . وأن « تطورها » كان حتميا فى ظل المجتمع الصناعى . وأنه لا مجال مطلقا للمقاييس القديمة للأخلاق [التى كانت مستمدة من الدين] لأن المرأة قد تحررت [اقتصاديا] ولأن النظرة [الزراعية] للعفة لم يعد لها مجال . .

أى . . أنه التفسير المادى للتاريخ هو الذى يحكم الحياة فى الغرب . ويحكمها فى ذات النقطة أو النقطتين اللتين أراد ماركس تحطيمهما — تحت ستار البحث العلمى فى علم الاقتصاد — وهما الدين والأخلاق .

ومعناه مرة أخرى أن الإيحاء المسموم للداروينية قد وُصِّل على يد العالم اليهودى الأكبر إلى مناطق من الحياة البشرية لم يكن حتما أن يصل إليها ، فحُطِّم به فى واقع الحياة الدين والأخلاق والتقاليد فى صورة علمية منظمة لا تقوم على مذهب شخصى [فى ظاهر الأمر] ، وإنما تقوم على أساس البحث «العلمى» والدراسة والتحقيق . ومن ثم يجد فيها المنحرفون الضالون سنداً يسند ضلالهم وانحرافهم ،ولا يحوجهم إلى الاعتذار عن إهمال الدين وتحطيم الأخلاق والتقاليد، بل يجعلهم يسعون إليه سعيا ليكونوا مواكبين لموكب العلم ، مستمسكين بوحى المعرفة الصحيح !

* * *

أما فرويد فلم يأخذ من داروين جانب التطور ، وإنما أخذ عنه حيوانية الإنسان.

إنه — ككل باحث نفسى — يرسم صورة ثابتة لكيان الإنسان ، وإن كان فى كتابه Totem & Taboo [وربما كان فى هذا الكتاب وحده] يأخذ جانب التطور أيضاً ، وهو يتحدث — إلى جانب سيكلوجية الفرد — عن سيكلوجية الجماعات ، وعن تطور الدين وتطور المحرمات .. ولكنه يرسم هذه الصورة من جانب الحيوان لا من جانب « الإنسان » .

ولئن كان ماركس قد تحدث عن الدين والأخلاق ، وسخافتهما وبعدهما عن أن يكونا قيما أصيلة ، فى ظل البحث « العلمى » فى الاقتصاد ، فإن فرويد قد تحدث عن الموضوع ذاته والاتجاه ذاته فى ظل البحث « العلمى » فى علم النفس .

إن ميدان بحثه هو النفس الإنسانية .. هو المشاعر والانفعالات .. هو العالم « الداخلى » فى مواجهة العالم « الخارجى » الذى تحدث عنه ماركس . النفس فى نظره هى الميدان الأصيل للحياة ؛ عن تركيبها الذاتى تنبثق الأفعال والأفكار والمشاعر ، وتتحول إلى وقائع عملية فى واقع الحياة .. أى أنه

— من جهة البحث — يأخذ بالضبط الجانب المقابل لماركس ، ومع ذلك — ومن عجب — يصل معه إلى النتيجة ذاتها فى موضوع الدين والأخلاق ، ويتخذ فى بحثه نفس التفسير الحيوانى للحياة الإنسانية وللإنسان !

مصادفة ..!!

ولكن الحق أن الصورة التى يرسمها فرويد للنفس الإنسانية — وإن التقت مع ماركس فى النهاية عند نقطة تسخيف الدين والأخلاق ، واعتبارهما قيما غير أصيلة فى الحياة البشرية ، وإنما انعكاسا لشىء آخر ، مادى فى أصله وحيوانى — فإن فرويد كان أفحش وأخطر فى تلويثه لتلك النفس ، والانحطاط بها إلى الحضيض .

إن الحياة النفسية للإنسانية ليست حيوانية فحسب ، ولكنها — كلها — تنبع من جانب واحد من جوانب الحيوان ، هو الجنس المسيطر على كل أفعال الإنسان .

إن حياة الإنسان بادىء ذى بدء حياة حيوانية بحتة . « فغرائزه » هى التى تحكمه . هى التى تسيطر على كل نشاطه . والجانب المسمى «الروح» لا وجود له على الإطلاق [وإلى هنا يلتقى مع ماركس التقاء كاملا فى تصور النفس الإنسانية] . أما الجانب الذى اسمه « العقل » فهو موجود بكل تأكيد . وهو « طبقة » من طبقات النفس . هو الوعى . وهو الضابط لتصرفات الإنسان . وهو الذى يواجه الحياة الواقعية ، ويقرر موقف الإنسان إزاءها . ولكن أى نتيجة يا ترى لوجود العقل — أو الذات الواعية Ego — فى كيان الإنسان ؟ النتيجة : « أن موقع الذات بين الطاقة الشهوانية [التى هى الحقيقة الباطنية للنفس فى نظر فرويد] وبين الحقيقة الخارجية ، كثيراً ما يغريها بأن تكون منافقة مخادعة نهازة للفرص ، كالسياسى الذى يرى الحقائق ، ولكنه يحب أن يحافظ

على مكانتة بين الجماهير! »[1] ومن ثم « فالقيم » فى كلمة واحدة هى خرافة و «ضحك على الذقون » ! عملة زائفة يتبادلها الناس وهم فى حقيقتهم عالمون بأنها خداع ! [وهنا يلتقى — من بعيد — بفكرة ماركس عن القيم ، وإن كانت الأسانيد مختلفة فى الحالين] .

ولكن فرويد بعد ذلك « يتخصص » فيأتى بالأعاجيب :

إن حقيقة الإنسان الباطنية العميقة [id] ليست هى الطاقة الشهوانية فحسب . وإنما هى على وجه التحديد الطاقة الجنسية . الجنسية بالذات دون أى طاقة أخرى من طاقات الإنسان [أو الحيوان] .

وليس هنا مجال مناقشة فرويد ، فقد ناقشته كثيراً وطويلا فى كل الكتب السابقة .[2] ولكنا نلحظ فقط شيئاً بارزا فى نظريته النفسية .. فقد كان الجنس — فى أوربا المسيحية المتزمتة [رغم بدء الانحلال الخلقى فيها] — طاقة مستقذرة، ينفر الناس من الحديث عنها وكشفها للنور. فيجىء فرويد ، فيصر إصراراً محموما على أن يفسر النفس كلها ، بجميع ألوان نشاطها ، من خلال هذه الطاقة المستقذرة بالذات ! ويصر — أكثر من ذلك [وهذا هو المهم] — على أن يفسر الدين والأخلاق بصفة خاصة بأنها انبثاق جنسى .. وجنسى على وجه التحديد !!

مصادفة .. !!

الحياة كلها جنس ، ومنبثقة من خلال الجنس ..

والجنس يبدأ مبكراً جداً .. لا فى مرحلة البلوغ أو المراهقة كما يحسب الجهلاء من الناس .. وإنما .. من لحظة الميلاد . بل يولد الإنسان جنساً خالصا مركزا فى إهاب طفل حيوانى صغير !!

---

(١) كتاب «The Ego and the Id» ص ٨٣ من الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٢ .

(٢) بصفة خاصة فصل « فرويد » من كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » .

كل أعمال الطفل تعبير عن طاقة الجنس .

الرضاعة جنس . ومص الإبهام جنس . وتحريك العضلات جنس . والتبول والتبرز جنس . والالتصاق بالأم جنس .. وهذا الأخير بصفة خاصة هو الذى يشكل الحياة النفسية للبشرية كلها أفراداً وجماعات !

فالطفل يعشق أمه بدافع الجنس . ثم يجد الأب حائلا بينها وبينه فيكبت هذا العشق . فتنشأ فى نفسه عقدة أوديب . [والطفلة تعشق أباها بدافع الجنس كذلك ثم تكبت العشق فتنشأ فى نفسها عقدة إليكترا] . ومن هذه العقدة اللعينة ينشأ الضمير والدين والأخلاق والتقاليد ، وكل « القيم العليا » فى حياة البشرية !!

والأمر كله مستمد من تلك الحادثة التى « رآها ! » فرويد فى منشأ تاريخ البشرية !

ذلك أن الأبناء — فى مطلع البشرية — اتجهوا نحو أمهم بدافع الجنس ، ثم وجدوا أباهم عائقا فى الطريق فقتلوه . ثم أحسوا بالندم على قتل أبيهم فأقسموا ليقدسن ذكراه . فعبدوه . ومن ذلك نشأت عبادة الأب . ثم تحولت إلى عبادة الطوطم لأنه فى النفس البشرية هكذا يرتبط الأب برمز الحيوان ! [لماذا ؟ !] . وفى الوقت ذاته وجد الأبناء أنهم سيتقاتلون بينهم للحصول على الأم . وهذا أمر لا يجوز ! [لماذا ؟ !] فقرروا تحريمها على أنفسهم ، فنشأ بذلك أول تحريم [جنسى] وانصب على الأم . كما قرروا التعاون فيما بينهم بدل الخصام والعراك [لماذا ؟ !] فنشأت « القيم » .

وهذه القصة التى « رآها ! » فرويد تحدث فى البشرية الأولى ، ليست حادثة تاريخية مفردة ، فقد تركت طابعها فى الحياة البشرية كلها منذ ذلك الحين .

فكل طفل يعشق أمه بدافع الجنس : وكل طفل يكبت ذلك العشق . ثم ينمو الدين والأخلاق والتقاليد .. والقيم العليا والحضارة ، من ذلك الكبت الجنسى لعشق الأم . ومع ذلك فالكبت لم ينته . وإنما هو يتحول إلى قلق نفسى دائم لا يترك الناس فى راحة [« وكل الديانات التى جاءت بعد ذلك هى محاولات لحل المشكلة ذاتها (إحساس الأبناء بالجريمة) وهى تختلف بحسب مستوى الحضارة التى ظهرت فيها ، والوسائل التى تطبقها ، ولكنها جميعاً تهدف إلى شىء واحد ، وهى رد فعل لنفس الحدث العظيم (قتل الأب) الذى نشأت عنه الحضارة ، والذى لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للراحة » ! فرويد — كتاب Totem and Taboo ص ١٤٥]

واضح أن هذا التفسير للانسان تفسير حيوانى بحت ..

فالقصة كلها التى « رآها ! » فرويد ، مستمدة من ملاحظات دارون فى عالم الحيوان . فقد لاحظ أنه فى عالم البقر تتجه الثيران الفتية للحصول على البقرة الأم ، فتجد أباها عائقا فى الطريق ، فتتجه كلها نحوه لتقتله . فإذا فرغت من ذلك عادت فاصطرعت فيما بينها حتى يتغلب أحدها — وهو أقواها — فيفوز وحده بالأم ويصبح هو السيد الجديد .

وواضح كذلك مدى تلويث فكرة الدين والأخلاق والتقاليد ، وتقذيرها فى نفوس الناس ، بغمسها فى مستنقع الجنس المستقذر فى أوربا المسيحية ، وإخراجها منه يتقاطر منها نقيع الجنس المكبوت !

وحقيقة إنه سعى إلى إزالة « القذارة » عن الجنس ! ولكن هذه مسألة أخرى !

جاء فى كتاب بروتوكولات حكماء صهيون : « يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا . . إن فرويد منا . وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لايبقى فى نظر الشباب شىء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية ، وعندئذ تنهار أخلاقه »

إن هناك هدفا مزدوجا يتم فى نفس الوقت : فالجنس يُنظف ليستباح . لتنطلق الغرائز « المكبوتة » . لينطلق الشباب كالبهائم ، دون أن يحسوا فى ضميرهم لذعا ولافى نفوسهم ندامة ولكن فى ذات الوقت يُقذر الدين والأخلاق والتقاليد بتصويرها نابعة فى الأصل من الجنس — المستقذر حينئذ فى النفوس !

أى أنه تتم عملية إبدال دقيقة خبيثة بشعة . . فينزل الدين والأخلاق إلى مكان الجنس المستقذر ، ويرتفع الجنس إلى مكان الدين والأخلاق فى النظافة والتقديس !

وليس هنا — كما أسلفت — مجال المناقشة مع فرويد ، فقد ناقشته فى الكتب السابقة ، وبينت فساد هذه الأساطير والأضاليل التى يقيم عليها تفسيره للحياة البشرية ، بلا سند علمى ولا منطق سليم .

إنما نثبت هنا فقط مجموعة من الحقائق حول هذا التفسير الجنسى للسلوك البشرى :

أولا :أنه استمد من إيحاءات نظرية دارون ذلك التفسير الحيوانى للإنسان . ولم يقل دارون بطبيعة الحال شيئاً من ذلك كله ، ولا كان من همه أن يقول . ولكن العالم اليهودى الذى أخذ إيحاء نظريته المسموم ، قد مده مَدَّة واسعة فشملت الحياة كلها ، تحت ستار البحث « العلمى » فى علم النفس .

ثانياً : أنه وجّـه الإيحاء المسموم كله الذى استمده من دارون إلى نقطتين مركزتين ، فى أثناء هذه الجولة الواسعة فى باطن النفس ، وفى التاريخ ، هما الدين والأخلاق . فسعى إلى تلويثهما بصورة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ كله . ووضعهما فى صورة منفرة مقززة ينفر منها كل إنسان ! ولم يكتف فى ذلك بالتلميح ، بل كان صريحاً جداً وهو يقول: إن التسامى نوع من الشذوذ ! [Three Contributions to the Sexual Theory ص ٨٢] وإن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى فى درجتها الطبيعية العادية ! [The Ego and the Id ص ٨٠] وإن أساطير المسيحية تصور فى حقيقتها رغبة الابن (المسيح) فى قتل والده (الرب الإله) وإن كان قد كبت هذ الرغبة فقتل نفسه بدلا من أبيه ، ولـكنه أصبح إلها مكان أبيه ! [Totem and Taboo ص ١٥٤] وإن الحضارة تتعارض مع النمو الحر للطاقة الجنسية ! [Three Contributions ص ٨٥] وإن الدين والأخلاق والحضارة تنشأ من الـكبت الجنسى ، والـكبت الجنسى خطر على الـكيان النفسى والعصبى ، لأنه يصيب النفس بالعقد والاضطرابات [كل كتب فرويد بلا استثناء !]

* * *

أما دركايم فله قصة ثالثة . . .

إنه — مرة أخرى — يقف من فرويد موقف التقابل الـكامل .

إنه لا يعترف أن الـكيان النفسى للفرد هو أساس الحياة الاجتماعية . بل العكس فى نظره أقرب إلى الصواب . إن الحياة الاجتماعية هى التى تشكل مشاعر الفرد . وعليه فلا يجوز أن نفسر الحياة من نفسية الفرد كما يصنع علم النفس كله ، وإنمـا ينبغى أن نفرق بين الظاهرة النفسية والظاهرة الاجتماعية تفريقاً كاملا ، حتى وإن قام بينهما ــ أحيانا ــ نوع من الاتصال :

« ولـكن الحالات النفسية التى تمر بشعور الجماعة تختلف فى طبيعتها عن

الحالات التى تمر بشعور الفرد ، وهى تصورات من جنس آخر ، وتختلف عقلية الجماعات عن عقلية الأفراد ، ولها قوانينها الخاصة بها »[1]

« . . إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد ، الذين يجبرون على الخضوع لها فى كل لحظة من لحظات حياتهم »[2]

« ولكن لما كان هذا العمل المشترك [الذى تنشأ عنه الظواهر الاجتماعية] يتم خارج شعور كل فرد منا ، وذلك لأنه نتيجة لعدد كبير من الضمائر الفردية ، فإنه يؤدى بالضرورة إلى تثبيت وتقرير بعض الضروب الخاصة من السلوك والتفكير ، وهى تلك الضروب التى توجد خارجة عنا ، والتى لا تخضع لإرادة أى فرد منا »[3]

« ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة [التى تفسر الظواهر الاجتماعية من داخل نفوس الأفراد] على الظواهر الاجتماعية اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها ! ويكفى فى البرهنة على ذلك أن نعود إلى التعريف الذى سبق أن حددنا به الظواهر الاجتماعية . فلما كانت الخاصة الجوهرية التى تمتاز بها هذه الظواهر تنحصر فى القيام بضغط خارجى على ضمائر الأفراد ، كان ذلك دليلا على أنها ليست وليدة هذه الضمائر »[4]

« وبهذا المعنى ولهذه الأسباب يمكننا ، بل يجب علينا أن نتحدث عن شعور اجتماعى يختلف عن شعور الأفراد . وإذا أردنا تبرير هذه التفرقة بين الشعور الاجتماعى والشعور الفردى، فلسنا فى حاجة إلى تجسيد الشعور الاجتماعى.

---

(١) قواعد المنهج فى علم الاجتماع تأليف إميل دركايم ، ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوى — مقدمة الطبعة الثانية ، ص ١٥ .

(٢) ص ٢٢ من المصدر السابق . (٣) ص ٢٥ . (٤) ص ١٦٦ .

فإن لهذا الشعور وجوداً من جنس خاص . ومن الواجب أن نعبر عنه بمصطلح خاص ، لمجرد السبب الآتى ، وهو : أن الحالات التى تدخل فى تركيبه تختلف عن الحالات النفسية التى يتركب منها شعور الفرد اختلافاً نوعياً . . . ومن جهة أخرى فما كان يرمى تعريفنا للظاهرة الاجتماعية إلا إلى تحديد الفرق بين كل من الشعور الاجتماعى والشعور الفردى »[1]

هكذا لا يعترف دركايم بأن الحياة البشرية — ذات الصفة الاجتماعية — يمكن أن تفسر عن طريق نفسية الفرد وطبيعته وكيانه الفردى . إنما يفسرها وجود « العقل الجمعى » خارج نطاق الأفراد !

ومرة ثانية يقف دركايم من فرويد موقف التقابل الكامل . ففى كتاب « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » يتحدث عن « تطور » الجماعات شأن كل باحث فى علم الاجتماع — ولكنه يأبى أن ينسب هذا التطور إلى عنصر من عناصر النفس المفردة:

« ولن نستطيع معرفة المصدر الذى تنبع منه هذه التيارات الاجتماعية إلا إذا صعدنا فى مجراها حتى منابعها الأولى ، وحينئذ يجب علينا أن نلاحظ الظواهر الاجتماعية فى ذاتها . . . ويجب أن ندرس هذه الظواهر من الخارج على أنها أشياء خارجية . . . ولئن خيل إلينا أن وجود هذه الظواهر خارج شعور الأفراد ليس إلا وجودا بحسب الظاهر فسوف يتبدد هذا الشك كلما تقدم علم الاجتماع . وسيرى المرء حينئذ كيف تقتحم الظاهرة الاجتماعية الخارجية الشعور الداخلى للأفراد »[2]

---

(١) ص ١٦٨ — ١٦٩ (٢) ص ٦٦ .

ومع ذلك . . !

أهي مصادفة تلك الطريقة التي يتحدث بها عن الدين والأخلاق ؟ !

« فمن هذا القبيل أن الناس يفسرون عادة نشأة النظام الأسرى بوجود العواطف التي يكنها الآباء للأبناء ، ويشعر بها الأبناء تجاه الآباء ؛ كما يفسرون نشأة الزواج بالمزايا التي يحققها لكل من الزوجين وفروعهما ، والألم بما يحدث من غضب الفرد إذا أصيبت مصالحه بضرر جسيم . وترجع الحياة الاقتصادية في نهاية الأمر — كما يفهمها ويفسرها الاقتصاديون ، وبخاصة أصحاب المذهب المحافظ — إلى هذا العامل الفردى البحت ، وهو الرغبة في تحصيل الثروة . وليس الأمر على خلاف ذلك فيما يتعلق بالظواهر الخلقية . فإن الأخلاقيين يتخذون واجبات المرء نحو نفسه أساساً للأخلاق . وكذا الأمر فيما يتعلق بالدين ، فإن الناس يرون أنه وليد الخواطر التي تثيرها القوى الطبيعية الكبرى أو بعض الشخصيات الفذة لدى الإنسان . . الخ . ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة على الظواهر الاجتماعية اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها ! »(١)

« ومن هذا القبيل أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان ، وبأن هذا الأخير مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء ، وغير ذلك من العواطف وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو . ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان »(٢)

« وحينئذ فإنه يمكن القول بناء على الرأى السالف بأنه لا وجود لتفاصيل القواعد القانونية والخلقية في ذاتها ، إذا صح هذا التعبير . . . ومن ثم فليس

من الممكن ، تبعاً لهذا الرأى ، أن تصبح مجموعة القواعد الخلقية التى لاوجود لها فى ذاتها موضوعا لعلم الأخلاق . . . »[1]

واضح ؟ !

إن الدين ليس شيئاً فطريا . وكذلك الزواج والأسرة . والقواعد الخلقية لاوجود لها فى ذاتها !

ولن نناقش هنا دركايم ! لن نناقش أسطورة « العقل الجمعى » القائم خارج نطاق الأفراد ، والمخالف لكيان الأفراد ، والذى يقهرهم من الخارج على غير رغبة منهم ولا استعداد فطرى !

ولكننا نثبت فقط ما حول هذه الأسطورة من الحقائق :

لقد أخذ دركايم كثيرا عن دارون :

أخذ عنه بادئ ذى بدء فكرة التطور الدائم الذى يلغى فكرة الثبات .

وأخذ عنه فكرة « القهر الخارجى » الذى يقهر الفرد على غير رغبة ذاتية منه ، فيطوّره .

وأخذ عنه التفسير الحيوانى للإنسان ، فهو لايفتأ يستشهد فى كل حالة بما يحدث فى عالم الحيوان :

« أضف إلى ذلك أنه لم يقم قط برهان على أن الميل إلى الاجتماع كان غريزة وراثية وجدت لدى الجنس البشرى منذ نشأته . وإنه لمن الطبيعى جداً أن ننظر إلى هذا الميل على أنه نتيجة للحياة الاجتماعية التى تشربت بها نفوسنا على مر العصور والأحقاب . وذلك لأننا نلاحظ ، فى الواقع ، أن الحيوانات تعيش جماعات أو أفرادا تبعاً لطبيعة مساكنها التى توجب عليها الحياة فى جماعة أو تصرفها عن هذه الحياة »[2]

---

(١) ص ٥٩ — ٦٠ . (٢) ص ١٧٣ .

« ولكن أليس معنى ذلك أن « كونت » يفسر الماء بالماء ، وأنه يشرح التقدم بوجود ميل فطرى يدفع الإنسان إلى التقدم الذى لايعدو أن يكون سوى فكرة ميتافيزيقية ليس ثمة مايدل على وجودها بحسب الواقع ؟ وذلك لأن الفصائل الحيوانية — بما فى ذلك الفصائل الراقية منها كل الرقى — لاتشعر قط بهذه الحاجة التى تدفعها إلى التقدم »[1] . . الخ .

ولم يقل دارون بطبيعة الحال شيئاً مما قاله دركايم ، ولا كان من شأنه أن يقول . ولكن العالم اليهودى أخذ الإيحاء الحيوانى لنظريته ، ومده مدّة واسعة فشملت الحياة كلها ، تحت ستار من البحث « العلمى » فى علم الاجتماع .

ثم إنه ـ فى جولته الواسعة فى علم الاجتماع ـ قد عنى عناية خاصة بأن يقول إن الدين ليس فطرة والزواج ليس فطرة ، والأخلاق ليست قيمة ذاتية ، ولا هى ثابتة على وضع معين ، فإنما تأخذ صورتها من المجتمع الذى توجد فيه ، فإن « المجتمع » هو الأصل فى كل الظواهر الاجتماعية ، وليس « الإنسان » !

* * *

ومن حصيلة هذا كله حدثت حركات ضخمة فى المجتمع الغربى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

لقد التقت « توجيهات » العلماء الثلاثة — وغيرهم بطبيعة الحال ، ولكنهم هم فى المقدمة — التقت عند نقط رئيسية ، متصلة ومتصاحبة :

الحملة على الدين والأخلاق والتقاليد ، ونفى القداسة عنها ، وتشويه سمعتها أو التشكيك فى قيمتها .

والقيام بهذه الحملة باسم « العلم » والبحث العلمى .

والربط بين هذا التحلل الدينى والانحلال الخلقى وبين « التطور » .

---

(١) ص ١٧٦ .

والإيحاء بأن هذا التحلل والانحلال أمر « حتمى » لأن التطور حتمى لا قبل لأحد بوقفه عن طريقه المحتوم .

تقول بروتوكولات حكماء صهيون : « لقد رتبنا نجاح داروِن وماركس ونيتشه(١) بالترويج لآرائهم . وإن الأثر الهدام للأخلاق الذى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد » .

* * *

ولقد حدث بالفعل ذلك الأثر الهدام للأخلاق !

وسرت فى الجماهير لوثتان معاً فى ذات الوقت : لوثة التطور .. ولوثة العداء للدين والأخلاق .

وربما برز اسم فرويد فى هذا الأثر المدمر أكثر من زميليه الآخرين ، لأن آراءه أخذت « شعبية » واسعة النطاق ، بينما بقى الآخران — وخاصة دركايم — فوق مستوى الجماهير . ولكن الحصيلة النهائية للوثة التطور ولوثة العداء للدين والأخلاق ينبغى أن ترد لهم جميعاً ، وإن تفاوتت النسب و « حقوق التأليف » بين أعضاء الثالوث !

لقد صارت « الموضة » هى التطور . وما لا يتطور بذاته ينبغى أن يطور بالقوة ! إنه لا ينبغى أن يظل شىء على الإطلاق ثابتاً فى كل الأرض . لا الدين. ولا فكرة الله . ولا الأخلاق . ولا التقاليد . ولا القيم. ولا الروابط الاجتماعية. لا شىء .. لا شىء على الإطلاق .

ينبغى أن نتطور . وأن نتحرر من السكون الميت والثبات المعيب .

---

(١) فيلسوف ألمانى نادى فى تشنج هستيرى بفكرة الإنسان الأعلى Superman و « موت الإله » ! وهو يعنى هذا الإنسان من التقيد بالأخلاق المسيحية لأنها أخلاق الأذلاء ! ومن ثم تجد فيه « بروتوكولات حكماء صهيون » بغيتها المنشودة .

ينبغى أن نحطم قيود الأخلاق . فهى قيد يعوق التطور . وقد تقيدنا بها فى الماضى فى المجتمع الزراعى فينبغى أن نطرحها اليوم فى المجتمع الصناعى المتطور [ماركس] أو تقيدنا بها نتيجة الجهل الخطير بحقيقة النفس الباطنية وبأن الأخلاق « كبت » ضار بكيان الإنسان [فرويد] أو تقيدنا بها جهلا منا بأنه لا توجد حقيقة ثابتة للقيم الخلقية ، إنما هى تتطور بتطور وسائل الإنتاج [ماركس] أو بتطور حالة المجتمع [دركايم] .

وينبغى أن نحطم الدين . فهو قيد آخر يعوق التطور . وقد ورثناه من أسلافنا فى عماية وجهالة وجمود وتأخر ، وقد كان هذا كله يناسب المجتمع الزراعى المتأخر ، ونحن اليوم فى المجتمع الصناعى المتطور الذى لا يطيق هذه الخزعبلات [ماركس] أو قد كان هذا يناسب عصر الجهالة السابق ، يوم كنا نظن الدين شيئاً له قداسة ، منزلا من السماء ، قبل أن نعرف أنه كبت جنسى ضار مؤذ منفر [فرويد] أو يوم ظننا — خطأ منا وجهالة — أنه فطرة إنسانية [دركايم] .

ينبغى أن ننشىء أنفسنا إنشاء فى المجتمع الجديد .. المتطور .. المتحرك .. الوثاب . ينبغى أن ننطلق مع وثباته الظافرة بلادين . بلا أخلاق . بلا تقاليد . فهذا هو السبيل الوحيد للتقدم الصحيح ! [« العلماء » الثلاثة !]

* * *

وتركزت الفتنة كلها فى « تحرير المرأة » . .

حقاً لقد كان هذا العصر هو عصر تحرير المرأة !

فقد كانت القوى الشريرة كلها التى تعمل فى الأرض تعلم أنه لا وسيلة لإفساد الأمم كلها خير من « تحرير » المرأة ، أى إخراجها إلى الطريق فتنة الرجل لكى تفسد أخلاقه وتنهار .

ينبغى بأى ثمن أن تخرج المرأة إلى الطريق . .

تخرج بحجة الاستقلال الاقتصادى ..
تخرج بحجة ممارسة حقها فى الحياة ..
تخرج بحجة التعليم أو بحجة العمل ..
تخرج « للاستمتاع » ..
المهم أن تخرج .. ولكن أهم من ذلك أن تخرج فى صورة إغراء .

إنها إن خرجت تتعلم أو تعمل أو تمارس حقها فى الحياة ، وهى محتشمة متحفظة ، محافظة على أخلاقها ، وعلى طبيعتها « المنزلية » بمعنى الرغبة فى « الاستقرار » فى أسرة حين تسنح الظروف .. فلا فائدة إذن من كل «التعب» الذى تعبناه فى إفساد البشرية !

ينبغى أن تخرج المرأة فى صورة تفتن الرجل وتغريه . . وإلا فما الفائدة ؟
ولكن كيف السبيل ؟ !
السبيل هو الدعوة .. !
يكتب الكتاب . ويكتب الصحفيون . ويكتب القصاصون . .
السبيل هو السينما . . !
تُمثَّل الأفلام الداعرة العارية الداعية إلى الفساد . .
السبيل هو الإذاعة والتليفزيون [على التوالى]
السبيل هو بيوت الأزياء . . !
السبيل هو صناعة أدوات الزينة . . !

السبيل — بكل سبيل — هو إيجاد صورة من « الحياة الاجتماعية » لاتستغنى عن المرأة الفاتنة المغرية — بهجة المجتمع — وإيجاد تصور للحياة لا يستغنى عن المرأة الفاتنة المغرية « لتشارك » الرجل فى حمل الأعباء ؛ وإيجاد « واقع عملى » لا يستغنى عن المرأة الفاتنة المغرية كجزء واقعى من الحياة !
ووجد كل ذلك بالفعل . .

واستراحت القوى التى تعمل لإفساد البشرية . . وطلبت المزيد !

وجاء المزيد — [قصداً أم عرَضا ؟] — بالحربين العالميتين !

قتل فى الحرب الأولى عشرة ملايين من الشباب، وفى الثانية حوالى أربعين.

وَوُجِدَت — بعدهم — أسر بلا عائل ، ونساء بلا رجال . .

وخرجت المرأة — راضية أو مكرهة — تعمل . . وتبحث عن الجنس . .

وحدث مزيد من « التحرر » . . من انحلال الأخلاق !

وصار الروتين العادى فى الحياة الغربية أن تعمل كل فتاة . . وأن يكون لها صديق — أى عشيق — تمارس معه نشاط الجنس ، كاملا فى أغلب الأحيان . روتين عادى لا يستنكر . لا يفكر أحد فى استنكاره على الإطلاق . إلا المجانين ! الذين يظنون أنه يوجد دين ! أو أخلاق ! أو تقاليد !

المجانين الجهلاء الرجعيون المتزمتون المتحجرون المتعفنون ... الذين يعيشون بعقلية القرون الوسطى . الذين يحجبون عن أعينهم النور . الذين يريدون إرجاع الساعة إلى الوراء . الذين لا يعرفون أنه التطور . . التطور الحتمى الذى لا قبل لأحد بوقفه . . التطور الذى أحدثه القرن العشرون !

التطور . . !

هل هو التطور حقا ، الذى صنع هذه الصورة الاجتماعية فى القرن العشرين . . ؟

بصرف النظر عن رأينا الشخصى فى هذه الصورة : إن كانت تقدما مشرفا أو انحلالا مزريا . إن كانت رفعة للبشرية أو نكسة بشعة إلى عالم الحيوان .

هل التطور هو الذى أحدثها ؟

هل هى شىء « جديد » حقا ، أنشأه « التقدم » العلمى والحضارى فى القرن العشرين ؟

إذن فلنسمع . . شهادة التاريخ !

شهادة التاريخ

حين يعيش الإنسان فترة من الحياة فإنه يراها مجسمة مضخمة ، لأنه يعيش دقائقها وتفصيلاتها وجميع لحظاتها ، لحظة إثر لحظة ، فيراها — من ثم — أضخم من أى فترة أخرى من التاريخ !

وهذا أمر « بشرى » من جميع جوانبه !

فالعين ترى المنظر القريب كبيراً مفصلا مجسما . . ثم يتضاءل فى نظرها — هو ذاته — حين تبعد عنه بضع خطوات أو بضعة أميال . .

والإنسان يحس بأموره هو كبيرة مفصلة مجسمة ، لأنها أقرب شىء إليه . . ثم يرى مثيلاتها عند شخص آخر — أمامه — فلا يحسها بهذا الكبر و التفصيل والتجسّم ، وإن عطف عليها أو شارك فيها بوجدانه . . ولا يخيل إليه أبداً أنها تشابه تجربته الشخصية .

بل الإنسان الواحد يحس لحظته الراهنة كبيرة مفصلة مجسمة ، لأنه يعيشها الآن ، فهى قريبة من حسه وشعوره وتفكيره ، فإذا مرت ودخل فى غيرها ، تضاءلت فى حسه — وهى جزء منه هو ذاته — وصارت — بكل آلامها أو آمالها — أصغر من لحظته الجديدة الراهنة الداخلة فى بؤرة الإحساس والتفكير و « المعايشة » . .

ومن ثم يرى أهل القرن العشرين أن هذا القرن فريد تفرداً كاملا فى كل شىء ، وأنه لا مثيل له فى شىء قط على مدار التاريخ . .

ذلك لأنهم يعيشونه .. أما الآخر فتاريخ !

وحقيقة إن القرن العشرين متفرد فى كثير من الأمور . فهذه « الصورة »

من الحياة ، بكل تفصيلاتها ودقائقها ، لم تعشها البشرية قط من قبل . . لم يكن لديها صواريخ ولا طائرات ولا سفن سريعة ولاقطر ماردة ، ولا إذاعة ولاسينما ولا تليفزيون . . ولا إنتاج آلى ضخم يشمل كل مرافق الحياة . .

ذلك كله صحيح . .

ولكن دلالته غير صحيحة !

دلالته التى يريد الناس أن يستخرجوها منه أنه لا شيء على الإطلاق مما يعيشونه اليوم قد عاشه أى جيل من قبل . وأنه لاشيء مما يحدث اليوم قد حدث فى أى يوم من التاريخ !

والناس لايقرأون التاريخ !

لا يقرأونه لأنهم مشغولون بأحداث الحاضر الجسيمة ، التى يزيدها جسامة أنهم يعيشون فيها بالفعل ، فتبدو لهم دقائقها مجسمة مضخمة . ولايقرأونه كذلك غرورا منهم ! غرورا يخيّل إليهم أنهم مقطوعو الصلة بالماضى كله ، لأنهم خلق جديد لاشأن له بماضى الإنسانية السالف ، ولا شبه بينهم وبينه ، فلا « عبرة » إذن ترتجى من وراء قراءة التاريخ !

وقد يتواضعون قليلا فيدرسون تاريخ أوربا الحديث ! تاريخ النهضة . لأنهم — وقد تثقفوا — يعرفون أن التغيرات لا تحدث بين يوم وليلة . وإنما هى تمر فى « تطور » بطيء جداً . فالقرن العشرون ، بما يحمله من آيات ضخمة ، قد ولد — مثلا — فى عصر النهضة ، أى فى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر ، « فيحسن » من باب الاستئناس أن يقرأ الإنسان التاريخ الحديث والمعاصر ، ليرى فيه مولد القرن العشرين !

ولكنهم لا يصلون فى التواضع — إلا نادراً — إلى حد قراءة ما سلف قبل ذلك من التاريخ !

ولست أتحدث بطبيعة الحال عن « العلماء » و « العقلاء » .. إنما أتحدث عن « الجماهير » .. بما فى ذلك « جماهير المثقفين » !

* * *

لذلك فنحن محتاجون إلى قراءة التاريخ !

محتاجون إليه لنرى صورة البشرية على حقيقتها ،ولنحدث شيئاً من الاتزان فى رءوسنا التى أدارها الدوى الطنان الذى نعيشه فى القرن العشرين : دوى الآلات الضخمة ، والسباق المجنون .. ودوى الفتنة المائجة فى الطريق .

* * *

أغمض عينيك لحظة .. أغمض عينيك عن شاشة التليفزيون التى أمامك ! أو عن الصاروخ الجبار الذى انطلق منذ لحظة . أو عن السيارة الفاخرة التى تنهب بك الأرض .. وأغمض عينيك لحظة كذلك عن تلك الفتـــاة التى لبست أحدث ماأخرجته بيوت الأزياء فى باريس .. فستانا يحاذى الركبة ، وينحسر عنها حين تجلس فيكشف عما فوقها ، ثم تزينت أعظم زينة ، وخرجت « تتبختر » فى رشاقة فاتنة تلهب المشاعر وتجذب العيون .

أغمض عينيك لحظة . . وانس أنك تعيش الآن فى النصف الثانى من القرن العشرين . واستمع لهذه الـكلمات !

« أرقى الأمم القديمة حضارة وأزهرها تمدنا فى التاريخ ، هم اليونان . وفى عصرهم البدائى كانت المرأة فى غاية من الانحطاط وسوء الحال من حيث نظرية الأخلاق والحقوق القانونية والسلوك الاجتماعى جميعاً . فلم تـكن لها فى مجتمعهم منزلة أو مقام كريم . وكانت الأساطير (Mythology) اليونانية قد اتخذت من امرأة خيالية تسمى « باندورا » (Pandora) ينبوع جميع آلام الإنسان ومصائبه ، كما جعلت الأساطير اليهودية حواء : العين التى تنشق منها جداول الآلام والشدائد . وغير خاف على أحد ما كان لهذه الأسطورة اليهودية

الشنيعة عن حواء من تأثير عظيم فى سلوك الأمم اليهودية والمسيحية قبل المرأة ، وما كان لها من مفعول قوى فى حقول القانون والأخلاق والاجتماع عند هؤلاء الشعوب . وكذلك أو دونه بقليل كان تأثير الأسطورة اليونانية عن (باندورا) فى عقولهم وأذهانهم . فلم تكن المرأة عندهم إلا خلقاً من الدرك الأسفل ، فى غاية من المهانة والذل فى كل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية . وأما منازل العز والكرامة فى المجتمع فكانت كلها مختصة بالرجل .

« وبقى هذا السلوك قبل المرأة فى أول عهدهم بالنهضة المدنية ثابتا على حاله ، ربما تخللته تعديلات قليلة . فإنه كان من تأثير ذيوع العلم وانتشار أنوار الحضارة أن ارتفعت مكانة المرأة فى المجتمع وأصبحت أحسن حالا وأرفع منزلة من ذى قبل ، وإن بقيت منزلتها القانونية على حالها لم تتبدل . فهى أصبحت ربة البيت، منحصرة واجباتها فى حدوده ، وأصبح لها فى داخله سلطة ونفوذ تام . وكان عفافها وتصونها من أغلى وأنفس مايملك ، ومماينظر إليه بعين التقدير والتعظيم . وأيضاً كان الحجاب شائعا فى البيوتات العالية . فكانوا يبنون بيوتهم على قسمين : قسم للنساء وآخر للرجال . وما كان نسوتهم يشاركن فى المجالس والأندية المختلطة ولايبرزن فى الأماكن العامة . وكان يعد زواج المرأة وملازمتها لزوجها دون غيره من أمارات النجابة والشرف . ولأمثالها كانت الحرمة والمنزلة فى المجتمع . وبالعكس من ذلك كانوا ينظرون إلى حياة العهر والدعارة نظرة كره وازدراء . . هذا فى عصر كانت الأمة اليونانية فيه فى إبان مجدها وعنفوان شبابها وقوتها ، وكانت تنمو صعدا إلى الرقى والكمال . ولا ريب أنه كانت توجد عندهم مفاسد خلقية فى ذلك العصر ، إلا أنها كانت منحصرة فى نطاق محدود . وذلك أن الرجال لم يكونوا يطالبون بمُثُل من العفاف وطهارة الأخلاق وزكاء السجية كانت تطالب بها المرأة وتؤاخذ عليها ، بل كانوا يستثنون من التخلق بتلك الأخلاق الحسنة ، ولم يكن من المتوقع منهم أن يعيشوا عيشة ذوى

العفاف والحشمة . ومن أجل ذلك كانت المومسات جزءا من صميم المجتمع اليونانى لاينفك عنه أبداً ، ولا يعاب المرء إذا عاشرهن وخادنهن .

« ثم جعلت الشهوات النفسية تتغلب على أهل اليونان ويجرف بهم تيار الغرائز البهيمية والأهواء الجامحة ، فتبوأت العاهرات والمومسات مكانة عالية فى المجتمع لانظير لها فى تاريخ البشرية كله ، وأصبحت بيوت العاهرات مركزا يؤمه سائر طبقات المجتمع ، ومرجعاً يلجأ إليه الأدباء والشعراء والفلاسفة . فكانت شموسا فى سماء العلم والأدب يدور حولها كواكب الفلسفة والأدب والشعر والتاريخ وماعداها من الفنون . بل أصبحن القطب الذى تدور حوله رحى الأمة اليونانية . فما كنّ يرأسن أندية العلم ومجالس الأدب فحسب ، بل كانت المشاكل السياسية أيضاً تحل عقدها وتفك معضلاتها بحضرتهن وتحت إشرافهن . وقد بلغ بهم التعسف فى هذا الشأن أن كانوا يرجعون فى المسائل الرئيسية التى تعلو بها أمة وتسفل ، وتحيا لها وتموت ، إلى المرأة التى ربما لاترضى أن تعاشر رجلا بعينه أكثر من ليلة أو ليلتين . ثم زاد أهلَ اليونان حبهم للجمال وتذوقهم المفرط تماديا فى الغى وارتطاما فى حمأة الرذائل ، وأضرم فى قلوبهم ناراً للشهوات لا تخمد . فالتماثيل — نماذج الفن العارية — التى كانوا يُظهرون بها و بالافتنان فى صنعها وإتقانها ذوقهم هذا ، كانت هى التى تحرك فيهم الشهوات دوما وتمد فى غرائزهم البهيمية . ولايخطر لهم ببال أن الاستسلام للشهوات شىء ذميم فى قانون الأخلاق ، والاندفاع وراء تيار الأهواء عار وهجنة . وتبدلت مقاييس الأخلاق عندهم إلى حد جعل كبار فلاسفتهم وعلماء الأخلاق عندهم لايرون فى الزنا وارتكاب الفحشاء غضاضة يلام عليها المرء ويعاب . وأصبح عامتهم ينظرون إلى عقد الزواج نظر من لايهتم به ، ولايرى إليه من حاجة .

وقلما يرون بأسا بأن يعاشر الرجل المرأة ويخادنها علنا من غير عقد ولا نكاح .

« . . . .

« . . . .

« والذين تسلموا ذروة المجد والرقى فى العالم بعد اليونانيين هم الرومان . وفى هذه الأمة أيضاً نرى تلك السلسلة من الصعود والهبوط التى قد شاهدناها فى اليونان . فحينما خرج الرومان من عصر الوحشية وظلمة الجهل ، وظهروا على مسرح التاريخ لأول مرة ، كان الرجل رب الأسرة فى مجتمعهم ، له حقوق الملك كاملة على أهله وأولاده ، بل بلغ من سلطته فى هذا الشأن أن كان يجوز له حتى قتل زوجه فى بعض الأحيان .

« ولما تخففت فيهم سورة الوحشية وتقدموا خطوات فى سبيل المدنية والحضارة ، تخففت القسوة فى تلك السلطة وجعلت الكفة تميل إلى الاستواء والاعتدال شيئاً فشيئاً ، وإن بقى نظام الأسرة القديم ثابتاً على حاله . وهؤلاء لم يكن الحجاب عندهم معمولا به ــ كاليونان ــ فى إبان مجد الجمهورية الرومانية ورقيها . لكنهم كانوا قيدوا النساء والشباب عامة بقيود مثقلة من نظام الأسرة . فالعفاف كان شيئاً ينظر إليه بعين الإجلال ولا سيما فى شأن النساء ، وكان يعد مقياساً للشرف وكرم المحتد . وكذلك كان مستوى الأخلاق عندهم عالياً . ومن أمثال ذلك أن اتفق ذات مرة أن عضو مجلس الشيوخ قبل زوجه أمام ابنته ، فغضب عليه القوم وحكموا على صنيعه بأنه غض من كرامة الخلق القومى وإهانة له ، وأمضوا إقرار التكير (Vote of Censure) عليه فى مجلس الشيوخ . هذا وما كان مباحا عندهم ولا مرضياً فى أخلاقهم أن يتعاشر الرجل والمرأة بدون عقد مشروع . وما كانت المرأة تتبوأ مكانة العز والكرامة فى المجتمع إلا بأن

تكون أمًّا لأسرة (Matron) والمومسات ، وإن كانت طبقتهن موجودة ، وكان للرجال نوع من الحرية فى مخادنتهن ، إلا أن عامة الرومان وجمهورهم كانوا يزدرونهن وينظرون إليهن نظرة احتقار وتعيير . وكذلك ما كانوا ينظرون بعين الاستحسان إلى الرجال المخادنين لهن .

ثم أخذت نظرية الرومان فى النساء تتبدل برقيهم وتقلبهم فى منازل المدنية والحضارة . وما زال هذا التبديل يطرأ على نظمهم وقوانينهم المتعلقة بالأسرة وعقد الزواج والطلاق ، إلى أن انقلب الأمر ظهراً لبطن ، وانعكست الحال رأساً على عقب ، فلم يبق لعقد الزواج عندهم معنى سوى أنه عقـــد مدنى (Civil Contract) فحسب، ينحصر بقاؤه ومضيه على رضا المتعاقدين ، وأصبحوا لا يهتمون بتبعات العلاقة الزوجية إلا قليلا . ومنحت المرأة جميع حقوق الإرث والملك ، وجعلها القانون حرة طليقة لا سلطة عليها للأب ولا للزوج ، ولم تصبح الرومانيات مستقلات بشئون معايشهن فحسب ، بل دخل فى حوزة ملكهن وسلطانهن جزء عظيم من الثراء القومى على مسير الأيام. فكن يقرضن أزواجهن بأسعار الربا الفاحشة، مما يعود به أزواج المثريات من النساء عبيداً لهن فى ميادين العمل والواقع . ثم سهلوا من أمر الطلاق تسهيلا جعله شيئاً عادياً يلجأ إليه لأتفه الأسباب . فهذا « سنيكا » الفيلسوف الرومانى الشهير (٤ ق . م — ٥٦ م) يندب كثرة الطلاق ويشكو تفاقم خطبه بين بنى جلدته فيقول : « إنه لم يعد الطلاق اليوم شيئاً يندم عليه أو يستحيي منه فى بلاد الرومان . وقد بلغ من كثرته وذيوع أمره أن جعلت النساء يعدون أعمارهن بأعداد أزواجهن . وكانت المرأة الواحدة تتزوج رجلا بعد آخر وتمضى على ذلك من غير حياء . وقد ذكر مارشل (٤٣ — ١٠٤ م) امرأة تزوجت عشرة رجال ، وكذلك كتب جوويتل

(٦٠ — ١٤٠ م) عن امرأة تقلبت فى أحضان ثمانية أزواج فى خمس سنوات ، وأعجب من كل ذلك وأغرب ما ذكره القديس جيروم (٣٤٠ — ٤٢٠م) عن امرأة تزوجت فى المرة الأخيرة الثالث والعشرين من أزواجها ، وكانت هى أيضاً الزوجة الحادية والعشرين لبعلها .

ثم بدأت تتغير نظرتهم إلى العلاقات والروابط القائمة بين الرجل والمرأة من غير عقد مشروع . وقد بلغ بهم التطرف فى آخر الأمر أن جعل كبار علماء الأخلاق منهم يعدون الزنا شيئاً عادياً . فهذا كاتو (Cato) الذى أسندت إليه الحسبة الخلقية سنة ١٨٤ قبل الميلاد ، يجهر بجواز اقتراف الفحشاء فى عصر الشباب . وذاك شيشيرون (Cisro) المصلح الشهير يرى عدم تقييد الشبان بأغلال الأخلاق المثقلة ويشير بإطلاق العنان لهم فى هذا الشأن . ولا يقتصر الأمر عليهما بل يأتى إپكتيتس (Epictetus) الذى يعد من المتصلبين فى باب الأخلاق من فلاسفة الرواقيين (Stoics) فيقول لتلاميذه مرشداً ومعلماً : « تجنبوا معاشرة النساء قبل الزواج ما استطعتم . ولكنه لا ينبغى أن تلوموا أحداً أو تؤنبوه إذا لم يتمكن من كبح جماح شهواته » .

« ولما تراخت عرى الأخلاق وصيانة الآداب فى المجتمع الرومانى إلى هذا الحد ، اندفع تيار من العرى والفواحش وجموح الشهوات فأصبحت المسارح مظاهر للخلاعة والتبرج الممقوت والعرى المشين . وزينت البيوت بصور ورسوم كلها دعوة سافرة إلى الفجور والدعارة والفحشاء . ومن جراء هذا كله راجت مهنة المومسات والداعرات وانجذبت إليهن نساء البيوتات . وتمادى الأمر فى ذلك إلى أن اضطر القوم إلى وضع قانون خاص فى عصر القيصر تائى بيريس (١٤ — ٣٧ م) لمنع نساء البيوت من احتراف مهنة المومسات وصناعتهن .

الناقفة .ونالت مسرحية فلورا (Flora)حظوةعظيمة لدى الروم لكونها تحتوى على سباق النساء العاريات . وكذلك انتشر استحمام الرجال والنساء فى مكان واحد بمرأى من الناس ومشهد . أما سرد المقالات الخليعة والقصص الماجنة العارية فكان شغلا مرضيا مقبولا لايتحرج منه أحد ، بل الأدب الذى كان يتلقاه الناس بالقبول والرضى هو الذى يعبر عنه اليوم بالأدب المكشوف ، وهو الذى تبين فيه أحوال الحب والعناق والتقبيل سافرة غير مقنعة بحجب من المجاز والكنايات . »[1]

* * *

الآن تستطيع أن تفتح عينيك !

ما رأيك فى هذا « الشريط » من الأخبار ؟ !

لكأنك تراه أمامك اللحظة فى السينما أو التليفزيون !

هل هناك كبير فرق ؟ ! ما أشبه الليلة بالبارحة !

إن بعض أجزاء الصورة توشك أن تكون بحذافيرها وصفا لما هو كائن اليوم فى القرن العشرين ، لاما كان موجودا قبل عشرين قرنا ، أو أكثر من عشرين !

المرأة المتبرجة المتزينة التى تفتن الرجل بتبرجها وزينتها . .

المرأة التى تقضى فى شئون الأدب والفن والسياسة . .

المرأة التى تملك الرجل وتسيره حسب هواها . .

المرأة « المستقلة اقتصاديا » التى تفهم من استقلالها الاقتصادى أن لها حق « التحرر » أو التحلل الخلقى . .

(١) كتاب الحجاب للسيد أبى الأعلى المودودى ، ص ١٤ — ص ٢٤ .

الرجل الباحث عن متاع الجسد ، الساعى خلف المرأة المتبرجة . .

الرجل المشغول بمتاع الجسد عن جديات الأمور .

الرجل الباحث عن « بهجة المجتمع » وعن المرأة التى « تشارك فى حمل أعباء الحياة » .

الرجل الذى ينظر إلى المرأة المتحللة على أنها « ضرورة اجتماعية » ويرحب بها على هذا الأساس .

و . . الأدب المكشوف ، والمسارح العارية ، والتفنن فى الفحشاء .

أكثير هو الذى تغير ؟ !

بل . . هل تغير شىء فى الحقيقة ؟ !

* * *

إن الإنسان ليذهل من قراءة التاريخ .

يذهل أن تكون صورة الحياة اليوم ـ فى جوهرها ـ هى إلى هذا الحد تكرار لما كان قبل ألفين من السنين !

ويذهل من جهالة الجاهلين ، ودعاوى المزيّفين !

المزيفين الذين يزعمون أن الحياة الاجتماعية الحديثة صورة فريدة لم تتكرر فى التاريخ ، ونتيجة « للتطور » الذى جاء به « العلم » . . والجاهلين الذين يصدقون هؤلاء المزيفين !

أين هو « التطور » فى صورة الحياة الاجتماعية ؟!

لقد تغيرت الأدوات حقاً . . ما فى ذلك شك ! ولكن « العمل » ذاته هل تغير ؟ !

وأية سذاجة أو جهالة أو تزييف تلك التى تجعلنا نحسب الأمر جديداً لأن « كرستيان ديور » هو الذى يصدر أزياء النساء ولم يكن موجودا من قبل، وأن السينما هى التى تعرض العرى والدعارة والفجور ولم تكن موجودة من قبل، وأن التليفزيون هو الذى ينقل صور الفساد إلى داخل البيوت ولم يكن موجودا من قبل ، وأن الشارع الذى تستعرض فيه المرأة قدرتها على الفتنة والإغراء شارع واسع « مسفلت » نظيف مزدحم بالسيارات الخاصة والعامة ولم يكن موجودا من قبل ؟!

أية سذاجة أو جهالة أو تزييف تلك التى تنسب ذلك « التقدم الاجتماعى » « الضخم » الذى نعيشه اليوم ، والذى أخرج المرأة إلى الطريق عارية تبتغى الفتنة وشغل الرجل بفتنتها . . إلى اقتصاديات القرن العشرين الفريدة فى التاريخ ، وظروف القرن العشرين الفريدة فى التاريخ ، وعلم القرن العشرين الفريد فى التاريخ ، واختراعات القرن العشرين الفريدة فى التاريخ و « أيديولوجيات » القرن العشرين الفريدة فى التاريخ ؟!!

أية سذاجة أو جهالة أو تزييف تلك التى تنسى وقائع التاريخ الماضى وتزعم أن البشرية « ولدت» اليوم مولداً لم تولده من قبل قط ، وأن هذا الجيل من البشرية جيل منقطع الصلة عن كل شىء قبله . « جيل الصواريخ » . . الذى لا يتقيد بدلالات الماضى ، ولا يتأثر بها ، ولا تعنيه فى شىء ، لأنه ينشىء نفسه إنشاء على نحو غير مسبوق .. ؟!

بل أية سذاجة أو جهالة أو تزييف تلك التى تزعم أن الكيان البشرى الداخلى قد « تطور » أو تغير خلال كل هذه القرون ؟!

* * *

تلك شهادة التاريخ .. فلنتدبرها .. إنها تقول أشياء كثيرة ..

تقول أولا : إن « القرن العشرين » . . أو « الحياة الاجتماعية فى القرن العشرين » . . أو « دور المرأة فى الحيـــاة الاجتماعية فى القرن العشرين » أو « علاقة الرجل والمرأة فى القرن العشرين » ليست صورة فريدة ولا جديدة فى حياة البشرية . . فقد مرت صور من قبل فيها مشابه عجيبة منها، حتى لينسى الإنسان إذا أغمض عينيه وهو يسمعها أنه يعيش فى القرن العشرين ، أو أن تلك الصور كانت قبل ألفين من السنين !

وتقول ثانياً : إن الأسباب المزعومة التى تفسر بها الحياة الاجتماعية فى القرن العشرين، ودور المرأة فيها، وعلاقتها بالرجل فيها، ليست هى الأسباب الحقيقية.. أو ليست كلها على الأقل . فإنها إن عزيت إلى أى سبب متعلق بالقرن العشرين وحده وما حدث فيه من « تطور » وتقدم ، فكيف يمكن تفسير الصورة المشابهة الشديدة الشبه منها ، التى حدثت فى القرن الأول للميلاد ، أو قبله بعدة قرون ؟ !

وتقول ثالثاً : إن الكيان البشرى ليس كما تصوره نظريات القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، على يد ماركس ودركايم ، ومن شابههم ومن أخذ منهم . . ليس « متطوراً » من داخله بالصورة التى تلغى كل ثبات فيه أو فيما حوله . . وليس « الجنس » اكتشافا جديداً يكتشفه فرويد . . فقد اكتشفته قبله حضارات عديدة فى التاريخ !

* * *

وليس معنى هذا أننا نلغى عمل التطور ، أو نسقط فترة الألفين من السنين !

كلا ! فما يصنع ذلك عاقل !

إنما نريد فقط أن نصحو من غفلتنا التى تتصور الحاضر منقطعاً عن كل دلالة الماضى ، نابتاً نباتاً شيطانياً على نسق غير مسبوق .

لقد حدثت أحداث ضخمة فى القرنين التاسع عشر والعشرين : فى عالم المادة وعالم البشر على السواء .

الانقلاب الصناعى كان حدثاً تاريخياً ضخماً ولا ريب .

الرأسمالية والشيوعية حدثان ولا شك من أحداث التاريخ . .

النظرة إلى « الإنسان » قد تقلبت مرات عدة من أقصى الشمال إلى أقصى اليمين بصورة لم يسبق لها مثيل : من تقديس فرديته إلى الحد الذى يكاد يلغى المجتمع إلى جواره ، إلى تقديسه فى صورة الجماعة إلى الحد الذى يكاد يلغى شخصيته الفردية ويعتبره مجرد فرد فى القطيع . من « إنسان » رفيع المنزلة يعتبر مركز الكون ، إلى حيوان أو ناجم من حيوان . . لا مزية له على غيره من الأحياء إلا أنه فى طور السيادة فى الوقت الحاضر ، وقبله كانت أنواع من الحيوان هى السيدة على ظهر الأرض ! ثم من إنسان عابد لغيره : لله أو الطبيعة أو أى شىء آخر ، إلى إنسان متأله لا يريد أن يعبد إلا ذاته فى القرن العشرين !

والعلم قد خطا خطوات جبارة لا مثيل لها فى التاريخ كله . . فجّر الذرة وأطلق الصاروخ . . وسخر للإنسان كثيراً من قوى الأرض والكون . . ويسّر الحياة المادية أيما تيسير . . وحمل عن الناس الجهد البدنى الذى كان يشقيهم من قبل ويعنتهم ، فحمّله للآلة ، وانطلق الإنسان خفيفاً مذخور الطاقات !

« صورة » الحياة كلها قد تغيرت من الألف إلى الياء . .

ولكن . . « الإنسان » هل تغير ؟ !

ألوان نشاطه . . ودلالة مناشطه وأعماله ؟ هل تغيرت ؟ !

هل صار – فى انحرافاته واعتدالاته – شيئاً آخر غير « الإنسان » ؟ الإنسان الذى عاش – مثلا – قبل ألفين من السنين ؟ !

هل صارت دلالات أعماله بالنسبة إليه – فى انحرافاته واعتدالاته – شيئاً آخر غير ما كان من الدلالات ؟ !

* * *

تلك شهادة التاريخ . .

فلنتدبرها . .

إنها تروى لنا أشياء خطيرة . . عن الثابت والمتطور فى كيان الإنسان .

الثابت والمتطور في كيان الإنسان

هل وعينا شهادة التاريخ ؟

هل استخرجنا منها كل دلالتها ؟

إن دلالتها لاتقف عند حد هذا التشابه العجيب بين فترتين من فترات التاريخ يفصل بينهما عشرون قرنا من الزمان .

إنها تلفتنا إلى ماهو أعمق من ذلك وأخطر . . إلى الطبيعة البشرية ذاتها . . إلى ذلك « الإنسان » المتضمَّن فى أحداث التاريخ ، متأثراً بها ومؤثرا فيها على مدار الأجيال . .

هذا « الإنسان » هو الذى نريد أن نصل إليه من خلال الأحداث والظروف . . ومن وراء الملابسات والتقلبات .. نريد أن نفحصه من الداخل .. أن نتعمق كيانه . . أن نتعرف إليه . . فمن المؤكد — من تخبطاتنا فى النظر إليه — أنه هو « المجهول » الأكبر فى هذا القرن العشرين . . قرن « العلم » والكشف والعرفان !

* * *

يقول ألكسس كاريل فى كتابه « الإنسان . . ذلك المجهول » — وهو « عالم » من علماء الطب والحياة ، وليس فيلسوفا صاحب نظريات :

« إننا لانفهم الإنسان ككل . . إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة . وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا . فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير فى وسطها حقيقة مجهولة ! !

« وواقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنية ، مازالت غير معروفة . . . . . . وهناك أسئلة أخرى لاعداد لها ، يمكن أن تلقى فى موضوعات تعتبر فى غاية الأهمية بالنسبة لنا . . ولكنها ستظل جميعاً بلا جواب . . فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية فى الغالب . . . »(١)

هذا تقرير عالم فى العلوم ، أتيحت له فرص نادرة — كما يقول فى مقدمة كتابه — لأن يقضى معظم وقته يبحث فى المعمل ، ويفيد من تجارب العلماء الآخرين فى الطبيعة والكيمياء وعلم الحياة وعلم وظائف الأعضاء إلى جانب تخصصه فى الطب . ومع ذلك « فالجماهير » ، بما فى ذلك « جماهير المثقفين » يأخذها غرور العلم الأجوف ، فيظنون أنهم عرفوا كل شيء — فى عالم الإنسان خاصة — وأنهم مؤهلون لأن يفتوا فى قضايا الإنسان فى تأكد وتمكن . . فتكون فتواهم هى هذه الأقوال الزائفة ، التى توحى بأن إنسان القرن العشرين كائن متفرد ، مقطوع الصلة — أو يكاد — بكل الأجيال قبله ، وأن تجربته التى يعيشها فى هذا القرن تجربة متفردة لأنها تصدر عن كيان « متطور » لامثيل له من قبل ، وأن دلالات الأفعال بالنسبة لهذا الإنسان دلالات غير مسبوقة ، ولاشبه بينها وبين دلالات البشرية فيما مضى من القرون . .

وتتغذى هذه النظرة الزائفة على « علوم » كثيرة و« نظريات » . .

فالتفسير المادى للتاريخ يقول إنه « ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم ، ولكن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم » [كارل ماركس] ووجودهم متغير على الدوام بحكم التطور فى أدوات الإنتاج ، تبعا لما يجد من

(١) ترجمة شفيق أسعد فريد . منشورات مكتبة المعارف ببيروت . ص ١٦ — ١٨

كشوف و اختراعات على الدوام « فأسلوب الإنتاج فى الحياة المادية هو الذى يعين الصفة العامة للعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة » [ماركس] « الإنتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى . فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغييرات والتحولات الأساسية يجب البحث عنها لا فى عقول الناس أو فى سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين ، و إنما فى التغييرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل» [فردريك إنجلز]

ومن ثم فلا يوجد كيان ثابت للإنسان !

الإنسان هو حصيلة الظروف المادية والاقتصادية . وهو انعكاس الطور الاقتصادى الذى يعيش فيه . وما دامت هذه الأطوار دائمة التغير ، فالإنسان — حصيلتها و انعكاسها — ليس له كيان ثابت ، و إنما هو فى تطور مستمر تبعاً لهذه التغيرات . والتطور يشمل كيانه كله : أخلاقه وعقائده وأفكاره وسلوكه الفردى والجماعى . . وكل شىء فيه .

كان الإنسان فى المجتمع الزراعى يعبد الله . . لأنه . . يضع البذرة فى الأرض ويطلب الحبّ من الرب ! لأنه عاجز بنفسه عن التأثير فى عملية الإنتاج ، لا هو يستطيع أن يسرعها أو يبطئها عن مدتها «الغيبية» ولا هو يستطيع — إلا بقدر ضئيل — أن يتحكم فى النتائج [بالجهد المبذول من جانبه] فالأعاصير والآفات ، وتقلبات البرد والحر لا سلطان له عليها البتة .. ولا بد أن ينتظر فيها كلمة السماء.

وكان الرجل هو المنتج الرئيسى ، وهو الذى يعول المرأة . ومن ثم كان هو المسيطر صاحب السلطان . وكانت الأسرة تمثل سلطان الزوج ، وهو حريص عليها شديد الحرص لأنها تهيىء له ذلك السلطان ، ومن ثم يفرض على المرأة قيودا خلقية شديدة ، فالعفة شرط رئيسى لحياتها وعنصر لا غناء لها عنه . والعفة معناها [فى هذا التفسير] أن يتأكد الرجل — صاحب السلطان — أن هذه

المرأة أو تلك له وحده لم يمسسها أحد غيره . ثم يجىء الدين [الذى يمثل هـذا « الطور »] فيقول إن العفة مطلب إلهى من البشر ، عليهم أن يلتزموا به من أجل الله .

وكانت الحياة الزراعية بما فيها من تـكاليف شاقة تستلزم نوعا من التعاون الفردى ، فصار هذا التعاون خُلقا . . وصار جزءا كذلك من مفهوم الدين.

وكانت الأسرة متعارفة ، بحكم قرابتها وتصاهرها فى محيطها المحدود ، وبحكم التعاون بينها فى جمع المحاصيل وبيعها وتبادلها ، فـكان هذا التعارف خلقاً . . وكان جزءا من مفهوم الدين . . الخ . . الخ . .

ومن هنا كانت أخلاق المجتمع الزراعى ومشاعره ومفاهيمه ومبادئه وسلوكه العملى . . كلها نابعة من حقيقة الأرض ، ومرتدة إليها . . فالأرض — بمفهومها الزراعى — هى التى تشكل حياة الإنسان .

ثم انتقل الناس إلى الطور الصناعى . . فتبدلت الأحوال . .

عملية الإنتاج لم تعد « غيبية ». فهى عملية منظورة .الآلة المنتِجة منظورة، والمادة المنتَجة منظورة كذلك .و«الإنسان» هو الذى يديرها وليس« الله »[! !] ومن ثم فلا ضرورة شعورية لعبادة الله !

والمرأة قد استقلت اقتصادياً بحكم سلسلة من الظروف الاقتصادية المتوالية. . فلم يعد الرجل هو الذى يعولها . ومن ثم لم يعد الرجل هو المسيطر. أو على الأقل لم تعد سيطرته مطلقة . فلم يعد فى وسعه — تدريجياً — أن يفرض العفة على المرأة. أى يفرض عليها أن تـكون له وحده .فصار من حقها — تدريجياً — ألا تـكون عفيفة. لأنها تستطيع حين يرفضها الرجل — إذا رفضها ! — لعدم عفتها ، أن تعول نفسها بنفسها . . ولأنها استقلت اقتصادياً اضطر الرجل أن يحترمها ، وينزل لها عن سلطانه ، ويعطيها حق الإباحية الجنسية . . ثم انتهى الأمر أن يحبذ هو تلك الإباحية بحكم « التطور » . .

وعاش الناس فى المدينة ـ لا فى القرية ـ بأعداد متزايدة ، ومن أصول غير متعارفة . فلم يعد التعارف شرطاً للحياة الإنسانية . وصار الخلق الجديد للمدينة ـ الخلق المتطور ـ أن يعيش كل إنسان حياته الخاصة فى عزلة عن الآخرين . . عزلة شعورية وواقعية . .

وبطل التعاون الفردى ، لأن عملية الإنتاج صارت متخصصة ، كل عامل يدق مسمارا أو يخط خطا أو يدفع شريطاً معدنياً أمامه . . إلخ . بلا تعاون ملموس بين واحد وواحد فى المصنع الكبير . . فصار « عدم التعاون الفردى » هو الخلق الجديد المتطور . .

وهكذا استمد المجتمع الصناعى أخلاقه ومشاعره ومفاهيمه ومبادئه وسلوكه العملى من الآلة ، والإنتاج المادى . . فصارت الآلة هى التى تشكل حياة الإنسان . .

وهكذا . . لا يكون شعور الناس هو الذى يعين وجودهم . ولكن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم ، على حد قول العالم الكبير كارل ماركس !

* * *

هكذا تحسب الحسبة فى التفسير المادى للتاريخ !

ثم يجىء « علم » الاجتماع على هدى دركايم فيقول إن الدين والزواج والأسرة ليست فطرة لدى الإنسان ! وإنما هى من عمل « العقل الجمعى » ، وهو شىء [ماهو ؟ !] دائم التطور والتغير والتشكل ، لأن المجتمعات لاتثبت على حال واحد . ومن ثم فكل مجتمع يصنع دينه [أو لادينه !] ونظم زواجه [أو لازواجه !] ونظم أسرته [أو لا أسرته !] فإذا قال العقل الجمعى فى طور من أطواره : ليكن دين . . فليكن دين ! وإذا قال : ليكن زواج . . فليكن زواج . وإذا قال : لتكن أسرة . . فلتكن أسرة . أما إذا قال — حسب هواه ، أو حسب « حتمية الظواهر الاجتماعية » التى لاتنشأ من ضمير

الفرد ولا فطرته ، ولاعلاقة لها بمشاعره الفردية ، ولا برضاه أو عدم رضاه عنها! — إذا قال : ليكن لا دين . وليكن لازواج . وليكن لا أسرة . فسرعان مايرضخ الأفراد « لقهر الظاهرة الاجتماعية » فينسلخون من دينهم وأخلاقهم ويتبرأون منها . ويحلون روابط الزواج والأسرة ، ويصبحون أى شيء يريده العقل الجمعى — سبحانه — لاقاهر سواه .

* * *

ثم تجيء بهرة العلم . .

الكهرباء بأعاجيبها . .

والآلة بضخامتها . .

والتغير الدائم . . كل يوم جديد . .

ما تكاد البشرية تفتح فاها عجبا للتليفون — مثلا — وقدرته السحرية على نقل الصوت — فى أسلاك — عبر السهول والوديان والجبال ، حتى يكون اللاسلكى قد فجأها بما هو أعجب وأشد فتحا للأفواه . وحتى يكون التليفزيون . .

وما تكاد البشرية تفيق من دهشة السيارة التى تسير بلا حصان . . بقوة الاحتراق الداخلى ، كأنما يدفعها جن أو ساحر يسخر الجن ، حتى تفجأها الطائرة . . ثم الصاروخ . .

وما تكاد تفيق من عملية النسج الآلية ، التى تقوم الآلة فيها بعمل ستة من العمال دفعة واحدة ، حتى تفجأها الآلة التى تصنع كل شيء ! والتى تقوم بعمل ألوف العمال ، على دقة وتمكن لا تطيقه طاقات الإنسان .

ثم تتوالى العجائب كل يوم وكل لحظة . . فتعطى الحياة شكلا مختلفا فى كل لحظة ، وتغير مشاعر الناس وأفكارهم ومفاهيمهم ومبادئهم وسلوكهم الواقعى كل لحظة . . سلوك راكب الجمل ومفاهيمه غير سلوك راكب السيارة

غير سلوك راكب الطائرة ، غير سلوك راكب الصاروخ المسافر بين الكواكب في عصر الفضاء . .

فأنى « للإنسان » أن يكون هو الإنسان . . بل أين هو الإنسان ذاته في هذا السباق الجبار ؟ !

* * *

وحين نصل من القضية إلى هذا الحد . . حين تأخذ رءوسنا تدور من طنين الآلات وانفجار الطاقات . . حين تبهر أعيننا شدة التغير ومداه . . فنظن أن « الإنسان » قد تغير . . أو أنه لا يوجد وجود حقيقي للإنسان (!) . . عند ذلك ينبغي أن نعود سريعا إلى شهادة التاريخ . . فهي العاصم لنا من الدوار !

شهادة التاريخ .. هي الرد على هذه « التهيؤات » !

صورتان من الحياة يفصل بينهما ألفا عام . . وتفصل بينهما أدوات مختلفة من أدوات الإنتاج وأطوار مختلفة من العلوم والكشوف والاختراعات . . ومع ذلك يتشابهان إلى هذا الحد الذي يثير الدهشة . كادان في بعض الجزئيات يتماثلان !

إذن . . ؟ !

لابد أن هناك تفسيرا آخر « للإنسان » . .

ولابد أن هناك عوامل أخرى غير هذه العوامل المنظورة ، هي التي تحكم تصرفات الإنسان !

* * *

التفسير المادي للتاريخ يحاول أن يفسر الإنسان من الخارج . . يحاول أن يفسره على أنه هو في ذاته عجينة لينة قابلة للتشكل الدائم ، ومهمتها هي

التشكل الدائم .. لا قوام لها فى ذاتها .. وإنما تستجيب دائما للمؤثرات .. ومن ثم تأخذ صورة القالب — الاقتصادى والمادى — الذى توضع فيه ، ولا تضغط هى على الحوادث أبدا ، ولا يكون لها هى التأثير على هذا القالب ، لأنه « حتمى » من ناحية ، ومن ناحية أخرى « مستقل عن إرادة الناس »
[كارل ماركس][1]

والتفسير الجمعى للتاريخ يحاول كذلك أن يفسر الإنسان من الخارج .. يحاول أن يفسره على أنه — أراد أو لم يرد — يتشكل على الدوام « بالقهر » الاجتماعى الذى لا يراعى مشاعر الفرد ولا رغباته ، ولا علاقة له بها [دركايم][2] وعلى أن الظواهر الاجتماعية لا صلة لها « بفطرة » الإنسان .. فالأمور التى يُظن أنها من الفطرة ، كالدين والزواج والأسرة ، والقيم الخلقية ، ظواهر اجتماعية فى حقيقتها ، قد يرتضيها الفرد وقد لا يرتضيها ، ولكنها « تكون » .. وبالتالى ، فإنه إما ألا تكون للإنسان فطرة ثابتة .. وإما أن هذه الفطرة — على فرض وجودها — ليست مرجعا لحياة الإنسان ! !

ثم تجىء شهادة التاريخ فتكذب هذا وذاك !

فكلا التفسيرين يعجز عن تفسير هذا التشابه العجيب فى الحياة الاجتماعية الذى يفصل بينه ألفا عام ..

التفسير المادى الذى يضع همه كله فى التغيرات المادية وتطور أساليب الإنتاج ، يعجز بداهة عن تفسير موقفين متشابهين من الناحية « الإنسانية » لا شبه بينهما على الإطلاق فى عالم المادة وأساليب الإنتاج !

(١) « فى الإنتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محددة لا غنى عنها . وهى مستقلة عن إرادتهم . وعلاقات الإنتاج تطابق مرحلة محددة من تطور قواهم المادية فى الإنتاج . والمجموع الكلى لهذه العلاقات يؤلف البناء الاقتصادى للمجتمع . وهو الأساس الحقيقى الذى تقوم عليه النظم القانونية والسياسية ، والتى تطابقها أشكال محدده من الوعى الاجتماعى » [ماركس]

(٢) مرت بنا مقتطفات من أقواله فى فصل سابق .

والتفسير الجمعى الذى يضع همه كله فى العقل الجمعى ، والقهر الاجتماعى الواقع على الفرد الذى لا تحكمه الفطرة .. يعجز عن تفسير الموقفين المتشابهين ، إلا على فرض واحد — لايريد أصحابه الاعتراف به — هو أن يكون هذا العقل الجمعى — على فرض التسليم بوجوده — جزءا من فطرة الإنسان !

ولاتفسير لشهادة التاريخ إلا تفسير واحد : أن يكون للإنسان فطرة ، وأن يكون لهذه الفطرة لون من الثبات ! وكل تفسير خلاف ذلك فهو عاجز عن التفسير ، متمحل ، مجانب للصواب !

* * *

ما الذى أغرى تلك التفسيرات المنحرفة أن تصنع هذا الصنيع «بالإنسان»؟!

إنها مزية الإنسان العظمى ، التى ميزه الله بها عن الحيوان ، هى ذاتها التى تجعل هـذه التفسيرات المنحرفة تنزله من مكانه الرفيع ، فترده إلى وضع أسوأ حتى من الحيوان !

المرونة . . وتعدد الجوانب !

ويعجب الإنسان حين ينظر إلى تلك التفسيرات القاصرة الزائفة ، كيف تشوه المزية التى وهبها الله للإنسان ، ليوسع حياته ويثريها ، ويعدد أنماطها ومستوياتها ، واتجاهاتها وألوان نشاطها .. فتقلبها — فى تفسيرها — أداة للسلبية والخنوع ، والانطباع الدائم بالمؤثرات المادية « المستقلة عن إرادة الإنسان » أو القهر الاجتماعى « المستقل عن كيان الفرد » . . أو ماشابه ذلك من المؤثرات

المرونة التى مكنت الإنسان أن « يواجه » البيئة المادية فى جميع ظروفها وحالاتها ، فيسيطر عليها فى النهاية على نحو من الأنحاء [« وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه »][1] ولا يفنى ولا يدول حين تواجهه الصعاب .

(١) سورة الجاثية [١٣]

وتعدد الجوانب الذى تتمثل فيه عبقرية الإنسان ، والذى أتاح له أن «ينشىء» الحضارات المختلفة ، وأن يجعل هذه الحضارات شاملة لنشاط الروح ونشاط الفكر ونشاط الجسد . . شاملة للجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمادية والفكرية والروحية . .

هذه المزية وتلك — وكلتاهما موهوبتان للإنسان ليعطياه إيجابية وحيوية فاعلة — تردهما التفسيرات المنحرفة الزائغة إلى سلبية بغيضة تتأثر بالأحداث من الخارج ، ولا تؤثر هى من الداخل فى الأحداث !

المرونة — القابلية للتشكل الدائم — أغرت التفسير المادى للتاريخ أن يظن أنه لايوجد « كيان » ثابت للإنسان . وأنه ليس لهذا الكيان كلمة ذاتية فى الموضوع ! عليه فقط أن يتلقى فيستجيب !

وتعدد الجوانب — وخاصية بروز بعضها أحيانا وانحسار بعض —أغرت هذا التفسير والتفسير الجمعى كذلك أن يظنا أنه لايوجد كيان ثابت للإنسان ، وإنما هى « أطوار » لا يجمعها فى النهاية كيان !

وهذا وذاك — وغيرهما من التفسيرات الزائغة المنحرفة — يأخذون جزئية صغيرة ، أو وجها واحداً من وجوه الإنسان ، ويفسرون على ضوئه الإنسان كله ، فيخرج من بين أيديهم مشوه الكيان !

* * *

والإنسان فى حقيقته أكبر من تلك الجزئية الصغيرة وأكبر من ذلك الوجه المفرد الذى تفسر من خلاله الحياة .

ومرونته وتعدد جوانبه اللذان أغريا هذه التفسيرات الجزئية أن تشوه صورته هما مزيتان إيجابيتان على مدار التاريخ ، وإن كان لهما — بالفعل — وجه سلبى هو الذى تركز عليه هذه التفسيرات ! !

إن الإنسان المزدوج الطبيعة ، المكون من قبضة الطين ونفخة الروح ، متحدتين ممتزجتين[1] ، يحمل فى كل تصرفاته وجهين متقابلين . ومن مجالات هذا الازدواج أن توجد فيه هاتان الصفتان المتقابلتان : السلبية والإيجابية ، وأن تشملا — من الجانبين — كل تصرفاته ، فى اللحظة الواحدة وفى جميع اللحظات . وإن كان فى طبيعته أن يجنح أحيانا بهذه الصفة أو تلك ، فتزيد نسبتها مؤقتا ، ثم يعود — مادام سويا — إلى الاتزان . وتلك هى الحقيقة الكبرى التى غابت عن وعى تلك التفسيرات ، فوقعت فيما وقعت فيه من انحرافات !

والآن نعود إلى القضية الأساسية فى هذا البحث . . قضية الثابت والمتطور فى كيان الإنسان .

ما « الفطرة » الإنسانية . وما دلالتها فى حياة الإنسان ؟

وإذا كانت للإنسان فطرة « ثابتة » فما تفسير التغير الدائم فى حياة البشرية الذى يصل من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال ، والذى لا تماثل فيه حالتان من حالات الإنسان ، وإن تشابهتا تشابها شديداً فى بعض الأحيان ؟

بل قبل ذلك . . ما الذى يثبت لنا أن للإنسان « فطرة » على الإطلاق ؟ ولماذا لا يكون — كما يفسره علم النفس التحليلى — مجموعة من الحالات النفسية المتتابعة بلا وحدة ، أو — كما يفسره التفسير المادى للتاريخ — مجموعة من الأطوار ؟

الذى يثبت ذلك هو الإنسان ذاته ! وهو تاريخ الإنسان !

فلننظر إلى « الدوافع الفطرية » . . هل لها وجود حقيقى ملموس بارز . . وهل هذا الوجود ثابت أم يتغير بتغير « أطوار » الإنسان ؟

« حب الحياة » هو الدافع الأكبر للإنسان . وهو دافع مشترك بين جميع الأحياء . كلهم يحبون الحياة ويتشبثون بها ، ويعملون على البقاء فيها أبداً . . وإن كان من طبيعتهم أن يصيبهم الفناء . ولكن مزية الإنسان العظمى فى كل

---

(1) انظر بالتفصيل فصل « خطوط متقابلة فى النفس البشرية » فى كتاب « منهج التربية الإسلامية » وفصل « طبيعة مزدوجة » فى كتاب « دراسات فى النفس الإنسانية » .

جوانب حياته هى الوعى والإدراك وحرية الاختيار . فهو يحب الحياة و يدرك أنه يحبها ، ويعى لهذا الحب أهدافا وغايات ، ثم يختار ـ فى نطاق الحرية المخولة له فى فطرته ـ اللون أو الصورة التى يمارس بها حب الحياة .

هل هذا الدافع ثابت فى كيان الإنسان أم متغير ؟

هل يجىء على البشرية طور لا تحب فيه الحياة ؟

إن حالات الانتحار ـ وهى الشذوذ المنحرف إلى أسفل ـ وحالات التضحية بالنفس ـ وهى حالات الارتفاع ـ لا تنفيان هذا الدافع ، بل ربما تؤكدانه . . فضلا عن أنها ـ من جانبيها ـ حالات نادرة فى البشرية !

إن الذى يؤدى به الشذوذ المنحرف إلى الانتحار ، شخص يحب الحياة جداً فى حقيقة الواقع ، ولكنه لا يجد فيها متاعه المنشود الذى يحبه ، فينتحر لأنه لا يطيق الحرمان من ذلك المتاع !

والذى يؤدى به الارتفاع إلى التضحية بالنفس فى سبيل عقيدة أو فكرة ، يحب صورة من الحياة أعلى من الصورة الواقعة . وفى هذا المستوى العالى يقدم حياته الخاصة فى سبيل أن يحقق صورة من الحياة أفضل ـ على هذه الأرض ـ أو فى سبيل أن ينال حياة أفضل من حياة الأرض كلها ـ فى الآخرة ـ فهى إذن دفعة متسامية لتحسين هذه الحياة ، وليست خروجاً على حب الحياة !

ثم تأتى الحالات « العادية » كلها تؤكد عمق هذا الدافع فى حياة كل إنسان رغم التباين الواسع ما بين إنسان و إنسان .

وحب الحياة يتفرع عنه فرعان كبيران : حب الذات [أو حفظ الذات] وحفظ النوع .

فهل من شك فى هذا أو ذاك ؟

و إذا قسمنا هذين الدافعين إلى فروعهما المتميزة ـ المتشابكة فى النهاية ـ وهى دافع الطعام والشراب والملبس والمسكن . ونزعة الملك . ونزعة القتال

أو الصراع . ونزعة البروز والتميز. ودافع الجنس[1] . . فلننظر فى كل منها على حدة ، لنرى هل هى نزعات ثابتة فى الكيان البشرى ، أم إنها توجد وتختفى حسب الأحوال ؟

المأكل والمشرب والملبس والمسكن . . لم يجادل فيها أحد بعد مجادلة جدية (!) [ربما تجادل « الحضارة » الغربية التقدمية الراقية فى مسألة العرى الكامل على الشواطىء وفى الأدغال ! و بصرف النظر عن هذه النكسة الحيوانية البشعة ، فإنها تأخذ صورة وقتية . . للاستمتاع كما يقولون ، ثم يعود العرايا فيلبسون ! ومن ثم فلا جدال من حيث المبدأ !]

وطاقة الجنس كذلك . . لم يجرؤ أحد بعد أن يقول إنها مستمدة من الطور الاقتصادى أو المادى ! وإنها توجد ـ مثلا ـ فى المجتمع الرعوى ولا توجد فى المجتمع الزراعى. أوتوجد فى السيد ـ مثلا ـ ولا توجد فى الرقيق ! إنما أقر الجميع بأنها مسألة جسدية بحتة ، أو جسدية نفسية . توجد حين توجد الغدد المهيمنة عليها وتؤدى وظيفتها الصحيحة ، وتغيب حين يختل عمل الغدد اختلالا وظيفياً لا شأن له بأساليب الإنتاج وأطوار التاريخ ! !

ولكن الشيوعية بصفة خاصة قد حاولت أن تنتزع نزعة معينة من هذه النزعات الفطرية وتلقيها خارج كيان الإنسان .. لتنفى وجودها من ناحية ، ومن ناحية أخرى تنفى وجود كيان ثابت للإنسان ! تلك هى نزعة الملك .. وذلك لغاية فى نفس يعقوب .. لتصادر الملكية الفردية وتستبدل بها الملكية الجماعية.

وقد ناقشت هذا الأمر فى كتاب « الشبهات » وكتاب « الدراسات » . وما بى من ميل هنا إلى إعادة المناقشة التفصيلية التى بينت فيها ضلال هذه الدعوى

---

(١) فصلنا الحديث عن هذه الدوافع فى فصل « الدوافع والضوابط » فى كتاب « دراسات فى النفس الإنسانية » ولا نملك الحديث عنها هنا بالتفصيل بطبيعة الحال ، ولذا نأخذ خلاصتها فى هذا البحث ، فمن يرغب فى التفصيل فمكانه هناك !

وبطلانها . ولكنني ـ توفيراً للجدل هنا ـ أقول إن الشيوعية ذاتها ، حين نقلت « الملك » من الفرد إلى المجموع ، لم تنكر نزعة الملك فى الحقيقة من حيث هى . . وإنما أرادت فقط أن تتحايل عليها وتوجهها إلى أفق آخر يخدم أغراضها المذهبية .. ومع ذلك فقد اضطرت أخيراً إلى التسليم بالأمر الواقع ، وأباحت ألواناً من الملكية الفردية ـ فى المواد الاستهلاكية ـ ترضى بها نزعة الملك الفردية فى الإنسان . . وهذا يكفى !

كذلك حاولت الشيوعية أن تصنع مثل ذلك فى نزعة البروز . حاولت أن تقتلها فى مجالها الفردى . فلا يبرز الفرد إلا لحساب المجموع ! وسارت خطوات وتخبطت فى الطريق ! وكان ستالين ذاته ـ بزعامته الفردية الطاغية التى اعترف بها خروشوف فيما بعد ! ـ أكبر تكذيب عملى لهذه « الأيديولوجية » الخيالية الفارغة . . ثم عادت الشيوعية فسلمت بالأمر الواقع ، وأباحت التفاوت فى أجور العمال ـ أجور الطبقة الواحدة والعمل الواحد ـ لمن أراد أن يبذل جهداً أكبر ويحصل على أجر أكبر ، ينفقه فى « الكماليات »! . . إنها نزعة البروز إذن فى صورة من الصور . . الفردية فى نهاية المطاف !

أما نزعة القتال والصراع ، فالأمم منذ القدم حاولت أن توجهها وجهة جماعية ، فى الحرب من أجل المجموع ، أو العقيدة ، أو ماشابه ذلك من الأهداف العامة . أو وجهة فردية متسامية ، فى المسابقات التى تهدف إلى « الفوز » وهو غاية القتال والصراع . وكل هذه المحاولات لا تنفى على أى حال وجود هذه النزعة فى صورتها الفردية ، وإنما تحاول فقط أن تستغلها لخير المجموع .

* * *

تلك نوازع الفطرة الرئيسية . . فما الذى يتغير أو يتطور فيها على مدار التاريخ ؟ !

إن قوما سيقولون بلا شك : لقد تحدثت عن الإنسان من الداخل .

ولم تتحدث عن واقع البشرية : عن الكيان الاقتصادى والكيان الاجتماعى والسياسى المتغير . عن الإنتاج وأساليبه وصراعاته . عن التقدم والتطور الدائم فى حياة الإنسان ..

نعم . تحدثنا عن الإنسان من الداخل ..

ولكن .. هل الحياة الواقعية إلا الانعكاس الحقيقى لكيان الإنسان ؟ !

كيف إذن نوفق بين الكيان الإنسانى الثابت ، وبين تغير الحياة الإنسانية على الدوام ؟

إن « الصورة » التى يترجم بها الإنسان عن دوافعه الفطرية تتغير و« تتطور » من جيل إلى جيل . . تتطور بفعل الاحتكاك الدائم بين العقل البشرى والكون المادى ، ونشوء صور جديدة للحياة الواقعية نتيجة لهذا الاحتكاك .

هذه حقيقة ..

ولكن . . حين تتغير « الصورة » . . هل يتغير « الإنسان » ؟ !

فلنأخذ مثلا نزعة الطعام ..

إنها نزعة فطرية ثابتة فى جميع الأناسى ، بل فى جميع الأحياء ، ولكن « صورة » الطعام تتغير وتتطور .

يأكل الإنسان فريسة نيئة فى عصر الصيد ، لأنه لايملك وسيلة أخرى للأكل . إمكانياته المادية لاتسمح له بأكثر من ذلك . ومعارفه ومعلوماته قاصرة عند هذا الحد . ثم يكتشف النار . فيتيح لههذا الاكتشاف عالما جديدا كل الجدة ، ويغير « شكل » حياته كله . وفى ميدان الطعام بصفة خاصة تتغير الصورة ، فيطهو الإنسان اللحم قبل أن يأكله . ولكنه مازال ينهشه نهشا بالأصابع والأسنان . ثم يرتقى ويستحدث مختلف الأدوات . يستحدث سكينا يقطع بها اللحم قطعا صغيرة يستطيع إمساكها بيده ووضعها — لانهشها — فى فمه . ثم يرتقى أكثر ، ويستحدث مزيدامن الأدوات ، وتتعدد ألوان طعامه ،

ويتأنق فيها، ويجعل للطعام آدابا وقواعد وتقاليد .. و«فنونا» لا تفرغ منها البشرية !
ما الذى تغير ؟ ! نزعة الطعام ذاتها أم صورة الطعام ؟ !

ولنأخذ مثلا نزعة السكن . .

إنها نزعة ثابتة فى الفطرة . . كل البشر — بل كل الأحياء — يسعون إلى اتخاذ المسكن . ولكن « صورة » المسكن تتغير وتتطور .

يسكن الإنسان فى مبدأ حياته فى الكهوف . لأن إمكانياته المادية لا تتيح له شيئاً يسكن فيه سوى هذه المساكن « الجاهزة » غير المصنوعة ، ولأن معلوماته وخبراته المحدودة لا تتيح له أن « يصنع » مسكنا لنفسه فى أية صورية. ثم تتغير ظروف حياته وتزداد خبراته ومعلوماته ، فيسكن فى « عش » فى أعالى الأشجار أو فى كوخ بجانب الماء . ثم فى مساكن من الغاب و بيوت من الطين. ثم فى بيوت من الحجر أكبر وأفسح . . ثم فى ناطحات السحاب على الأرض . أو فيما لا نعلم غداً على سطوح الكواكب حين يصل إليها بالصواريخ . .

ما الذى تغير ؟ ! نزعة السكن أم صورة المساكن ؟

ولنأخذ نزعة اللباس . .

نزعة فطرية فى بنى آدم منذ طفق آدم وحواء يخصفان على سوآتهما من ورق الجنة إلى الوقت الحاضر . . ولكن صورة اللباس تتغير . .

« يلبس » الإنسان أوراق الشجر، أو بالأحرى يغطى بها عوراته ولا زيادة، لأن إمكانياته المادية لا تتيح له أن «يصنع» لنفسه ملابس ، ولأن معلوماته وخبراته المحدودة لا تتيح له أكثر من المادة الجاهزة يغطى بها من جسمه ما تستطيع تلك المادة أن تغطيه .. ثم يرتقى .. يستجد معلومات وخبرات ويزداد إمكانيات .. فيغطى عوراته بقطعة من الجلد ، أكثر إحكاما من ورق الشجر وأكثر سترا للعورات.. ثم ينسج قطعة من القماش يؤدى بها الغرض ذاته . . ثم تزداد ملابسه تنوعا

وتأنقا .. حتى تصير لها قواعد وآداب وتقاليد .. وتصبح فنا من فنون البشرية ..
ما الذى تغير ؟ ! نزعة اللبس ذاتها أم صورة اللباس ؟

ولنأخذ دفعة الجنس . .

دفعة فطرية تشترك فيها الأناسى وكثير من الأحياء . . ولكن « صورة » الجنس تتغير . ولانقول هنا « كانت » ثم « صارت » فمازالت تتقلب إلى هذه اللحظة بين ما كانت عليه وما صارت إليه ! [وسنعود إلى الحديث عن هذه النقطة بالذات بعد قليل] وإنما نقول إنها تارة تكون دفعة مباشرة كدفعة الحيوان . كل همها اللقاء الجنسى ، وإرواء دفعة الجسد الهائج فى سورة الغريزة . وتارة تكون مسبوقة بأنواع من الغزل العنيف أو الرقيق [كما يختلف فى عالم الحيوان ذاته بين « غزل » النمور المحطم المدمر ، وبين رقة الغزل عند الحمائم وأنواع أخرى من الطيور !] وتارة تخضع للتنظيمات الخلقية والدينية والاجتماعية والاقتصادية . وتارة تتحلل من هذه القيود . ولكن لها على أى حال — ككل النزعات الفطرية الأخرى — قاعدة دنيا أقرب إلى عالم الحيوان ، وقمة عليا أليق بالإنسان . . ولكن . . حتى فى هذا الأمر . .
ما الذى تغير ؟ ! دفعة الجنس ذاتها أم صورة اللقاء ؟

ولنأخذ نزعة الملك . .

نزعة فطرية رغم جدل الشيوعية ! يثبتها كما قلنا اضطرار الشيوعية إلى إباحة الملكية الفردية فى بعض الأمور . . ولكن صورة الملك تتغير . فى فترة من الفترات لم يكن هناك ما يمتلك ! لم يكن الصيد الذى يصيده الإنسان ملكا لفرد بعينه لأنه لايستطيع أن يمتلكه وهو لايصيده بجهده وحده من ناحية ، ولايستطيع أن يحتفظ به من ناحية أخرى لأنه ينتن ويفسد . ولكن حتى فى فى ذلك الحين كان يثور الصراع على « امتلاك » امرأة . فيتصارع من أجلها

الرجال . ثم صار هناك « إنتاج » يمكن أن يمتلك . فامتلك الإنسان الأدوات البسيطة التى أنتجها . ثم امتلك المحاصيل حين تعلم الزراعة . وامتلك حيوان الزراعة المستأنس حين تعلم كيف يستأنسه . وامتلك الأرض التى تغل المحاصيل. ثم امتلك المصانع . واليوم يمتلك القنابل والصواريخ ! وقد يمتلك الكواكب فى الغد القريب أو البعيد . .

ما الذى تغير ؟ ! نزعة الملك أم صورة التملك ؟

ولنأخذ نزعة البروز . .

نزعة فطرية تدفع البشرية من مولدها إلى حاضرها . بل هى موجودة عند كثير من الحيوان . . ولكن صورة البروز تتغير . ولعلها من أشد النزعات تباينا وتشكلا فى حياة الإنسان . يبرز فى عصر الكهوف بالقوة البدنية الفائقة التى يصطاد بها الصيد ويحارب الوحوش والأعداء .. ثم يبرز بالحيلة . أى بالتفكير . ويبرز بمحاولة الاختراع . أى بالمهارة . ويبرز بالجمال . ويبرز بالملبس والمسكن والمأكل والمشرب . ويبرز بالجنس «فيفتنى» النساء . ويبرز بالقتال والصراع . ويبرز بالطاعة ويبرز بالمعصية ! يبرز بالخير ويبرز بالشر . يبرز فى المسابقة الرياضية والمسابقة العلمية والفنية . يبرز فى السياسة . يبرز بالقدرة على الكلام والتأثير . أو القدرة على الدس والخديعة . . ألوان مختلفة من البروز ومستويات مختلفة . .

ما الذى تغير ؟ ! نزعة البروز أم صورة البروز ؟

ولنأخذ نزعة القتال والصراع . .

نزعة فطرية فى البشرية وغيرها من الأحياء . . ولكن صورة القتال تتغير . القتال بالقوة البدنية المباشرة ، القوى يصرع الضعيف . والقتال بالهراوة والحجر الضخم . والقتال بالحيلة والخديعة . والقتال بالأدوات المسنونة : السهم والرمح

والسيف . والقتال بالمقلاع . والقتال بالبارود . بالرصاصة والقنبلة . والقتال بالصواريخ وأشعة الجراثيم وأشعة الموت وأشعة النوم والـ . . ؟ !

ما الذى تغير ؟ ! نزعة القتال أم صورة القتال ؟

* * *

تلك حياة البشرية من الداخل والخارج فى ذات الوقت . . فى المشاعر الدافعة والصورة الواقعة . فى « الإرادة » و « التطبيق » . فى « الفكرة » و « الواقع » أو الفكرة والمادة .

ما الذى تغير فى عصور التاريخ ؟ ما الذى تغير فى «الإنسان» حين استجد أدوات ووسائل للطعام ، وأدوات ووسائل للسكن ، وأدوات ووسائل للبس ، وأدوات ووسائل للنشاط الجنسى ، وأدوات ووسائل للملك ، وأدوات ووسائل للبروز ، وأدوات ووسائل للصراع ؟ !

هل تغير « الإنسان » ؟ هل تغيرت دوافعه حين جدت له الوسائل والأدوات ؟ هل صار لا يأكل ؟ لا يشرب ؟ لا يلبس ؟ لا يسكن ؟ لا ينشط نشاط الجنس ؟ لا يملك ؟ لا يحاول الصراع ؟ !

هل جدت له دوافع جديدة لم تكن له من قبل أو امحت من نفسه دوافع كانت فيه ؟

ماذا على وجه التحديد ؟ !

حقاً لقد حدثت فى حياته تغيرات ضخمة ، ما بنا أن ننكرها أو نغفلها من حسابنا ! بل نحن نريد أن نثبتها ونبرزها ونؤكد عليها !

إنسان الغابة غير إنسان المرعى غير إنسان القرية غير إنسان المدينة . . وإنسان الحضارة المحدودة غير إنسان الحضارة العالية .. غيره فى طريقة التفكير والتصور . غيره فى تناول الحياة . .

غيره على أنحاء شتى . . ومستويات متباينة .

ونريد هنا أن نفرز أنواع التغير والتطور — فإنها متباينة — ثم ننظر هل هذه التطورات ذاتها جزء من الفطرة . الفطرة الثابتة . داخل فى كيانها . أم عنصر جد على الإنسان من أثر التطور المادى وتقدم الوسائل والأدوات ، لنحكم على دلالة التغير بالنسبة للفطرة ، ولكى نستخلص أخيراً من هذا الحكم : هل هناك مقياس من الفطرة يقاس به التطور ويرجع إليه ، ويحكم عليه إن كان تطورا فاسدا أم يسير فى طريق الصلاح . . أم إنه ليس هناك مقياس ؟

تلك أمور على أعظم جانب من الأهمية فى قضية التطور . . فإن القوم المصابين بلوثة التطور فى الغرب ، ومن أخذ منهم العدوى فى الشرق ، لا يفرقون بين تغير وتغير ، ولا يقيمون مقياسا تقاس به الأمور . لأن التطور — فى نظرهم — مقياس لذاته ! لا يُحكم عليه بشيء — كما يقولون — من خارجه ! فإذا سار نحو الفردية الجانحة — مثلا — فلأن الظروف الاقتصادية والاجتماعية تدفع إلى ذلك وتحتمه ، ومن ثم لا يحكم عليه بأنه خطأ أو صواب ! والحكم الوحيد هو الظرف الاقتصادى والاجتماعى . فإذا كان يقتضى الفردية ويحتمها فالفردية عندئذ صواب . وإذا كان يقتضى الجماعية ويحتمها فالفردية إذن — إن وجدت — خطأ ينبغى أن يصحح ! ولا يوجد مقياس ثابت تقاس إليه الفردية الجانحة أو الجماعية الجانحة فتخطّأ أو تصوّب ، وتمنع أو تجاز !

وإذا سار المجتمع نحو الأخلاق التى تحرم النشاط الجنسى خارج نطاق الأسرة ، وتفرض العفة على المرأة ، أو عليها وعلى الرجل ، فليس ذلك لأن هذه الأخلاق قيمة موضوعية لها مقياس من فطرة الإنسان تقاس إليه ، وإنما لأن الطور الاقتصادى الاجتماعى يقتضيها ويحتمها ، فهى صواب إذن فى نطاقها هذا وظروفها تلك . فإذا تغير الظرف الاقتصادى والاجتماعى ، وصار يقتضى التحلل الجنسى والإباحية ، والتخلص من قيود العفة ، وممارسة النشاط الجنسى

الحر فى الشوارع أو الغابات أو شواطىء البحيرات ، فهذا إذن صواب بمقياسه الخاص ، لأنه لا مقياس من الفطرة ولا مقياس من أى شىء « خارج » الظرف الاقتصادى والاجتماعى ..

وهكذا يقولون فى كل جانب من الحياة البشرية ..

لذلك ينبغى ونحن نناقش هذه القضية الخطيرة أن نضع نصب أعيننا تلك الأمور التى أشرنا إليها آنفا :

ما أنواع التغير ؟ [فإنها أنواع متباينة] ..

هل التغيرات التى حدثت فى التاريخ جزء من الفطرة أم أمور جدّت عليها من خارجها بفعل التطور المادى ؟

ما دلالة هذه التغيرات بالنسبة للفطرة السوية [هل هى متمشية معها أم ضدها] ؟

ما المقياس الذى يقاس به التطور ؟ [إن كان فاسداً أو يسير فى طريق الصلاح]

* * *

ونبدأ بفرز أنواع التغير التى أصابت البشرية منذ مولدها ، كما يتبين لنا من الدراسة العلمية للإنسان الأول والمجتمعات الأولى ، وكما يتبين لنا من دراسة التاريخ .

هنالك – على الأقل – أربعة أنواع متميزة من التغير أو التطور :

التطور فى الأدوات وأساليب الإنتاج .

التطور فى التشابك الاقتصادى والاجتماعى فى بنية المجتمع .

التطور « النفسى » [السيكلوچى] .

التطور [أو التغير] الأخلاقى .

والتفسير المادى للتاريخ – وإن لم يفرزها كما نفرزها نحن ، لأن هذا أمر لا يعنيه ! – يجعلها كلها – جملة واحدة – مرتبطة بعضها ببعض ، ثم مرتبطة بالتطور فى أساليب الإنتاج وناشئة عنه !

ونحن نرى الارتباط واضحا ووثيقا بين التطور فى استعمال الأدوات وأساليب الإنتاج ، والتطور فى البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع . وإن كنا — كما سيجيء — لا نحب أن نعتقد أن الارتباط ناشئ من علاقة السببية المباشرة . أى لا نحب أن نعتقد أن السبب الوحيد فى تطور البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع هو تطور الأدوات وأساليب الإنتاج . فهذا سبب واحد ، ومعه أسباب أخرى نفسية سنبينها . ولكنا نقول فقط إن هناك ارتباطا كبيراً بين هذا وذاك..

أما التطور النفسى — أى التعقد فى الكيان النفسى للإنسان ، وزيادة التشابك بين أطرافه — فالتفسير المادى للتاريخ يؤكد أنه نتيجة مباشرة لتطور أساليب الإنتاج . ولاشك عندنا أن تطور أساليب الإنتاج عامل مؤثر ، بل شديد التأثير. ولكنا نريد أن نبين — رغم ذلك — أن هذه الظاهرة ، وهى التطور النفسى ، ظاهرة مستقلة إلى حد كبير ، يمكن أن توجد بمنأى عن تطور أساليب الإنتاج ، كما وجدت فى الحضارات القديمة ، ووجدت فى أعلى مراحلها فى الإسلام !

وأما التطور [أو التغير] الأخلاقى فنحن نرفض ابتداء أن نعلقه بتطور أساليب الإنتاج ! ونحتكم فى ذلك إلى شهادة التاريخ !

ولكنا — قبل المضى فى البحث — نؤكد حقيقة تهدينا إليها الدراسة النفسية ، وهى أنه لا توجد فى الحياة البشرية ظاهرة مستقلة تمام الاستقلال عن الأخرى ! إنما قلت عن التطور النفسى إنه ظاهرة مستقلة إلى حد كبير . ولم أقل منفصلة . لأنه لا انفصال البتة بين شىء وشىء فى الحياة البشرية . الإنسان يمارس حياته بكيانه كله . وهذا الكل الشامل الذى يتكون منه الإنسان يحتوى على جوانب متخصصة ، ولكنها ليست منفصلة . كعملية الإبصار يختص بها الجهاز البصرى ، فلا يبصر الإنسان برجله أو بظهره أو بأذنه . ومع ذلك

لاينفصل الجهاز البصرى عن بقية الجسم وكما توجد فى الجسم أجهزة شديدة التخصص كجهاز الإبصار أو السمع ، فإن فيه كذلك أجهزة أقل تخصصا [أو أوسع نطاقا] كجهاز الدورة الدموية الذى يدخل فى كل أجزاء الجسم . وكذلك الأمر فى الكيان البشرى فى مجموعه : فالتطور فى استخدام الأدوات وأساليب الإنتاج يؤثر فى الحياة البشرية كلها . نعم ولاشك . ولكن التطور النفسى والتطور الخلقى عمليتان شديدتا التخصص كالسمع والإبصار !

وننتقل بعد هذا من الإجمال إلى التفصيل . . .

* * *

حين انتقل الإنسان من أكل الفريسة النيئة إلى الطهو على النار . . إلى استخدام السكين .. إلى التأنق الشديد فى الطعام .. إلى وضع القواعد والآداب والتقاليد بشأنه . . إلى تحويل الطعام إلى « فن » قائم بذاته . .

وحين انتقل من سكنى الكهوف إلى سكنى الأشجار إلى سكنى الأكواخ . . إلى بناء البيوت من الطين . . إلى إقامة العمائر الفخمة ذات الهندسة المتقنة . . إلى التأنق إلى تحويل السكنى إلى « فن » قائم بذاته سواء فى المبنى أو مافى داخل المبنى من الأثاث . .

وحين انتقل من اتخاذ ورق الشجر لباسا إلى اتخاذ الجلد إلى اتخاذ القماش . . إلى التأنق الشديد فى اللبس . . إلى وضع قواعد للملابس وآداب وتقاليد . . إلى تحويل اللبس إلى فن قائم بذاته . .

وحين انتقل من التعبير المباشر عن الجنس . . إلى اتخاذ التقاليد والنظم والقواعد والمراسم والاحتفالات . . إلى التوسع فى مفهوم الجنس ذاته حتى يتحول إلى فن قائم بذاته ، وتنشأ من حوله فنون مختلفة ، فى الأدب والتصوير الموسيقى والنحت والرقص الغناء . .

وحين انتقل فى الملك من تملك الأشياء الفجة إلى تملك الأرض والرقيق . . إلى تملك المصانع . . إلى تملك « رأس المال » كقوة اقتصادية واجتماعية وسياسية . . إلى تملك الأمم والشعوب . . إلى تملك الكواكب فى المستقبل المنظور . .

وحين انتقل من البروز الجسدى الحسى إلى البروز النفسى والبروز الروحى.. وشمل البروز كل الانتقالات السابقة فى المطعم والمسكن والملبس والجنس والتملك . .

وحين انتقل من القتال بالقوة البدنية المباشرة إلى استخدام الحجر الثقيل إلى استخدام الهراوة القاتلة إلى استخدام الأداة المسنونة من سهم أورمح أو سيف . . إلى استخدام البارود . . إلى استخدام الطاقة الذرية . .

ما الذى حدث على وجه التحديد . . وكيف ولماذا حدث ؟

يقول التفسير المادى للتاريخ إن استخدام « الأدوات » هو السبب فى هذا الانتقال . فلولاه لم ينتقل الإنسان من طور إلى طور ، وبالتالى لم يعدل كل حياته على أساس جديد . فلولا اكتشاف النار ما تمكن الإنسان من طهو الطعام. ولولا اختراع النسيج ما تمكن من نسج ملابسه ، وبعد ذلك تفصيلها على قد الإنسان . ولولا استخدام الأدوات ما أمكن البناء .. الخ . ثم — يقول التفسير المادى للتاريخ — إن استخدام الأدوات يحدث تغييرا حتميا فى المشاعر والأفكار والقيم والمبادئ .. فحين اكتشف الإنسان النار فكر أن يطهو الطعام ، وفكر بالتالى فى فنون من تحسين الطعام لم تكن لتخطر على باله لو لم يكتشف النار . وحين اخترع المغزل والمنسج فكر أن ينسج الأقمشة ، وفكر بالتالى فى تفصيل الملابس والتأنق فيها ، ولم يكن شىء من ذلك ليخطر على باله لولا اختراع المغزل والمنسج . وحين أمكنه استخدام الأدوات المسنونة فكر فى استخدامها فى الصيد والقتال . . وحين اكتشف الزراعة فكر فى

تملك الأرض والإغارة على أرض الآخرين وأسر الأسرى واسترقاقهم ليعملوا له فى الأرض .. وهكذا نشأت نتائج اقتصادية واجتماعية وسيكلوجية وأخلاقية حتمية نتيجة اكتشاف الأدوات واختراع المخترعات .. وعلى هذا تصبح الأدوات والآلات هى المحرك الأول والدائم لحياة البشرية !

والقضية بصورتها هذه براقة وخادعة ..

فحين يكون السبب والنتيجة متلاحقين فى سلسلة متصلة ، فإنه تسهل الخديعة ، ويسهل الانخداع ! ويسهل على من يريد ، أن يوحى أو يعتقد أن النتيجة هى السبب والسبب هو النتيجة . .

ولكن هذه القضية « العلمية » التى تناولها التفسير المادى للتاريخ بهذه الصورة، لها وجه آخر «علمى» لايصعب علينا الوصول إليه لو بحثنا الأمر فى هدوء بعيدا عن البريق الخاطف الذى تقدمه « العلوم » « والدراسات العلمية » فى القرن العشرين !

أولا .. لماذا اكتشف الإنسان النار ؟ !

ثانيا .. لماذا استخدمها ـ حين اكتشفها ـ فى « تحسين » الطعام بطهوه؟!

ثالثا .. لماذا لم يقف عند الدرجة التى وصّله إليها اكتشاف النار وهى مجرد طهو الطعام ، فراح يتفنن فى الطعام المطهو درجات بعد درجات ؟ !

رابعا .. حين لان له الحديد والنحاس والبرونز والذهب والفضة ، أى دافع حتمى دفعه أن يتخذ الملاعق والشوك والسكاكين وهى ليست داخلة فى عملية الطعام ذاته كضرورة بيولوجية ، ثم أى دافع حتمى دفعه أن يتخذ من أدوات الطعام هذه أداة للزينة ، فيتفنن فى صنعها ، وتجميلها ، ونقشها ، ثم .. ما علاقة هذا كله « بالقيم » التى اتخذها حول الطعام : سواء فى رسم قواعد له وتقاليد ، أو فى طريقة توزيعه بين الناس ، أو فى التمييز بين الطيب منه والخبيث على غير المستوى الحسى الذى تقرره المعدة .. أى على مستوى الحلال والحرام ؟ !!

وكذلك .. .

لماذا اخترع المغزل والمنسج ؟

لماذا استخدمها ـ حين اخترعهما ـ فى نسج القماش ثم فى « تحسينه »؟

لماذا لم يقف عند حد استخدام النسيج ، فراح يتفنن فى الملبس فيما وراء مستوى الضرورة ؟

وأى علاقة بين هذا التحسين الذى أنتجته الأدوات ، وبين « القيم » التى اتخذها الإنسان حول الملابس ، سواء فى رسم قواعد لها وتقاليد ، أو فى طريقة توزيعها بين الناس ، أو فى ربطها بالقيم الخلقية والدينية ؟!

وحين اخترع الأداة المسنونه ..

لماذا اخترعها بادىء ذى بدء ؟

ولماذا استخدمها فى القتال ؟

ولماذا لم يقف عند الحد الذى وصّلته إليه ، فراح يبحث عن وسائل جديدة للقتال حتى وصل إلى القنبلة الذرية والهيدروجينية وقنبلة الكوبلت وقنبلة الجراثيم؟

وأى علاقة بين هذه الأدوات كلها وبين « القيم » التى ربطها الإنسان بالحرب ، سواء فى تحليلها وتحريمها ، أو وضع قواعد لها وتقاليد ؟!

وحين وحين وحين ..

ألا توجد من وراء ذلك دلالة .. واضحة ؟ !

هل الآلة هى التى وجهت الإنسان ؟ أم الإنسان هو الذى وجه الآلة ؟!!

لن نضع القضية هنا كما توضع تلك الأحجية المشهورة : البيضة قبل الفرخة أم الفرخة قبل البيضة ؟!

فالقضية التى بين أيدينا هنا ليست أحجية ، وليستْ فى حاجة إلى التمحل والروغان !

إن الحيوان ، زميل الإنسان فى سكنى الأرض، وزميله ـ فى رأى الداروينية ـ

فى كثير من الخصائص ، وفى الأصل المشترك ، لم يكتشف ولم يخترع على طول مقامه فى هذه الأرض !

فالاكتشاف والاختراع إذن مزية بشرية فى صميم فطرة الإنسان.. تلك بديهية.

يقول چوليان هكسلى — العالم الداروينى الحديث — فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث » :

« وأولى خصائص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحا قدرته على التفكير التصورى .. ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية فى الإنسان نتائج كثيرة ، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة .. ومن أهم نتائج تزايد التقاليد — أو إذا شئت من أهم مظاهره الحقيقية — ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات .. وإن التقاليد والعدد لهى الخواص التى هيأت للانسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية . وهذه السيادة البيولوجية — فى الوقت الحاضر — خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة .. »[1]

وهذا العالم — كما بينا فى كتب سابقة — عالم ملحد ، لا ينسب إلى الله شيئاً من عملية الخلق ، ولكنه يثبت للإنسان تلك المزية أو المزايا المتفردة : قدرته على التفكير التصورى .. وقدرته على استخدام العدد .. وميله وقدرته على تحسين ما لديه من عدد وآلات .. وإقامة التقاليد وتنميتها . . ويسمى ذلك كله خواص بيولوجية أى .. فى صميم الفطرة البشرية .

إنها لم تنتج إذن من استخدام العدد والآلات .. وإنما هى التى أنتجت استخدام العدد والآلات !

لقد تبين لنا إذن — من البحث « العلمى » لا من الفلسفة النظرية — وجه الصواب فى القضية الشبيهة بأحجية البيضة والفرخة ! إن «الإنسان» هو الأصل. هو المنبع . وليست هى العدد والآلات !

(1) ترجمة حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر فصل « تفرد الإنسان » مقتطفات ص ٣-٥

الإنسان ـ بادىء ذى بدء ـ هو الذى اتجه إلى الاكتشاف والاختراع !
لماذا ؟ !

يقول هكسلى الملحد : إن تلك خاصية بيولوجية للإنسان ! أى أنها تحمل فى ذاتها تفسيرها !

ونقول نحن ـ ولا يتعارض ذلك مع « العلم » وإنما يكمله ويقوّمه من انحرافه ـ إن الله الذى خلق الإنسان ليجعله خليفته فى الأرض ، هو الذى منحه هذه الخاصية ، لأنها وسيلة من وسائل الخلافة وأدواتها ، وإن الله هو الذى قيض للانسان اكتشاف النار ـ لا المصادفة ! ـ بأن أودع فى فطرته الالتفات إلى ظواهر الطبيعة ، « وتصورها » والاستفادة منها . وإلا فالمصادفة التى أحدثت النار أمام الإنسان ، فالتقط منها الفكرة واستخدمها ، تحدث ملايين المرات أمام الحيوان فلايدركها ولا يتصورها ولا يلتقطها ليستخدمها .

وإذن فقد أودعت الفطرة الإنسانية القدرة على التصور ، ومن ثم القدرة على الاكتشاف والاختراع ، ومن ثم القدرة على استخدام الآلات . . والقدرة على تحسين الآلات .. كما أودعت فى الوقت ذاته مايسميه هكسلى « بالتقاليد » ونسميه نحن « القيم » والقدرة على ربط الأعمال — بما فيها استخدام الآلات — بقيم نفسية واقتصادية واجتماعية وخلقية ودينية .

وهذا هو الذى يفسر لنا كل الأسئلة التى قدمناها منذ قليل . .

لماذا اكتشف الإنسان النار ؟ لماذا استخدمها — حين اكتشفها — فى تحسين الطعام بطهوه ؟ لماذا لم يقف عند الدرجة التى وصله إليها اكتشاف النار ؟ لماذا أنشأ حول الطعام قيما مختلفة وأدابا وتقاليد ؟

أما اكتشاف النار — كحادثة مادية وكأداة مادية — فلا يفسر شيئاً مما يريد أن يفسره به التفسير المادى للتاريخ !

لقد كان من الممكن — بادىء ذى بدء — ألا يكتشف الإنسان النار لولا

ماركب فى فطرته من القدرة على التفـكير التصورى . وكان من الممكن — حين اكتشفها — ألا يستخدمها فى طهو الطعام [إذ ما الذى يدفعه إلى ذلك بصورة حتمية ؟ !] وكان من الممكن — حين استخدمها فى طهو الطعام — أن يقف عند هذا الحد فلا يتفنن تفننا فى الطعام . وكان من الممكن أخيراً ألا يصوغ حول الطعام قيما وآدابا وتقاليد ! !

كلا ! لم تنشىء النار شيئاً من ذلك كله ! لولا الرغبة الفطرية الـكامنة ، السابقة فى وجودها على النار ! ! القدرة الفطرية على التفـكير التصورى هى التى مكنت الإنسان من اكتشاف النار [وهى موهبة الله للإنسان] . ثم الرغبة الفطرية فى التحسين والتجميل هى التى قامت ببقية المهمة فى خط طويل على مدار التاريخ !

وتلك عقدة القضية . . ومفرق الطريق !

* * *

هل معنى ذلك أن الآلة لم تغير شيئاً فى حياة الإنسان ! ؟

كلا ! لانقول ذلك ! ولايمكن أن يقوله إنسان !

إن صورة الحياة قبل اكتشاف أية أداة أو اختراع أية آلة تختلف اختلافا — جزئيا أو كاملا — عن صورتها بعد الاختراع أو الاكتشاف . إذ تستجد للناس أفـكار جديدة وعلاقات جديدة ومشاعر جديدة وتنظيمات جديدة [سنتحدث فى الفقرة التالية عن التطور الاجتماعى والاقتصادى] .

فبعد اكتشاف النار حدث تطور هائل فى الأرض . وبعد اختراع المحراث . وبعد اكتشاف البارود . وبعد اكتشاف الـكهرباء . . .

ونحن — كما قلنا — نريد أن نبرز هذا التطور ونؤكد عليه . . لأنه — من وجهة نظرنا — حقيقة « إنسانية » !

إنما الأمر الذى نريد أن نناقشه هو هذا : هل الآلة أنشأت جديداً فى كيان الإنسان ، أم إنها حققت رغبات كامنة فى فطرة الإنسان ؟ !

والفرق — لعله — واضح بين الوضعين . وهو فارق كبير .

فحين تنشىء الآلة جديدا فى كيان الإنسان ، تكون الآلة حقا هى الأصل فى التطور كما يرسمها التفسير المادى للتاريخ . وحين تحقق رغبات كامنة فى فطرة الإنسان يكون الإنسان هو الأصل كما يرسمه التفسير « الإنسانى» للانسان[1] !

النار . . هل هى التى أنشأت الرغبة فى طهو الطعام ؟

فى ظاهر الأمر يبدو ذلك ! ولكن أية قوة حتمية فى النار تدفع الإنسان إلى طهو الطعام عليها ؟ !

إن القصة يمكن أن تُتصور على هذا النحو : أنه وقع فى تجارب الإنسان — بما يسمونه المصادفة ، ونرده نحن إلى حقيقته « العلمية » وهى قدر الله ومشيئته — أن شبت النار قريبا من الفريسة أو وضع الفريسة قريباً من النار فنضجت فأعجبته رائحة الشواء واستطعم طعمه، بما فى فطرته من استعداد وتقبل لهذه الرائحة وذلك الطعم . ثم راح — بما فى فطرته من التفكير التصورى — يستعيد العملية ليحصل على نفس النتيجة .

وفى كلا الحالين لم تكن الأداة المستحدثة — وهى النار — هى التى أنشأت الأمر فى باطن النفس ، وإنما هى حققته . حققته فى عالم الواقع بعد أن كان كامنا فى باطن النفس .

وتغيرت صورة الحياة — فى ميدان الطعام — بعد اكتشاف النار . فقد هيأت الأداة المستحدثة فرصا متزايدة لألوان من الطعام جديدة ، و « فنون » مستحدثة .

---

(١) انظر فصل « التفسير الإنسانى للإنسان » فى كتاب « دراسات فى النفس الإنسانية »

نعم . ولـكن هل كان فى وسع النار — بإمكانياتها المستحدثة — أن تصنع شيئاً من ذلك كله لولا أن نفس الإنسان قد استطابت ذلك وأنست إليه ورغبت فيه ؟ !

لو أن النار أعطت الطعام طعما لا يستسيغه الإنسان . . هل كان يقبل عليه ؟

ومن ناحية أخرى . . لولا الرغبة الدفينة فى « تحسين » الطعام ، هل كان يستخدم النار فى هذا السبيل ؟

إن النار قد أعطت الإنسان إمكانيات جديدة حافلة . . ولـكنها إمكانيات لأى شىء ؟ ! إمكانيات لتحقيق رغبات كامنة فى الفطرة ، تنتظر الفرصة المواتية للتحقيق !

وقد لا تـكون الفطرة واعية لتلك الرغبات فى كل حالة ! وهذا هو الذى يؤدى إلى الخديعة الأولى فى فهم الموضوع !

قد لا يكون الإنسان الأول واعيا لـكون النار ستعطيه طعوما شهية مستساغة . وقد لا يكون اكتشف هذا الأمر إلا بعد أن جربه بالفعل . ولـكن . . حتى على هذا الفرض ، فالمرجع الأخير هو الفطرة . إن المحاولة والخطأ طريقة من طرق التعلم والمعرفة عند الإنسان وعند الحيوان . ولـكنها فى الحالين تصطدم فى النهاية بفطرة الحيوان أو فطرة الإنسان .. ولا تتعداها . فقد استساغ الإنسان صنوفا من الطعام ولم يستسغ صنوفا أخرى والنار هى النار ! أى أن ميدان استخدام النار ومدى استخدامها يسيران على خط الفطرة ، ولا يغيران هما شيئاً من حقيقة الفطرة على مدى التاريخ .

وإنما جاءت الخديعة الأخرى من اتساع الفطرة الإنسانية . . حتى خيل لبعض الناس أنه لا حدود لها ، ومن ثم فلا قيمة حقيقية لوجودها ما دامت تتسع لـكل شىء ! !

كلا ! إن اتساعها لا يلغى حقيقتها ، ولا يلغى دلالتها !

إنها تسع أشياء كثيرة ولـكنها لا تتسع لـكل شىء فلها — فى النهاية —

خطوطها الأخيرة التى تصطدم بالأشياء وترفضها ، وتصر على رفضها مهما كان الضغط الواقع عليها ، فلا تقبل أشياء ليس لديها الاستعداد الفطرى لتقبلها .

وهنا الخديعة الثالثة! الناشئة من مرونة الفطرة ! إنها — لمرونتها الشديدة — تحتمل كثيراً من الضغط الواقع عليها من شىء يخالف طبيعتها . ولكنها من ناحية لاتحتمل كل شىء ومن ناحية أخرى لاتحتمله إلى الأبد ! وإنما تحتمل بعض الأشياء . . وبعض الوقت ، ثم تثور فتلفظ مالا تسيغه ولا تستريح إليه . لقد ثارت على الدكتاتوريات لأنها تكبت الوجود الفردى للإنسان . وثارت على ملكية الدولة لأنها تكبت النزعة الفطرية للملكية الفردية . وثارت — كما سيجىء — على كثير من ألوان الانحراف .

وتلك هى الحقائق التى غابت عن التفسير المادى للتاريخ ، والتفسير الجمعى للحياة البشرية !

إنهما كلاهما يرصدان التاريخ من خط الخنوع والاستسلام للقوى القاهرة . ولكنهما لايرصدانه من خط الثورة على تلك القوى وتدميرها وإزاحتها !

والحقيقة العلمية النزيهة من الغرض ، ينبغى أن ترصد التاريخ من خطيه . لأن كلا خطيه حقيقة . . ترسمه من خط الخنوع وخط الانتفاض : خط السلبية وخط الإيجابية . . وكلاهما موجود وفطرى فى كيان الإنسان !

* * *

من هذه المرحلة من المناقشة نصل إلى مجموعة من الحقائق :

أن الفطرة هى الأصل فى تصرفات الإنسان .

أن الأدوات والآلات المستحدثة هى فى ذاتها تعبير عن الفطرة [من حيث القدرة على التفكير التصورى والرغبة فى التحسين] .

وأنها — وهى تعبير فى الأصل عن الفطرة — تسير على هدى الفطرة فى تطبيقاتها العملية [من حيث تحقيقها لرغبات الإنسان]

وأنها ـ فى تطبيقاتها العملية ـ لاتنشئ جديداً فى كيان الإنسان ، و إنما تحقق ما كان كامنا من قبل فى ذلك الكيان .

وأنها تغير صورة الحياة تغييراً شاملا .. ولكن التغير ذاته يحدث استجابة لمطالب الفطرة ، ويقع فى حدودها لايتعداه .

تلك الحقائق الخمس وما تستلزمه من حقائق أخرى فرعية يمكن التحقق منها بسهولة فى جميع ميادين النشاط الإنسانى . ولا نحتاج أن نتتبع خطوط الفطرة جميعها لنتثبت من هذه الحقيقة، ولكنا نضرب بعض الأمثلة للتوضيح والتوكيد:

لم يكن اختراع الطائرة هو الذى أنشأ الرغبة فى السفر السريع والتنقل بين جهات العالم . وإنما الأحرى أن تكون هذه الرغبة الكامنة هى التى أوحت باختراع الطائرة ، حين وجدت الإمكانيات العلمية التى تهيئ الفرصة للتحقيق العملى لهذه الرغبة .فمن قبل ظل الإنسان يزيد سرعته فى السفر بمختلف الوسائل لأنه يرغب فى ذلك ، وكان يحلم — حين يعجز عن التنفيذ العملى — بوسائل خاطفة تنقله فى لحظة من مكان إلى مكان ! فالطائرة [ومن بعدها الصاروخ] هى تحقيق الحلم البشرى القديم الذى كان يخايل للبشرية وتتمنى تحقيقه . .

وصحيح أن هذه الرغبة حين تحققت باختراع الطائرة قد أوجدت إمكانيات جديدة لم تخطر على البال — فى صورتها التفصيلية — من قبل . إمكانيات فى السلم وإمكانيات أخرى فى الحرب . وترتب على هذه الإمكانيات المزدوجة إعادة تشكيل علاقات البشرية فى السلم وفى الحرب على نسق جديد . . وصوغ مشاعرهم وأفكارهم على نسق جديد . .

هذه حقيقة تنطبق على كل اكتشاف أو اختراع جديد . . فهو يهيئ إمكانيات لم تكن منظورة من قبل بالتفصيل .

ولكن الرغبة العامة تسبق دائمًا كل اختراع جديد . . فالمخترع لايقول سأصنع اختراعا ما — أى اختراع — ثم أبحث عن وسيلة للاستفادة منه . وإنما

هو يقول :أنا — أو نحن البشر — نريد آلة تصنع كذا . فلأحاول اختراعها!

خط البحث العلمى وحده هو الذى يبدو أنه ينشئ نفسه بنفسه . كل خطوة تؤدى إلى مابعدها بطريقة حتمية (!) لاهدف وراءها ولا أغراض ! كلا ! ليس حقيقة ! إنما وراءها الرغبة الفطرية فى المعرفة ! هى التى تدفع البحث العلمى وهى التى تغذوها . والإنسان لايتدخل فيما يصل إليه البحث العلمى من قوانين لأنها لاتقع تحت سلطانه لا لأنه لايرغب فى ذلك ! إنها نواميس كونية ليس من شأنه — ولا فى طوقه — أن يتدخل فيها أو يغير منها . فهى ملك الخالق الذى خلقها ويسيطر عليها. ولكن الإنسان يتدخل فى التطبيق العملى لنتائج البحث العلمى . . أى لنتائج كشفه عن النواميس الكونية [التى أعطاه الله القدرة على كشفها وتسخيرها : «وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعاً منه »[1]] وهو فى تدخله يحاول أن يجعل التطبيق العملى فى خدمة أهدافه ورغباته القائمة فى نفسه من قبل ، والتى تنتظر الفرصة المواتية للتطبيق .

وحين يفتح الكشف أو الاختراع الجديد آفاقا جديدة لم تخطر بتفصيلها فى بال الإنسان من قبل ، فإنه على الدوام يسعى لتحقيق رغبة عامة من رغبات الفطرة ، كالرغبة فى القوة . والرغبة فى السيطرة . والرغبة فى الخلود . والرغبة فى استشفاف الحجب والرغبة فى البروز .والرغبة فى الملك. .إلى آخر هذه الرغبات. ولكنها لاتستجد فكرة ولاشعوراً لايقع تحت واحدة من هذه الرغبات العامة الموجودة فى الفطرة من قبل[والمقدورة من لدن خالقها حين خلقها ووهبها إمكانيتها]

ومن ثم « فالتطور » الذى يحدثه الاختراع أو الاكتشاف الجديد فى نفس الإنسان هو التنمية الدائمة للرغبات الفطرية الموجوده من قبل فى حالة كامنة، بإعطائها فرصة التحقق الدائم على نطاق أوسع وأشمل وأدق . وليس هو إنشاء الرغبات الفطرية من حيث لاتكون !

---

(١) سورة الجاثية [١٣] :

والتنمية شيء والإنشاء شيء آخر . .

الطفل يولد مكتمل الكيان ولكن فى حالة كامنة . . ثم ينمو . . فيتحقق بالتدريج كيانه ، ولكن لاينشأ فيه شيء جديد . لاتنشأ له قدم ولا ساق ولا أذن ولا عين . . فهذه موجودة من قبل ، ولكنها غير مستكملة التحقق . . والنمو يحققها حتى تصل إلى آخر مداها . فالتطور هنا هو النمو . . وليس هو النشوء من اللاوجود !

وذلك ينطبق على كل كشف وكل اختراع جديد .

فالمحراث الذى قلب ظهر الأرض وقلب تاريخ البشرية ، كان ولاشك رغبة كامنة فى نفس مخترعه ، ليحقق به رغبة أو مجموعة من الرغبات الفطرية . وإلا ما أجهد نفسه فى اختراعه ! واكتشاف البارود ليس هو الذى أنشأ الرغبة فى التدمير ولا الرغبة فى القتل على نطاق واسع . وإنما هو أعطاها الإمكانيات للتنفيذ . ولكنها كانت موجودة من قبل ، ومتحققة فى النطاق الصغير . . وفى الخيال كانت تداعب الأحلام !

وهكذا .. لايحدث شيء خارج نطاق الفطرة . المحدود محدود . أياً كانت سعة هذه الحدود !

* * *

وصلنا من بحثنا للنوع الأول من أنواع التطور ــ وهو تطور الأدوات وأساليب الإنتاج ــ إلى أنه تحقيق للفطرة وليس تغييراً للفطرة . . تحقيق لها بتنمية إمكانياتها العملية على الدوام . . وهذا يزيد مساحتها ، ويعيد تشكيلها على الدوام فى أشكال جديدة ، ولكنه لا يضيف إليها عنصراً لم يكن موجوداً فى جوهرها إما فى صورة بدائية وإما فى صورة كامنة . . وفرق بين التنمية والتشكيل فى حدود الإطار الموجود بالفعل ، وبين استحداث أمر جديد فى ذلك الإطار . كما وصلنا إلى أن هذا اللون من التطور يسير على هدى الفطرة ويتتبع خطوطها ، فالفطرة

دائماً من ورائه تحدوه ، وإن كان هو بدوره يقوى إمكانيات الفطرة . . ولكنه يقويها لأنها هى - من الأصل - راغبة فى التحقق والتمكن والقوة عن هذا الطريق . . فالأمر لا يعدو الفطرة فى نهاية المطاف .

والآن ننتقل إلى اللون الثانى من التطور ،وهو التطور الاقتصادى والاجتماعى والسياسى فى حياة الإنسان .

التطور الاقتصادى والاجتماعى والسياسى هو الميدان الرئيسى لنشاط التفسير المادى للتاريخ ! فقد جال فيه وصال ليقول إنه ينشأ عن تطور أساليب الإنتاج . وإن تطور أساليب الإنتاج هو السبب الأوحد فيه !

حين اكتشف الإنسان الزراعة تغير وجه الأرض . .

فقد استقر الإنسان فى الأرض ليزرع وينتظر نتيجة الزرع ، بعد أن كان جوالا يبحث عن المرعى والصيد. وكان الاستقرار نتيجة حتمية . . وحين استقر كان لا بد له من تنظيم اجتماعى ، ينظم علاقات أولئك المستقرين فى بقعة واحدة من الأرض بصفة دائمة . . وكان هذا التنظيم نتيجة حتمية . . ونشأت علاقات اقتصادية محدودة نتيجة لعملية الزراعة ، فهناك محاصيل تنتج ، تفيض عند بعض الناس عن حاجتهم ، وتنقص عند آخرين ، فلا بد من التبادل بين الفريقين . . وكان هذا نتيجة حتمية . . ثم حدثت المنازعات على الأراضى والإنتاج من ناحية ، وإغارات الأقوام بعضهم على بعض للاستيلاء على الأرض المنزرعة من ناحية أخرى، فاستلزم ذلك وجود نوع من الحكومة يفض المنازعات من ناحية، ونوع من القوة المحاربة تصد الإغارات من ناحية أخرى . وكان هذا التشكيل السياسى والحربى نتيجة حتمية . . ووجد الرقيق ، من نتيجة الحرب ، وصار عملة اقتصادية واجتماعية وسياسية صاحبت المجتمع الزراعى فترة طويلة جداً من الزمان. ووجد الإقطاع كتنظيم اقتصادى واجتماعى وسياسى . . وكان ذلك كله نتيجة حتمية .

ثم اخترع الإنسان الآلة . . وتغير وجه الأرض من جديد . .

نشأت المصانع فى المدن . واحتاجت إلى رجال أشداء يديرونها . وكان هؤلاء فى الريف ، مستعبدين فى الأرض ، فكان لا بد من تحريرهم من عبودية الأرض ليديروا الآلة ، فحدثت حركة تحرير الرقيق . . وكانت نتيجة حتمية . ثم تكتل العمال فى مصانع المدن ، وأخذ رأس المال ينمو فتنشأ طبقة استغلالية جديدة مصاحبة فى مبدأ الأمر ثم مناوئة لطبقة الإقطاع . . وكان ذلك نتيجة حتمية [وتغيرت أخلاق المجتمع ومفاهيمه نتيجة انتقاله من الزراعة إلى الصناعة كما أشرنا إلى ذلك من قبل] وحدث صراع سياسى بين الطبقات المستغِلة والطبقات المستغَلة على التشريع والتوجيه ، لخدمة مصالح كل طبقة .. وكان ذلك نتيجة حتمية . وما زال هذا الصراع قائماً ، ويقول التفسير المادى للتاريخ إنه لا بد أن يؤدى إلى نتيجته الحتمية ، ثم تختلف التفسيرات ــ أو المذاهب ــ فى أمر هذه النتيجة ، فيقول مذهب إنها الشيوعية ، ويقول مذهب آخر إنها الاشتراكية ، ويقول مذهب ثالث إنها التعاونية . . ويقول الجميع إنهم ديمقراطيون !

صورة ــ فى هذا الوضع ــ منطقية ، مرتبة ، منظمة ، مُقنعة !

ومع ذلك فعند التمعن فيها تتبدى فيها جملة ثقوب !

إنها أولا تفسر كل تطور اجتماعى واقتصادى وسياسى بتغير أساليب الإنتاج فحسب . وقد مر بنا صراحة ماركس وإنجلز فى هذا الأمر إنهما يقولان فى وضوح كاف : « فأسلوب الإنتاج فى الحياه المادية هو الذى يعين الصفة العامة للعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة . ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم ، بل إن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم . » [ماركس] .

« إن الإنتاج وما يصاحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى . فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغييرات والتحولات الأساسية يجب البحث عنها لا فى عقول الناس أو فى سعيهم وراء

الحق والعدل الأزليين ، وإنما فى التغييرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل » [إنجلز] .

وعلى ذلك لا توجد فى نظرهما أية أسباب أخرى غير تطور أساليب الإنتاج. إنهما ـ مثلا ـ لا يقيمان وزناً لعملية النمو الطبيعية فى بنية النفس والمجتمع ! النمو الذى يعتبر تطور أساليب الإنتاج مظهراً واحداً من مظاهره . . فالنفس كما تنمو بتحقيق إمكانياتها العملية عن طريق العدد والآلات ، وتحسينها ، كما يقول چوليان هكسلى، تنمو كذلك بتحقيق إمكانياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . . الكامنة فى فطرتها .

يقول هكسلى فى كتاب « الإنسان فى العالم الحديث » :

« وهذه الخواص التى امتاز بها الإنسان ، والتى يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوجية ، تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية :

« الأولى : قدرته على التفكير الخاص والعام .

« الثانية : التوحيد النسبى لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان .

« الثالثة : وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والكنيسة وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها »(١)

إن وجود التنظيمات الاجتماعية والسياسية والدينية والخلقية والاقتصادية هو إذن خاصية من الخواص النفسية للإنسان ! إنها فى صميم فطرته، لم تنشئها أساليب الإنتاج كما يبدو لأول وهلة على هدى التفسير المادى للتاريخ . وإنما تطور أساليب الإنتاج يمكن أن يعطيها صوره معينة . وفرق — كما بينا مرارا من قبل — بين الإنشاء والتشكيل . فرق واضح وكبير . فحين تكون النفس هى الأصل ، ففى

(١) الإنسان فى العالم الحديث ص ٣٢ من الترجمة العربية .

وسعها — نظريا على الأقل ! — أن تتشكل بأكثر من صورة. أما حين تكون أساليب الإنتاج هى الأصل فهى إذن تعطى صورة حتمية لافكاك منها ! وسنرى بعد قليل أن هذه الفرصة النظرية كانت حقيقة ، وحقيقة ضخمة فى حياة البشرية يعجز عن تفسيرها كل تفسير مادى للتاريخ ! ولكننا لا نريد أن نسبق الحديث!

إن التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية .. الخ خاصية نفسية للإنسان . ومن ثم فهى تخضع لفطرة الإنسان فى النمو . والنمو خاصية نفسية بيولوجية لا تحتاج إلى تفسير من خارجها ! [إلا القول بأنها موهبة من الخالق] . وحقيقة إن النمو يحتاج إلى غذاء . ولكن ليس حقيقة أن الغذاء هو الذى ينشىء خاصية النمو ! إنما الغذاء يتيح فقط الإمكانيات العملية لهذه الخاصية الكامنة فى الفطرة .

ومن ثم فإن نمو التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية وتعقدها خاصية فطرية فى الإنسان. وهى تتواكب مع نمو أساليب الإنتاج لا كسبب ونتيجة ، ولكن كقوتين متواكبتين تستمدان
وجود علاقة السبب والنتيجة بين الجزئيات .
فلا يمكن اعتبار أساليب الإنتاج فيه سببا للتطور
هن اعتبار التطور الاجتماعى والاقتصادى سببا ف
أن نتصورهما — على حقيقتهما — قوتين متوا ـــ
المشترك فى الفطرة البشرية !

وإلا .. فكيف نغفل أن الضرورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية قد أدت إلى استحداث أساليب متطورة للإنتاج تناسب الوضع القائم، بنفس الصورة التى تؤدى بها تطورات الإنتاج إلى استحداث تنظيمات اجتماعية واقتصادية ؟ !

وكيف نغفل قبل ذلك أن « الحاجات البشرية الفطرية » هى الدافع وراء هذا التطور وذاك فى نفس الوقت ؟ !

إن الرغبة ـ الفطرية ـ فى الاجتماع بالآخرين هى التى أنشأت « المجتمع » بادىء ذى بدء ـ فى أية صورة من صوره ـ لتلبية تلك الرغبة العميقة فى نفس الفرد .

وحين نشأ المجتمع ـ فى أية صورة من صوره ـ تعددت حاجاته ونمت ، بحكم الفطرة التى أنشأته من قبل ، بما أودعها خالقها من طاقات واستعدادات واتجاهات . « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فنمو « الإنسان » إلى شعوب وقبائل هو العمل الحتمى الناشىء من إرادة الله ، والمنفذ عن طريق الفطرة التى خلقها الله وأودعها هذا الميل والقدرة على تحقيقه . وليس ناشئا من تطور أساليب الإنتاج ، ولا أى ضرورة أخرى « خارج » النفس البشرية .

وخاصية النمو ، التى تنمى الطفل حتى يبلغ أشده ، وهى خاصية بيولوجية ، أى فى صميم الفطرة ، هى ذاتها التى تنمى المجتمعات الصغيرة إلى مجتمعات كبيرة. فتنمى العشيرة إلى قبيلة ، والقبيلة إلى أمة .. وهكذا. وتنمى العلاقات بين الناس من علاقات بدائية صغيرة مباشرة إلى علاقات معقدة كبيرة غير مباشرة .. وفى أثناء ذلك تجىء أساليب الإنتاج المتطورة فتحتل مكانها من الصورة ، «وتلبس» فى حيزها ، قوة متفاعلة مع السياق كله ، آخذة ومعطية فى ذات الوقت ، ومتجهة فى اتجاه الفطرة الكبير . . فى اتجاه النماء . ويتبادل تطور الإنتاج وتطور المجتمع علاقة السببية من طرفيها ، فتارة يكون تطور الإنتاج هو السبب فى تطور المجتمع ، وتارة يكون تطور المجتمع هو السبب فى تطور الإنتاج . . وفى النهاية يكون المصدر هو الفطرة المتصفة بخاصية النماء !

اختراع الآلة هو السبب فى وجود المجتمع الصناعى . ولكن رغبة البشرية فى « القوة » من ناحية ، ورغبتهم فى زيادة الإنتاج لتيسير كل حاجات المجتمع من ناحية أخرى هى السبب فى اختراع الآلة ! ووراء هذا وذلك الفطرة البشرية المشتملة على القدرة على استخدام العدد والآلات ، والرغبة فى تحسين العدد والآلات!

ثم هناك نظم اجتماعية مثل الزواج والأسرة لم تنشأ من تطور أساليب الإنتاج . فهى نمو اجتماعى بحت . وجد فى مجتمع الصيد فى ظلمات التاريخ ، ووجد فى المجتمع الرعوى ، والمجتمع الزراعى والمجتمع الصناعى . وعلى الرغم من الانهيار « الإنسانى » الذريع الذى يعانيه الناس فى القرن العشرين ، فيدمر فطرتهم تدميرا [سنتحدث عن هذا فيما بعد] فما زال الزواج والأسرة نظامين « طبيعيين » تحدث النظم الأخرى [الإباحية والتحلل] إلى جانبها كشذوذ يصيب البشرية بالدمار لا « كتطور » يهدف إليه العقلاء ، أو يرتاح إليه العقلاء ! وإن الدعوى المزيفة التى أقامها دركايم ، حين زعم أن الزواج والأسرة ليسا من الفطرة ، لهى زعم لم يقم صاحبه عليه أى دليل [وسنعود إلى ذلك فى الفصل القادم بالتفصيل]

إن تطور أساليب الإنتاج إذن ليس هو السبب الوحيد للنمو الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، كما زعم ماركس وإنجلز وغيرهما من هواة التفسير المادى للتاريخ . وإنما هو واحد من أسباب !

وحقيقة إن تطور أساليب الإنتاج يحدث تغيرات فى صورة الحياة البشرية . ولكنها ليست حتمية . وأوضح الأمثلة على ذلك وأقربها أن أساليب الإنتاج فى القرن العشرين واحدة فى الأمم الكبرى . ومع ذلك فهى فى الغرب تصاحب الرأسمالية وفى الشرق تصاحب الشيوعية ! على بعد ما بين هذه وتلك فى شكل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية !

بل الأدهى من ذلك أن روسيا ـ الشيوعية ـ قد أخذت أساليب الإنتاج المادى عن أوربا الرأسمالية ! فقد كانت خارجة من الإقطاع والظلام والجهالة فى ظل القيصرية ، بغير تجربة فى عالم الصناعة ، وبغير أدوات صناعية ذات بال ، فلما أنشأت نظامها على مذهبها الفكرى الخاص ، وقررت إحداث حركة صناعية ضخمة ، استخدمت أساليب الإنتاج المتقدمة الموجودة لدى أوربا الرأسمالية ، ولكنها أعطتها أهدافها هى ، وقيمها ومبادئها ! فحيث تستخدم هذه الأساليب

فى الغرب لتوكيد فردية الإنسان ، استخدمتها روسيا لإلغاء فردية الإنسان وتوكيد صفته الجماعية ! فألغت الملكية الفردية ، والأحزاب السياسية المتعددة ، و « ديمقراطية » الحكومة ، وأعلنت « دكتاتورية » البرولتياريا !

بل الأشد سخرية من ذلك أن ماركس ــ وهو يتصور على هواه خطوات التاريخ الحتمية ، المبنية على حتمية مراحل النمو الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، المترتبة بدورها على تطور أساليب الإنتاج ــ قد افترض أن الشيوعية ستبدأ فى غرب أوربا ، وفى إنجلترا بصفة خاصة كنتيجة حتمية للتقدم الصناعى والصراع الطبقى بين العمال ورأس المال ! فكانت النتيجة الحقيقية [غير الحتمية] ! أن قفزت روسيا من الإقطاع إلى الشيوعية مباشرة ، متخطية خطوة الرأسمالية [الحتمية ! !] و بقيت انجلترا رأسمالية إلى هذه اللحظة !

ومن ناحية أخرى فإن التغير فى صورة الحياة البشرية — فى الميدان الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ــ قد لا يقوم على تطور أساليب الإنتاج على الإطلاق! ومثال ذلك هو الإسلام !

« أية قوة مادية . . أية تغيرات فى أساليب الإنتاج . . فى الجزيرة العربية أو فى العالم أجمع .. هى التى أدت — بصورة حتمية — إلى ظهور محمد بن عبد الله — صلى الله عليه وسلم — يدعو إلى هذا الإسلام ويبشر بالدين الجديد ؟

« يقولون إن العرب فى الجزيرة كانوا قد استنفدوا طور « القبيلة » وأخذوا يتطلعون لأن يكونوا أمة . . فكان ظهور محمد صلى الله عليه وسلم أمراً طبيعياً متمشيا مع طبيعة الأحداث ، ومستجيبا لحتمية التطور .

« ومع ما فى هذا القول من التجوز ، فسنسلم به توفيرا للجدال !

« من قبيلة إلى أمة . . معقول !

« ولكن هل كان الإسلام دين « الأمة العربية » ! ؟

« كيف وهو يقول — فى مكة — قبل الذهاب إلى المدينة ، وقبل تأسيس

الدولة ، وقبل اجتماع الأنصار ، وقبل تجميع القوى المادية والقدرة التنفيذية . . قبل أن يؤمن به أحد إلا بضعة نفر مشردين فى الشعاب ، ومطاردين من الأهل والخلان ، هائمين بغير مستقر ولا حماية ولا أمل فى الغد القريب فضلا عن الغد البعيد . . كيف وهو يقول فى هذه الظروف عن القرآن الكريم : « وما هو إلا ذكر للعالمين » فى سورة « القلم » من أوائل مانزل من القرآن الكريم . وفى سورة سبأ المكية ماهو أصرح فى هذا المعنى . ذلك قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » . وكذلك آية الأعراف المكية : « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » ؟

« ثم هل كان الإسلام دين « الأمة العربية » ونبى الإسلام يقول: « الناس سواسية كأسنان المشط . لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ؟

« أهى دعوة لتكوين أمة ، أم دعوة إلى « الإنسانية » عامة من أول خطوة فى الطريق ؟

« فهل كذلك الحتمية التاريخية يا هواة التفسير المادى للتاريخ ؟ من القبيلة إلى الإنسانية قفزة فى سنوات ؟!

« وتتكون الأمم من القبائل .. فهل مجرد هذه الخطوة يعدل النظم الفكرية والعقيدية والاجتماعية والاقتصادية . . دون تغير مادى ، ولا تحول فى أساليب الإنتاج ؟

« منطق البيئة لم يكن هو المنطق الذى أتى به الإسلام.. بل لقد قام الصراع طويلا – جداً – بين منطق البيئة ومنطق الإسلام ، حتى تغلبت العقيدة الجديدة بما فيها من قوه ومن عناصر خير غلابة ، فقهرت منطق البيئة وأجلته من النفوس .

« كان منطق البيئة يحتقر المرأه ويضعها فى مكانة تشبه مكانة السائمة والحيوان . . توأد أحياناً وهى وليدة . وتستقبل بالابتئاس والغيظ . وتذل وهى فتاة . « وتمتلك » وهى زوجة كما تمتلك الأشياء . ولم تكن المرأه ذاتها تسخط

على هذا الوضع ، ولا كان هناك من يطلب لها وضعا غيره من الرجال . لا في الجزيرة العربية ، ولا في أي مكان في الأرض .

« وجاء الإسلام يقول : « فمن عمل صالحا من ذكر أو أنثى — وهومؤمن — فلنحيينه حياة طيبة » « فاستجاب لهم ربهم : أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض » .

« وجاء يقول : « عاشروهن بالمعروف » ويجعل لهذا المعروف قواعد وتشريعات وتوجيهات .

« وجاء يعطيها — إلى جانب المساواة في الإنسانية ، والمساواة عند الله — حق الملك والتصرف : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون » « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » وهو حق لم تعطه فرنسا لنسائها إلا في القرن العشرين .

« وكان منطق البيئة هو منطق الغلبة لصاحب القوة لا لصاحب الحق ، ولم يكن تحول العرب إلى أمة بطريقة ـ حتمية ـ ليغير هذا المنطق ، فكم من أمة يسود فيها هذا المنطق إلى هذه اللحظة في القرن العشرين !

« فجاء الإسلام يعطي كل ذي حق حقه ، بإنسانيته المجردة ، لا بكونه صاحب قوة أو نفوذ أو سلطان ، حتى ولو لم يكن مسلما ، ما دام يعيش في المجتمع الإسلامي . وقد نزلت تسع آيات في سورة النساء لتبرئ يهوديا اتهم ظلما ، وتآمر على اتهامه رجال من المدينة أقوياء بعصبيتهم ولا ولي له ولا نصير [سورة النساء (١٠٥ — ١١٣) ومما جاء فيها : « ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا » إشارة إلى ذلك اليهودي البريء !] .

« وكان منطق البيئة هو توقير زعيم القبيلة ـ أو الملك حين تتكون الأمة ـ توقيرا يجعل منه إلها لا يسأل عما يفعل . وكان هذا هو منطق العالم كله مع حكامه في ذلك الحين ، فإذا الإسلام يجعل في هذه الأمة من الوعي السياسي البالغ القمة

ما يجعل فردا من عامة المسلمين يقول لأشد الخلفاء مهابة فى تاريخ الإســلام ـ عمر بن الخطاب ـ « والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف » !
ثم يجعل عمر لا يغضب لنفسه من هذه القولة الجريئة . بل يحمد الله !

« وكان منطق البيئة يجعل الـكرم العربى الشهير مقتصرا على الحفاوة التى يسير بذكرها الركبان ، وتصلح للمفاخرة بين القبائل ، أما العطف على الفقير المسكين ، والعطف الذى ينبع من منبع إنسانى بحت ، ولا يهدف إلى شهرة ولا فخر ولا تظاهر ، فقد كان أمرا نادراً فى تلك البيئة قليل الحدوث ! فجاء الإسلام يلح إلحاحا شديدا جدا فى إعطاء المسكين « حقه » فى مال الله ، وإكرامه ، والعطف عليه ، ومواساته ، حتى ليجعل ذلك أمرا للرسول ذاته صلى الله عليه وسلم ، وما كان فى حاجة قط إلى هذا الأمر : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر » وإنما كان توجيه الأمر إليه صلى الله عليه وسلم للإشعار بأهميته وبأنه واجب القضاء .

« وكان منطق البيئة ـ ومنطق العالم كله يومئذ ـ يجعل السادة سادة والعبد فى منزلة تقرب من منزلة الحيوان ، يهان ويعذب ويقتل بلا حساب .

« وجاء الإسلام يزوج بنت عمة رسول الله ـ القرشية ـ من زيد .. من أحد الموالى ، وجاء يجعل هذا المولى قائداً لجيش من جنوده أبو بكر وعمر وزيرا الرسول وخليفتاه !

« ويقول الرسول الـكريم : « من قتل عبده قتلناه ، ومن جدع عبده جدعناه » . . ولم يكن ذلك لأن أحدا طالب لهم بهذه الـكرامة . . ولم يكن كذلك لأن الوضع الاقتصادى أو علاقات الإنتاج أو أدوات الإنتاج تغيرت أدنى تغيير !

« وكان منطق البيئة يؤمن بالملـكية الفردية المطلقة من كل قيد ، الخاضعة لغير قانون .

« وجاء الإسلام ينظم هذه الملكية بنظام لم يشب العالم إلى شيء منه إلا فى هذا العصر ، بعد أن اكتوى بجحيم الإقطاع والرأسمالية وتجرع منهما الحميم ؛ جاء يقول إن المال مال الله والجماعة وكيلة عنه . والفرد موظف فيه ، يستحقه بأداء حقه والقيام عليه . فإن سفه أو لم يؤد حقه عاد إلى الجماعة صاحبة الحق الأول فيه ، ثم ينص على طريقة توزيعه « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

« وكان منطق البيئة وكان . . وكان . . فجاء الإسلام يلغى ذلك المنطق ويستبدل به منطقا آخر بعيداً كل البعد ، غريبا كل الغرابة على تلك البيئة وعلى كل البيئات يوم كان ، ولا يجعل كلامه مبادئ « مثالية » معلقة فى الفضاء ، بل واقعا محسوسا يتمثل فى بشر يدبون على الأرض وقلبهم متجه إلى السماء !

« فكيف حدث ذلك ؟

« أية حتمية تاريخية وأى تفسير مادى يمكن أن يفسر هذه العجيبة فى تاريخ الإنسان ؟ !

« شيء واحد يمكن أن يفسر .

« إن الإنسان حين يؤمن بالله إيمانا صحيحا و تعمر قلبه عقيدة سليمة يصنع هذه المعجزات ! »(١) .

* * *

ذلك مثال يلغى - فى ضربة قاضية - كل التفسير المادى للتاريخ !

وهومثال من عالم الواقع لا من عالم النظريات .. مثال من وقائع « التاريخ » !

وإن تفسيره لهو التفسير الوحيد الذى يأباه التفسير المادى للتاريخ ، ويشتط فى إبائه ! تفسيره أن هناك « علاقة » بين الإنسان والله ! وأن قدر الله هو الذى يشكل واقع الأرض ويقرره ! قدر الله الذى وجه الإنسان الأول إلى اكتشاف النار واختراع الآلات . . ووجهه إلى تكوين القبائل والشعوب للتعارف . .

---

(١) من كتاب « معركة التقاليد » الطبعة الثانية ص ١٠٤ — ١٠٩ .

بغير سبب إلا إرادة الله للإنسان أن يصنع ذلك . . هو ذاته الذى وجهه إلى الإسلام ، وإلى بناء مجتمع مثالى على هدى الإسلام ، بغير سبب إلا إرادة الله للإنسان أن يصنع ذلك ! لا بتطور أساليب الإنتاج ولا بالنمو « الطبيعى » للمجتمع ! وإن كان قد اعتمد فى هداية الإنسانيه للإسلام ، وهدايته إلى إقامة هذا المجتمع المثالى ، على المكونات البشرية الفطرية التى أودعها الخالق فطرة الإنسان(١) .

وكل تفسير للتاريخ يغفل الله ، وقدر الله ، وتدخله المباشر فى حياةالبشرية، ويفسر حياة الإنسان كحدث قائم بذاته ، أو قائم لأسباب « مادية » محيطة بوجوده ، هو تفسير خاطىء لا يفسر حقائق الوجود !

إن الحماقة التى أدلى بها دارون وهو يقول : « إن تفسير شئون الحياة بوجود خالق له إرادة فى الخلق ، يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت » .. إنها .. حماقة !

ومن شاء فليفسر وقائع التاريخ ووقائع الحياة ووقائع الكون بدون إدخال هذا العنصر « الخارق للطبيعة » ! إن تفسيره لن يذهب به أبعد من خطوات .. ثم يتعثر فى الطريق !

وإدخال هذا العنصر الخارق للطبيعة لن يلغى ــ كما يفهم « العلم » الغربى فى حماقة ــ قوانين العلم وقوانين الطبيعة وقوانين المادة وقوانين الاجتماع وقوانين الاقتصاد . كلا ! وإنما يكملها ويصححها ويقوّمها . . ويعطيها دلالتها الحقيقية فى سياق الأحداث !

* * *

ثم إن التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ــ كالتطور العلمى ــ لا يخرج بالإنسان عن فطرته ، لأن الناس محكومون بفطرتهم فى نهاية المطاف !

---

(١) انظر فصل « رصيد الفطرة » فى كتاب « هذا الدين » وفصل « الدين والفطرة » فى كتاب الدراسات .

كل اختراع جديد يهز الناس وقت ظهوره هزاً، ويطلق أفكارهم ومشاعرهم فيتخيلون عالما جديدا مختلفاً كل الاختلاف ، عالما لا تحكمه مشاعر الماضى ولا تصوراته . . عالما كأنما يحكمه جانب جديد من النفس لم يكن له وجود من قبل !

ثم . . تبرد حرارة الاختراع . . ويتعود الناس وجوده . . ويعودون رويداً رويداً إلى فطرتهم . . وإلى مشاغلهم العادية ، وآمالهم ومخاوفهم ! يعودون إلى البحث عن الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس . . يعودون إلى حب الملك ، وحب الصراع وحب البروز . . يعودون إلى الخوف من الموت والبحث عن الخلود !

وكذلك التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . . تهز الناس فى جدتها . . وتشكل أفكارهم ومشاعرهم فى شكل جديد . ولكنها لاتخرجهم من فطرتهم !

فى العشيرة والقبيلة والأمة والمجتمع الإنسانى .

وفى المجتمع الرعوى والمجتمع الزراعى والمجتمع الصناعى . .

وفى حكومة « الأب » وحكومة الإمبراطور المقدس والحكومة الديمقراطية وحكومة الطبقة الواحدة والحزب الواحد . .

فى كل ذلك لا يخرج الإنسان عن الفطرة فى نطاقها الواسع . .

إنها الفطرة فى نزعتها الفردية والجماعية . فى نزعتها للالتزام والتحرر . فى نزعتها للسلبية والإيجابية . فى حب الملك . وحب البروز وحب الصراع . . تأخذ أوضاعا شتى !

ومرونة الفطرة وسعتها ليستا دليلا على عدم وجودها كما خيل لدركايم وللتفسير المادى للتاريخ !

والدليل على وجودها هو ثورتها على ما لا يلائم طبيعتها . ثورة طبيعية لا تُتامس لهـا الأسباب !

إن التفسير المادى للتاريخ يتمحل الأسباب لثورة الرقيق فى أوربا فى نهاية العصور الوسطى ، فيقول إنها كامنة فى نشوء المجتمع الصناعى وحاجة المصانع إلى العمال ، وضرورة تحرير رقيق الأرض للعمل فى المصانع !

كذلك . . ؟ !

وليس الفطرة البشرية التى تأبى العبودية فى النهاية و إن خضعت لها عشرات أو مئات من السنين ؟ !

فما تفسير ثورة العبيد الشهيرة فى العصر الرومانى بقيادة « سپارتا كوس » ، قبل نشوء المجتمع الصناعى ، وقبل حدوث أى تطور فى أساليب الإنتاج يدعو لتحرير العبيد ؟ تلك الثورة التى هزت الإمبراطورية كلها من قواعدها ؟

وليس معنى ذلك أن نلغى الأسباب المباشرة التى أدت لتحرير رقيق الأرض عند نشأة المجتمع الصناعى ! كلا . وإنما معناه فقط أن نردها إلى الفطرة التى تترقب الفرصة المناسبة لتحقيق وجودها . ومعناه أن نفسر بهذه الظروف نجاح الثورة الثانية بينما هزمت الأولى شر هزيمة فى عصر الإمبراطورية الرومانية . ولـكن الهزيمة والنصر شىء آخر غير دلالة الفطرة واتجاهها . . وهو واحد فى الحالين !

والتفسير المادى للتاريخ يتمحل الأسباب للاستعمار فيقول إنها كامنة فى بحث رأس المال عن الأرباح والأسواق لتصريف فائض الإنتاج بعـد الوصول إلى الإنتاج الـكبير . . !

كذلك . . ؟ !

وليس فى انحرافة من انحرافات الفطرة تنزع إلى الغلبة والسلطان وإخضاع الآخرين واستذلالهم ؟ !

فما تفسير الاستعمار الرومانى الشهير الذى استعبد أمما وشعوبا بأسرها، وامتص دماءها، وأكل خيراتها، وتركها فى أسوأ حال من الفقر والمرض والجهل، ليستمتع هو وحده باللذائذ الحرام، والبذخ الفاجر، والتلذذ بحمامات الدماء؟!

وليس معنى هذا أن نلغى الأسباب المباشرة التى أدت إلى الاستعمار الحديث! وإنما معناه فقط أن نردها إلى مكانها من الفطرة فى انحرافها، حيث يستوى — من حيث الدافع — الاستعمار الأول والاستعمار الأخير!

ثم.. لقد شاء المذهب الشيوعى أن يحول الفطرة عن طريقها فى مسألة الملكية الفردية، واستخدم لذلك الضغط والإرهاب والحديد والنار والتجسس، وكل وسائل الحكم البوليسى الشنيع، التى اعترف بها خروشوف فى «اعترافاته» عن عهد ستالين [بعد وفاته بطبيعة الحال!] فماذا كانت النتيجة فى النهاية؟!

كان ذلك التراجع المستمر من قِبل الحكم البوليسى، خطوة خطوة نحو الفطرة البشرية. من إباحة التفاوت فى الأجور بين عمال الطبقة الواحدة والعمل الواحد، وإباحة الملكية الفردية — فى المواد الاستهلاكية! — إلى اعتراف خروشوف بأن العمل فى المزارع الجماعية لايسير كما كان مقدراً له، ولا يعطى الغلة التى تعطيها المزارع الفردية.. إلى..؟!

كلا! إنها الفطرة فى النهاية — باعتدالاتها وانحرافاتها — تحدد حدود التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، فى أثناء نموه الفطرى.. فتتركه — لسعتها ومرونتها — يتشكل فى أشكال شتى.. ولكن فى حدود الفطرة فى نهاية المطاف!

* * *

وخلاصة البحث فى التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى هو هذه المجموعة من الحقائق:

أنه قد يرتبط بالتطور فى أساليب الإنتاج. ولكنه لا يكون ارتباط النتيجة

بالسبب . وإنما ارتباط المواكبة والمصاحبة ، مع تبادل علاقة السببية من طرفيها. فيؤثر كل منهما فى الآخر ويتأثر به .

وأنه ينشأ من خاصية النمو الفطرية فى كيان الإنسان [ما لم يقف فى طريق النمو عائق غير طبيعى] .

وأنه – مع ذلك – ليس تطوراً حتمياً من حيث الصورة التى يأخذها .

وأنه – سواء كان ناشئا من تدخل قدر الله المباشر كما فى الديانات السماوية كلها ، والإسلام على رأسها ، أو تدخله غير المباشر عن طريق ما أودعه الله فى الفطرة من طاقات – فهو فى النهاية قائم على الفطرة البشرية ، ومرده إليها .

وأنه أخيراً لايخرج عن حدود الفطرة مهما تطور وتغير . فهو تغير فى الصورة لا تغير فى جوهر الكيان .

* * *

كنا إلى هذه اللحظة نبحث فى التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى . وقد رددناها فى وضوح جازم إلى الفطرة البشرية وطاقاتها واستعداداتها ، ووكدنا حقيقة ثبات الفطرة رغم هذه التطورات . ونريد — قبل أن ننتقل إلى بحث اللونين الأخيرين من التطور : التطور النفسى والتطور الأخلاقى — أن نبين حقيقة هامة قد لا تتضح على حقيقتها فى ظل ذلك التوكيد .

إننا لانلغى على الإطلاق قيمة التطور العلمى أو التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى . ولانقول إنه لايغير شيئاً فى واقع الحياة !

ذلك كلام لايقوله العقلاء !

كمن يقول إن الطفل الرضيع كالرجل البالغ فى جميع الأوضاع !

وما قصدنا إلى شىء من ذلك . بل نحن — كما أسلفنا — نميل إلى إبراز هذا التطور وذلك إبرازاً واضحا ملموسا ، ونؤكد حقيقته !

ولكننا فقط نرده إلى الفطرة . . ونرد الفطرة إلى مشيئة الله وقدره .

إننا نريد أن نقول إن « صورة » الحياة كلها تتغير بعد كل اكتشاف أو اختراع جديد، و بعد كل تحول من التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وتجد للناس مشاعر وأفكار وتصورات لم تكن من قبل ، كما تقوم علاقات الناس فيما بينهم على هذه المشاعر الجديدة والأفكار والتطورات .

ولكن تغير « صورة » الحياة لا يغير « فطرة » الإنسان . هذه هي المسألة التي نكررها ونؤكدها . إنها أشكال متغيرة من فطرة ثابتة . وكلا التغير والثبات له حقيقته وله دلالته ، بلا تعارض ولا تضارب . لأن « الحق » لا يتعارض ولا يتضارب إلا في الأفهام الجزئية التي لا تدرك ما بين بعضه و بعض من ارتباط .

إن النمو الدائم في جسم الطفل ونفسه وعقله حقيقة . . لها وزنها ودلالتها .

ومع ذلك ففي الطفل ما في الرجل البالغ من خطوط فطرية أصيلة ونزعات فطرية . . بلا افتراق في الجوهر وإن تعددت الصور والأشكال .

الطفل يخاف والرجل البالغ يخاف . الطفل يرجو والرجل البالغ يرجو . الطفل يبحث عن الطعام والرجل البالغ يبحث عن الطعام . الطفل يصارع والرجل البالغ يصارع . الطفل يفكر والرجل البالغ يفكر .. الطفل « يكدح » والرجل البالغ يكدح . .

كل خطوط الفطرة الأصيلة ودوافعها موجودة في نفس الطفل ، في صورة بدائية أو كامنة . . ثم تنمو . . حتى تصل إلى النضوج والاكتمال . .

وكذلك حياة البشرية .. كامنة بأكملها في فطرتها .. ثم تتشكل في مراحل النمو المختلفة ، فتتحقق طورا بعد طور في صورة إثر أخرى . . وكل الصور تحقيق لذات هذا الكيان !

* * *

وإذ فرغنا من الحديث عن تطور أساليب الإنتاج — أو التطور العلمي بصفة عامة — والتطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، وما بينهما من

ترابط ، ومدى ذلك الترابط ، ومدى ما بينهما من استقلال نسبي ، نتحدث الآن عن التطور النفسى ثم التطور الأخلاقى . . وقد كان من الممكن أن نتحدث عنهما معاً فى آن واحد ، لأن بينهما نوعا من الترابط غير قليل . ولكنه كالترابط بين النوعين الأولين من التطور ، ليس ترابطا كاملا ، فكل منهما متخصص فى جانب ، كما سيتبين لنا من الحديث .

التطور النفسى [السيكلوچى] نقصد به مدى النمو والنضوج فى النفس من حيث هى مشاعر و اتجاهات وأفكار وتصورات وقيم وارتباطات وجدانية . . على أوسع نطاق . والتطور الأخلاقى نقصد به تطور القيم الخلقية فى ميدانها المتخصص ، من حيث الحكم على أعمال الإنسان بأنها خطأ أو صواب ، حلال أو حرام ، مرتفعة أو هابطة . . ومن حيث مدى مراعاة الإنسان لهذه الأحكام.

وواضح لأول وهلة أن هناك نوعا من الترابط بين النضوج النفسى [السيكلوچى] والنضوج الخلقى . ولكن هناك إلى جانبه نوعا من التخصص يجعل هذا غير ذاك . فقد تكون النفس ناضجة من حيث « قوة » المشاعر وعمقها واتساع نطاقها . . ثم تكون فى ذات الوقت منحرفة من الناحية الخلقية .. وعلى العكس قد تكون مستقيمة من الناحية الخلقية ولكنها من الناحية النفسية بدائية ضامرة غير مكتملة النضوج . لذلك أفردنا الحديث عن كل منهما ، مع بيان مدى الترابط ومدى الاستقلال .

* * *

التطور النفسى يتجه — فطريا — إلى النضوج والتكامل فى كل جوانب النفس . وهو حركة فطرية تحدث فى النفس كما يحدث النمو فى الجسم ، فلا تحتاج إلى تفسير من خارجها ، إلا التفسير الذى يشمل الإنسان كله ، والكون على اتساعه ، وهو أنه يسير بمقتضى ما فطره عليه خالقه ، وما أودعه من سنن وطاقات واستعدادات ، وبمقتضى قدر الله الذى ينشىء كل نمو وكل حركة وكل تكييف فى هذه الطاقات والاستعدادات .

والتفسير المادى للتاريخ يجعل التقدم المادى — أى التقدم فى أساليب الإنتاج — هو محور التطور النفسى كذلك . ويستند إلى ظاهرة خداعة ، هى أن التقدم العلمى ، وما ينشأ عنه — فى نظره — من تقدم وتطور فى بنية المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ينمى النفس بطريقة آلية ، لأن النفس هى انعكاس الوسط المادى . فإذا « ارتقى » الوسط المادى كان من جراء ذلك ارتقاء النفس.

وتلك — كما نقول — ظاهرة خداعة !

حقا إن التقدم العلمى يساعد على لون من النضوج .

فالطفل الذى يولد فى القرن العشرين ، فى النصف الثانى منه خاصة ، وحوله السينما والإذاعة والتليفزيون ، والطائرة والصاروخ ، والآلات الدقيقة التركيب ، وحوله التشابكات الاجتماعية المعقدة ، والتشابكات السياسية الدولية والمحلية ، المتقلبة من لحظة إلى لحظة . . ساعة تجنح إلى السلام وساعة تجنح إلى الحرب . . هذا الطفل أنضج ولاشك فى « معلوماته » وفى بعض مشاعره وتصوراته وأفكاره من رجل بالغ كان يعيش فى القرن العاشر مثلا أو الثانى عشر . .

ولكننا نكون مخطئين إلى حد مضحك إذا تصورنا أن هذا الطفل أنضج فى مجموع نفسه من ذلك الرجل ! فهو طفل مهما يكن من نمو مدركاته . . يتناول الحياة بنفسية الطفل ومطالب الطفل وتصورات الطفل . . وذلك الرجل رجل بالغ مجرب ، ناضج فى مجموع نفسه بمقدار ماتتيح له بنيته الخاصة من النضوج .

الدلالة التى نستخرجها من المثال واضحة . . إن التقدم العلمى ينضج حقا بعض جوانب النفس . ولكنه — بمفرده — لا يصلح للحكم على مدى النضوج واتجاهه ، لأن الجانب الذى ينضجه ليس من السعة والشمول بحيث يعطى النفس طابعها المميز الأخير !

وقد وقع القرن العشرون فى هذه الأضلولة حين بهره التقدم العلمى !

لقد ظن أنه خير القرون طراً فى كل شىء ، لأنه أشد القرون تقدما فى العلم ، وأشدها — حتى الآن — سيطرة على قوى الكون . .

وأعماه هذا الظن عن أن يدرك عيو به . . النفسيه والخلقية على حد سواء !

إن هذا القرن الذى تقدم فى العلوم كل هذا التقدم ، ففجر الذرة وأطلق الصاروخ وغزا الكواكب . . يعيش بنفسية الطفل فى بعض جوانب الحياة ، وبنفسية المراهق فى بعضها الآخر . وفى بعضها الثالث بنفسية الحيوان ، من غير ضوابط الحيوان .

وهذا العلم كله — بمفرده ، أى بدون توجيه نفسى وخلقى معين — لا يستطيع أن يصلح ما فسد من النفوس . بل هو قمين أن يزيدها فسادا لأنه يلهب غرورها فتظن أنها على صواب ! [« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » !][1]

هذا التقدم العلمى كله : الثلاجة الكهربائية، والغسالة الكهربائية،والإنسان الآلى والمخ الإلكترونى . والزر الذى تضغط عليه فيدور مصنع كامل دقيق الآلات أو ضخم الآلات . أو يأتيك طعام جاهز يلبى نداءك كالجنى القديم فى الأسطورة . أو تسمع الموسيقى الحالمة التى ترتاح إليها نفسك . أو يتكيف جو حجرتك أو فراشك . . أو . . أو . . الخ .

التقدم الذى ينقلك فى لحظة عبر العالم . تسمعه وتشاهده وتشاركه . فى الإذاعة أو التليفزيون أو التليفون اللاسلكى . فيفتح لك نوافذ متعددة على العالم ترى منها ما لم تكن تحلم أن تراه لو قضيت عمرك كله فى الأسفار . هذا وأنت جالس فى مكانك لم تبرح . كالجنى القديم فى الأسطورة ينقل العالم إليك وأنت مستريح . .

التقدم الذى نفذ إلى آفاق الكون ، فرأى ملايين الملايين من النجوم والكواكب ، قاس حرارتها وعرف أبعادها ورصد أفلاكها. ثم قفز إليها يريد أن يضع قدمه على أرضها .

---

(١) سورة الكهف [١٠٣ — ١٠٤]

هذا التقدم كله . . ماذا صنع فى « نفسية » القرن العشرين ؟ . ولا نتحدث بعد عن الأخلاق .

هذه الضحالة المزرية بكرامة الإنسان ! التى لا تطيق التعمق فى المعرفة ولا التعمق فى المشاعر ولاالتعمق فى الأفـكار . وإنما تريد أن تأخذ الأمور كلها من سطوحها . قفزا قفزا . كالطائر المجنون .

هذه التفاهة «الجزئية» فى الحـكم على الأمور ، التى لا تطيق النظرة الشاملة ولا تصبر عليها ، وإنما تأخذ كل جزئية بمفردها ، منفصلة ومستقلة ، على غير حقيقتها فى بنية الـكون وبنية الأحداث .

هذه الآلية الهابطة ، التى تحيل المشاعر والأفكار والأعمال نشاطا آليا كنشاط الآلة . زر يضغط عليه فتنطلق أعمال . زر يضغط عليه فتنطلق أفكار . زر يضغط عليه فتنطلق مشاعر . أقرب إلى مشاعر البهيمة ، وأحيانا أحط من مشاعر البهيمة المحـكومة بفطرتها المضبوطة المستقيمة .

هذه المادية المغلقة التى تغلق جوانب الروح ، وتطمس على رفرفاتها ، وتجثم على الأرض لاتريد الانطلاق ولا تقدر عليه .

هذه « الواقعية » المريضة التى تعيش فى حدود اللحظة ، وتأبى أن « تتصور » و « تتخيل » .. لتتصور « الـكمال » وتسعى إلى تحقيقه .

هذه الحسية التى تحيل المشاعر لذة جسد محصورة ، لا تتندى بعواطف « الإنسان » .

تلك هى حصيلة « التقدم ! » النفسى فى القرن العشرين ! ولا نتحدث بعد عن الأخلاق !

إنها حصيلة « الآلة » ! حصيلة تحويل الإنسان كله إلى آلة تعمل فى نطاق الحس القريب .

إنها اختلال نفسى لا مثيل له قط فى سالف القرون !

* * *

والتفسير المادى للتاريخ يقدم لهذا الأمر تفسيرات شتى ، ومبررات شتى . بعضها يقدمه فى تبجح و بعضها يقدمه على استحياء .. فحتى التفسير «المادى» للتاريخ ينبغى أن يستحيي من هـــــذا المسخ المشوه الذى صار إليه الإنسان فى القرن العشرين !

وما يعنينا هنا أن نناقش التفسيرات والمبررات والاعتذارات . ولـكن يعنينا فقط أن نبرز هذه الحقيقة : أن التقدم العلمى لا علاقه له بالوضع النفسى للإنسان . فالعلم يتقدم فى سبيله ، صاعدا أبدا ، كل خطوة تؤدى إلى تقدم جديد . والنفس تمضى فى سبيلها . إن وجهت الوجهة الصالحة يـكون فيها الخير ، و إن وجهت الوجهة الفاسدة لا يمسكها عن الفساد كل التقدم العلمى والتطور فى أساليب الإنتاج . . بل قد يزيدها فسادا كما هو الحال فى القرن العشرين .

ونعود إلى دراسة التطور النفسى فى ذاته . ما هو ؟ وما العوامل المؤثرة فيه ؟ وما دلالته على الفطرة البشرية ؟

النفس البشرية — كـكل شىء فى حياة الإنسان — تنمو بفطرتها نحو النضوج والتـكامل والتعقد والشمول .

وتتعرض فى أثناء نموها للاعتدال والانحراف . كلاهما فطرة فى طبيعة الإنسان[1] . .

فى طفولتها تـكون أقرب إلى البساطة . تعبيرها ساذج مباشر . «فرامِلها»

---

(١) انظر كتاب الدراسات ، « فصل الانحراف والشذوذ »

ضعيفة التكوين . حسية أكثر مما هى معنوية . جزئية أكثر مما هى شاملة . جزئية فى تناولها للحياة وتفسيرها للأمور . وفى الوقت ذاته واسعة الخيال على غير أسس تحكم هذا الخيال . فهو خيال مطلق يتخيل كل شىء ويصدق كل شىء فى بساطة وسهولة ويسر .

وتأخذ البشرية فى النضوج . .

لماذا ؟

هكذا ركب فى فطرتها . فلا تحتاج إلى مبرر آخر !

ولكن النضوج [أى النمو] يحتاج إلى غـــذاء . وإلا فإنه يذبل ويذوى ويموت .

والخالق الذى خلق النفس ووضع فى فطرتها ذلك النمو ، وضع لها كذلك غذاءها « الفطرى » على مقربة منها . كما جعل الثدى على مقربة من فم الطفل ، والغذاء كله على مقربة من الإنسان .

غذاء النمو النفسى هو « التجربة » . . وفى فطرة الإنسان أن يجرب ويستفيد بالتجربة .

وميدان التجربة هو الحياة كلها على الاتساع : فى عالم الحس وعالم النفس وعالم الروح . فى الكون المادى والكون المعنوى سواء .

« عقل » الإنسان يحتك بالكون المادى فتكون تجربة . يكشف النار . يكشف خواص المادة . يكشف طريقة « التعامل » مع المعادن أو النبات أو الحيوان .

و « نفس » الإنسان تحتك بالكون المادى فتكون تجربة من نوع آخر . يكتشف عجزه عن أمور ومقدرته على أمور . ومن العجز والمقدرة كليهما تتكون له مشاعر وعقائد وأفكار . فيتعبد . ويعتقد . ويتجبر أحيانا ويغتر !

ويحاول التغلب على العجز بالمزيد من القدرة ، فتنمو فى نفسه وعقله وجسمه طاقات مختلفة كانت كامنة من قبل .

ويحتك بالناس فتكون تجربة من نوع ثالث . . بل تجارب شتى متعددة . يكتشف أنه يحب الناس ويكره الناس [لأسباب !][1] وأنه يطغى على غيره أحيانا فيستخذى هذا الغير أو يقاوم الطغيان ، وأنه هو كذلك يستخذى لطغيان غيره عليه أحيانا ويقاوم أحيانا . وأنه يحتاج إلى الناس ويستغنى عن الناس . ويتخاصم ويتصافى . . ويحارب ويسالم . . ويتعاون وينعزل . . فتنشأ من كل ذلك « نظم » وشرائع وعلاقات .

وهكذا . . كلما خطا خطوة وقعت له تجربة جديدة ، ومن هذه التجارب ينمو ويتسع ويشتد قوامه . ويتدرج من البساطة إلى التعقيد . من التعبير الساذج المباشر إلى التعبير الناضج البعيد الغور . وتقوى « عضلات » نفسه وفراملها ، ويختلط الخيال بالواقع ، ويصير أقرب إلى « تعقل » الأمور .

وتتوا كب الأمور كلها فى وقت واحد . . فى عملية النمو السوية . فتزداد الخبرة وتتحسن العدد والآلات وأدوات الإنتاج ، وينمو الكيان الاجتماعى والاقتصادى والسياسى . . وكذلك تنمو «النفس» فى مجموعها وتنضج وتتعمق.

ولكن الأمور لا تستقيم فى كل حالة . . فقد ينمو جانب من النفس أو جانب من الحياة ويتعثر جانب آخر . . فلا يحدث التوا كب الفطرى السليم الذى ينبغى أن يكون .

يتقدم الإنتاج المادى أو الخبرة النفسية أو الخبرة الفكرية ولا تستقيم بقية الخبرات . .

---

(١) يقول فرويد إن الحب والكره ظاهرة مزدوجة فى الكيان النفسى تحدث بلا سبب ! وقد ناقشنا ذلك تفصيلا فى كتاب الدراسات .

وقد عرف التاريخ نماذج من ذلك كثيرة . .

فالإغريق قد بلغوا الذروة — فى عصرهم — فى التقدم « الفكرى » الخالص . فى الفلسفة والعلوم النظرية . ومع ذلك كانت فى حياتهم اختلالات جمة . أبرزها الاختلال فى الجانب الروحى . فالذهن المتضخم كان يطغى على نشاط الروح .

والهند — فى عصرها — بلغت الذروة فى التقدم « الروحى » . . فى إشراقات التصوف وسبحات التعبد ، و «الفناء» فى الكل الأعظم الذى يشمل روح الوجود . ومع ذلك كانت فى حياتهم اختلالات جمة . أبرزها السلبية المنصرفة عن الإنتاج المادى . فالنشاط الروحى المتضخم يفسد إيجابية الحياة .

والرومان — فى عصرهم — بلغوا الذروة فى التقدم « المادى » . . فى تطبيقات المدنية العملية ، من طرق وجسور وخزانات وحمامات وهندسة للرى وتنظيمات للحكم وسياسة للسلم والحرب . . ومع ذلك كانت فى حياتهم اختلالات شتى . أبرزها الاختلال الروحى والخلقى . . فقد انغمسوا فى لذائذ الحس وتكالبوا على متاع الأرض ، فانقلبوا وحوشا يلغون فى الدماء أو أجسادا بلا أرواح .

والمصريون — فى عصرهم — بلغوا الذروة فى النشاط الروحى والنشاط المادى معاً . فكانت لهم عقائد وعبادات أرقى بكثير مما عرفه زمانهم فى شتى الأمم ، وفيها نفحة من بقايا الديانات السماوية التى وصلت إليهم ، وإن كانت مشوهة منحرفة ، وكانت لهم هندسات وتنظيمات و إنتاج مادى رفيع . . ومع ذلك كانت فى حياتهم اختلالات شتى . أبرزها عبادة الفرعون وتأليهه ، والاستنامة من ثم للضغط والطغيان [وهو عيب بارز فى تاريخهم كله] والجنوح إلى التفكير فى الموت والعالم الثانى ومن ثم الاكتفاء من الحياة الدنيا بالحد

الأدنى الذى لا يرفع مستوى الحياة ؛ لا عن عجز عن المدنية والتقدم [فقد كانت الصناعات الدقيقة الرفيعة كلها تصنع من أجل الفرعون وبتسخيره] ولكن عن قناعة ذليلة ترتضى لقمة الخبز والحصير المفروش على الأرض الجرداء .

فى كل هذه الحالات لم يتواكب التقدم فى جوانبه المختلفة كما ينبغى أن يكون . .

كانت البشرية فى طفولتها . . أو فى طفولاتها المختلفة .

ثم بلغت سن الرشد فى فترة من حياتها معينة .. على يد الإسلام .

يمكن أن نقول إنها بلغت سن الرشد بدعوتها إلى الإسلام أو باستجابتها إليه ، يوم خاطب الله تعالى المسلمين بقوله : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا »[1] . ففى ذلك اليوم كان قد اكتمل لها الرشد حقا ، وانطلقت تقيم الخلافة الراشدة على ظهر الأرض . . فكيف كان ذلك الرشد ؟ وما مظاهره ومميزاته ؟

الرشد العقلى ظاهر فى طبيعة الرسالة ذاتها . . التى تخاطب العقل ، ولا تقهره بالمعجزات الحسية ، وإنما ترشده وتوضح له المسالك ليهتدى — بذاته — إلى الحق الذى خلقت به السماوات والأرض وما فيهن . والذى تقوم عليه حياة الإنسان وتقوّم به أعماله فى آخرته ودنياه .

وظاهر كذلك فى إطلاق طاقة العقل فى جميع ميادين النشاط العقلى المتاحة للإنسان . . يتدبر آيات الله فى الكون ، ويتعرف على « القوانين الطبيعية » والنواميس التى تحكم كيانه . ويمشى فى مناكب الأرض يبحث عن الرزق ، فيحتك بالكون المادى ويستنبط طاقاته . ويمشى فى « التاريخ » فيستنبط

---

(١) سورة المائدة [٣]

أسباب قيام الأمم وزوالها ، ويستفيد بها خبرة لحاضره ومستقبله . ويتدبر حكمة التشريع ليقيم تنظيماته السياسية والاقتصادية والاجتماعية على هدى وبصيرة .

والرشد الروحى فى الاهتداء إلى الله الحق · والاتصال به . والاستمداد منه . والتعبد الصحيح إليه ، بإفراده بالعبودية ، ونبذ العبادات الضالة كلها ، من عبادة بشر لبشر ، أو عبادة بشر لوثن أو قوة من قوى الـكون ، أو عبادة بشر لذاته وأهوائه وشهواته . .

والرشد « الحسى » فى البحث عن وسائل التقدم المـادى والحضارى ، وهضمها وتمثيلها والإضافة إليها حتى صارت حضارة الإسلام مضرب المثل فى التاريخ . .

كيان راشد ناضج توا كبت جوانب النمو فيه فتوازنت على شمول وإحاطة . وكانت تلك قمة البشرية . .

وانطلقت تلك الأمة الراشدة تبنى مثلا للتاريخ . . مُثُلا فى كل جوانب الحياة وكل مجالات النشاط الإنسانى . الفتح الخاطف الذى لامثيل له من قبل ولا من بعد فى كل التاريخ . . من المحيط للمحيط فى نصف قرن من الزمان !

نشر العقيدة الصحيحة فى ربوع الـكون المعمور على ثبات وقوة وتمـكن .

إقامة المثل الخلقية الباقية التى تستمد منها البشرية كلها فى جميع عصورها فى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين صنعهم على عينه : أبى بكر وعمر .. وعثمان وعلى .. وأبى عبيدة وخالد .. وسلمان وصهيب .. وبلال وعمار . وأسماء وعائشة .. وفاطمة وأم سلمة .· وسمية ونسيبة .. ومئات وألوف على مدار الأجيال حتى اللحظة الراهنة رغم جميع التقلبات والأحداث !

إقامة الحضارات بكل الوسائل المتاحة فى الأرض .

إنشاء المذهب التجريبي الذى قامت عليه بعد ذلك العلوم الحديثة كلها ، وخطا به العلم هذه الخطوات الجبارة فى العصر الحديث . .

و . . . فى كل جانب من جوانب الحياة . .

تلك كانت قمة البشرية . . « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله »[1] .

ولكن « البشرية » لم تحافظ على قمتها !

لقد تقدم العلم . وتقدمت « الخبرات » النفسية فى شتى الميادين . . ولكن عادت الاختلالات إلى الظهور !

تجنح البشرية بروحها مرة . وعقلها مرة . وجسدها مرة .

تهتم بالحضارة المادية وتهمل حضارة الروح . .

تهتم بالتقدم العلمى وتهمل التوجيه الخلقى . .

تهتم بالحياة الدنيا وتهمل الآخرة . .

وتفقد البشرية توازنها ، ولا تتواكب الخبرات . . فينحدر الكيان النفسى فى مجموعه . .

وتنشأ من ذلك « حضارة » القرن العشرين !

* * *

حين نصل إلى هذا الحد من البحث ، نعود إلى زاوية النظر التى نرصد منها الموضوع كله .. « دلالة الفطرة » .

لقد قلنا من قبل إن التقدم العلمى جزء من الفطرة يحققها فى أحد جوانبها . وكذلك قلنا عن التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى . . وقلنا إن هذا التطور وذاك لا يخرجان عن حدود الفطرة فى نهاية المطاف . .

---

(1) سورة آل عمران [١١٠] .

فماذا نقول هنا عن التطور النفسى ؟

إنه نفس الموقف ونفس القضية . .

كل ما يحدث فهو فى حدود الفطرة . .

ولكن الفطرة هنا — بصورة أوضح من كل ما سبق — ذات وجهين متقابلين ، ينشأ من أحدهما الاعتدال ، ومن الآخر ينشأ الانحراف !

إن الخط النفسى — كما رأينا — لا يصعد دائماً فى جميع الحالات ، كخط التقدم العلمى . .

ولذلك سبب من ذات الفطرة !

التقدم العلمى صاعد أبداً لا ينكص ، لأن فى فطرة الإنسان أن يطلب المزيد من المعرفة . وفى فطرته أن يحسّن على الدوام ما يملك من أدوات . إن التحسين يستجيب للفطرة من كل جوانبها . فهو يلبى رغبتها فى المعرفة . ورغبتها فى الجمال . ورغبتها فى التطلع إلى الكمال . كما أنه يستجيب لرغبتها فى الراحة ورغبتها فى القوة والقدرة والبروز . فكل تحسين يحقق — ولو فى أحد جوانبه — مزيداً من الراحة للإنسان [وذلك دافع من دوافع الاختراع : تيسير الحياة] كما يحقق شعوراً بأن الإنسان قد قدر على عمل جديد ، وبهذه القدرة يحقق ذاته ويبرز . . وفى اختصار فالفطرة هنا دافعة دفعاً ملحاً دائباً نحو التقدم العلمى . ولهذا ظل التقدم العلمى يسير فى خط صاعد طوال التاريخ . لهذا ، وليس لأى سبب آخر من « خارج » الفطرة ، يدعيه التفسير المادى للتاريخ ! ولهذا الكيان الكلى الشامل ، الذى يشمل الإنسان كله ، لا لجزء واحد منه كما زعم التفسير المادى للتاريخ حين قال إن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام ! فقد رأينا فى الدراسة السابقة أن تاريخ الإنسان كان دائما تاريخ المحاولة لتحقيق كيان « الإنسان » ولم يكن تاريخ البحث عن أى جانب واحد منفصل فى هذا الكيان !

أما التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فهو يسير قدما فى جانب واحد منه : هو جانب التعقد والتشابك وإحكام الروابط و « مزجها » بعضها ببعض . ولكنه لا يسير قدما من حيث « الكيف » ، فهو يسير متأرجحاً بين الفردية الطاغية والجماعية الطاغية . . وأبرز الأمثلة على ذلك : الرأسمالية والشيوعية فى القرن العشرين . ولكن مرد ذلك أيضاً إلى الفطرة ! ففيها اعتدالات وفيها انحرافات ، وفيها مرونة تتسع لأشكال شتى وضغوط متعددة . . حتى تثور فى النهاية وتلفظ ما لا يناسبها من الأوضاع والظروف .. وفى كل ثورة من ثورات الفطرة يحدث انتقال من طور إلى طور ، ينطلق فى طريقه فترة حتى تغلبه الانحرافات فيبيت فى انتظار انقلاب جديد . وهذا — وليس التطور فى أساليب الإنتاج وحده كما يزعم التفسير المادى للتاريخ — هو الذى يفسر التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى حياة البشرية .

وأما التطور النفسى فهو لا يسير على خط واحد على الإطلاق !

هناك مرحلة كان خط التطور واضحا فيها . . إلى الأمام ، وهى المرحلة السابقة لمرحلة الرشد .. والتى أدت إلى الرشد .

كان النمو فى هذه المرحلة هو العنصر البارز الواضح . النمو إلى الأمام . إلى النضوج والتكامل والشمول . ومع ذلك فلم يكن خطا واحداً صاعداً فى كل مراحله . فالتاريخ يثبت قيام حضارات وانهيارها ، والانهيار نكسة إلى الوراء . ومعنى ذلك أنه يحدث تقدم ونكوص . فلا يسير الخط على سواء .

ثم بلغت البشرية الرشد على مولد الإسلام وانتشاره . . ولم ترتفع قط عن تلك القمة فى تاريخها كله . فقد كانت هذه أعلى قمة وصلتها البشرية .. وكذلك لم تثبت عليها ، بل أخذت فى الانحدار .

وقد حدثت أنواع من النمو الجزئى فى النفس البشرية بعد الإسلام ولاشك، فى الجوانب التى تتغذى على التقدم العلمى الصاعد أبدا ، وعلى التعقد الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الدائم [التعقد لا التقدم] . . ولكن النفس فى مجموعها لم تتقدم بعد تلك القمة أبدا بل لم تثبت عليها . وقد مر بنا بيان الانحدار النفسى المتواصل فى « حضارة » القرن العشرين .

والمرجع الأخير هنا — كما فى الأمور الأخرى كلها — هو الفطرة !

ففى الفطرة البشرية استعداد للهبوط يقابل الاستعداد للارتفاع . كلاهما فطرى . وكلاهما أصيل . ليس أحدهما مجلوبا من خارج النفس ولا مفروضاً عليها من خارجها « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »(1) « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات »(2)](3)

والنفس — فى حالتيها — داخل حدود الفطرة كما خلقها الله . .

والتوجيه هو الذى يدفع النفس إلى فطرة الارتفاع أو فطرة الهبوط .

ولقد كان التوجيه الإسلامى هو قمة التوجيه نحو الارتفاع ، وكان النظام الإسلامى هو قمة الأنظمة التى تسمح بتحقيق ثمرة ذلك التوجيه ، فارتفعت النفس البشرية إلى قمتها . والتوجيه الغربى فى القرن العشرين هو الدرك المقابل للتوجيه الإسلامى ، والأنظمة الغربية تكمل هذا التوجيه وتحققه فى عالم الواقع ! فهبطت به النفس البشرية إلى دركها الأسفل ، الذى لا يبدو أن هناك مزيدا عليه .

الضحالة المزرية بكرامة الإنسان . . التفاهة الجزئية فى الحكم على الأمور . .

---

(1) سورة الشمس [7ـ10]　　(2) سورة التين [3ـ6]

(3) انظر كتاب « دراسات فى النفس الإنسانية » .

الآلية الهابطة . . المادية المغلقة التي تغلق جوانب الروح . . الواقعية المريضة التي تعيش في حدود اللحظة . . الحسية التي تحيل المشاعر لذة جسد محصورة .

ولكن النفس البشرية قابلة للصعود مرة أخرى حين يهتف لها هاتف الصعود . .

وفي حالتيها تكون في حدود الفطرة . . وتكون الفطرة — بشعبتيها المتقابلتين — ثابتة رغم تغير الأشكال ! !

* * *

والآن نقترب حثيثاً من الحديث عن « التغير » الأخلاق . . ولا نقول « التطور » !

على هدى ما تبين لنا من دراسة التطور النفسي ، لا نجد مشقة في تتبع التغير الأخلاقي في تاريخ البشرية . فهنا تتبدى لنا الفطرة البشرية المزدوجة في أجلى معانيها وأوضح مظاهرها .

فلئن كان الخط العلمي صاعداً أبداً لا ينكص . . ولئن كان « التعقد » الاجتماعي والاقتصادي والسياسي صاعداً أبداً [دون التقدم في هذا الميدان ذاته] ولئن كان التطور النفسي أقل استقامة وأكثر تقلباً . . فالجانب الأخلاقي من الحياة البشرية هو أكثرها تقلباً على الإطلاق ، وأقلها استقامة على « خط » معين في أي مرحلة من مراحل التاريخ .

إنها بادىء ذي بدء مسألة تبرز فيها الفردية على الرغم من تأثرها بالمحيط الجماعي الشامل ، ولا يكون التخصص الفردي واضحاً بقدر ما يكون في الجانب الخلقي . فلئن كان التقدم العلمي والتطور الاجتماعي تحكمهما الظروف الجماعية بشكل واضح ، وكان التطور النفسي مزيجاً من الفردية والجماعية . . فالمسألة الخلقية يبرز فيها الجانب الفردي ، وإن يكن المحيط الجماعي الذي يعيش فيه

الفرد هو الذى يساعد أو يعوق النمو الخلقى فى الأفراد على تفاوت فى التأثير يرجع إلى طبائع الأفراد ومدى صلابتها .

ثم إنها لم تتخذ خطا مستقيما أبدا فى التاريخ . . إنما أخذت على الدوام صورة دورات صاعدة هابطة .

يهتف للبشرية هاتف بالصعود : نبى مرسل أو زعيم مصلح أو قائد . . فتتجه — فى مجموعها — إلى الصعود فترة من الوقت ، و يبقى حثالة من الناس فى أسفل القاع ، مذمومين مدحورين . لأن الموجة صاعدة . ثم يتعب الناس من الصعود ، أو من الاستقامة على القمة ! فيبدأون دورة الهبوط .. وهنا تنتفش الحثالة الموجودة فى أسفل القاع ، وتحس أن « الضغط » عليها قد خف ، فتأخذ فى النشاط ، ويكون نشاطها فى مبدأ الأمر محدودا ، ومنظورا إليه باستنكار . وتهبط الموجة أكثر ، ويخف الضغط على الحثالة الواطية ، فتزداد انتفاشاً ونشاطاً وتتسلم هى القيادة ! وتبقى قلة من الناس مرتفعين ، ولكن تحت ضغط مرهق عنيف .. وتشتد الموجة فى هبوطها حتى تطغى .. ونصطدم بقرارة الفساد فى النفس البشرية حتى تمجها « الفطرة » . . حتى الفطرة المريضة . . فتبدأ تلفظها لأنها تجاوزت آخر مداها . وعندئذ تأخذ الموجة فى الصعود مرة أخرى على يد نبى مرسل أو زعيم مصلح أو قائد . .

وذلك تاريخ البشرية !

ولئن كان التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ألصق شىء بالتطور المادى ، ومع ذلك فهو مستقل عنه ، ويمكن أن يوجد بلا تدخل منه [كما حدث فى الإسلام] ، وكان التطور النفسى أقل لصوقا بالتطور المادى ، وأكثر استقلالا عنه ، فالتغير الأخلاقى هو آخر شىء يمكن أن يرتبط بالتطور المادى !

والقصة الطويلة — جدا — التى يرويها التفسير المادى للتاريخ ، فى ارتباط الأخلاق بتطور أساليب الإنتاج . . قد كذبتها شهادة التاريخ !

ولا نحتاج أن نعود إليها ! فقد تبين لنا من شهادة التاريخ أن وضعين متشابهين إلى حد يثير الدهشة ، قد فصل بينهما ألفا عام . . وفصل بينهما ما بين العمل اليدوى ، واستخدام الطاقة الذرية فى الصناعة والزراعة والطب و.. التدمير!

إذن . . فالعلاقة بين الأخلاق ووسائل الإنتاج هى أضعف العلاقات على الإطلاق .

ولسنا نقول — مع ذلك — إن تفسيرات التفسير المادى للتاريخ بشأن «تطور» الأخلاق فى القرنين الأخيرين كلها بعيدة عن الواقع ! إنما نقول فقط إنها تفسيرات مضللة لأنها تأخذ فى حسابها المظهر الخارجى ولا تنفذ إلى الباطن . . إلى « الفطرة » .

إن كل التغيرات الأخلاقية التى حدثت مع الانقلاب الصناعى ، ومع الداروينية والتوجيه اليهودى ، لم تكن حتمية ! وهنا مفرق الطريق بين التفسير المادى للتاريخ ، والتفسير الإنسانى للإنسان !

ظروف أوربا المحلية هى التى أنشأت الانهيار الخلقى فى تلك الفترة ، وليست الطبيعة البشرية .

« فالتطور » — بمعنى نمو الحياة وتجددها — كان عنصراً دائماً فى حياة المسلمين .. فلم يفسدهم . لا أفسد أخلاقهم ولا أشاع الخلل فى نفوسهم . إنما فسدوا واختلت نفوسهم حين تغيرت فى حياتهم دوافع النمو والتجدد ، وجنحوا إلى الجمود والتحجر .

والصناعة — فى حدود — كانت جزءاً من مكونات المجتمع الإسلامى . . فلم تفسدهم . لم تفسد أخلاقهم ولا جعلتهم يتركون الآخرة لحساب الدنيا ويتكالبون على متاع الأرض . إنما فسدوا حين قل نشاطهم الصناعى وحصروا أنفسهم فى ألوان من الإنتاج ضئيلة الفائدة .

وتحرير المرأة — نفسياً وإنسانياً — كان جزءاً أصيلا من العقيدة الإسلامية ذاتها التى حررت الإنسان كله — بشقيه — من كل عبودية لغير الله تعالى ، وجعلت أداة تحريره الكبرى هى علاقته المباشرة مع الله ، التى يستصغر بعدها كل قوة من قوى الأرض ، ويرفض الخضوع لها إلا أن تكون هى مهتدية بهدى الله . ومنذ اللحظة الأولى للبعثة المحمدية أخذت المرأة وضعها الإنسانى والاقتصادى والاجتماعى ، فاتصلت بربها مباشرة ، وصار لها حق الملك والتصرف والخطبة والزواج [وطلب الطلاق أيضاً] وصارت تجادل عن حقوقها [« قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله . والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير »][1] ثم نزل الوحى بإنصاف المرأة وتثبيت حقها الإنسانى فى الحياة .. ومع ذلك فهذا التحرر لم يفسد المسلمين . وإنما فسدوا يوم طغوا على كيان المرأة فخنقوا كيانها المتحرر وغلفوها بعبودية لغير الله ظالمة ، وبتأخر وقذارة وانحطاط ..

ومن ثم فكل « العوامل » التى ينسب إليها هواة التفسير المادى للتاريخ « تطور ! » المفاهيم الخلقية فى القرنين الأخيرين كانت — فى صورة ما — موجودة فى المجتمع الإسلامى فلم تفسده ، بل كانت دعامة من دعائم الأخلاق فيه .

إنما كانت هناك أمة مؤمنة . على هدى من دينها . راشدة لا تستمع للتوجيه اليهودى الماكر الخبيث . ولذلك لم تفسد بهذه العوامل المزعومة ، بل تماسكت وصعدت على استواء .

ولو حدث « الانقلاب » الصناعى فى أمة مسلمة مؤمنة مهتدية ، فقد كان حريا أن يقوّم أخلاق الأمة ويزيد تماسكها ، لا أن يفرط عقدها ويحل أخلاقها ويطلق فتيانها وفتياتها كالبهائم الشاردة لا تشبع من السعار المجنون ، بينما الحيوان ذاته محكوم بفطرة مضبوطة لا تنحرف عن خطها القديم :

---

(١) سورة المجادلة [١]

إنما « حضارة » الغرب الملحدة الكافرة هى المسئولة عن التحول الهابط ، وليست وسائل الإنتاج ولا حتمية التاريخ !

وعلى أى حال فكل جدلٍ زائفٌ بعد شهادة التاريخ !

* * *

ونريد أن نخلص من الموضوع إلى غايته ..

لقد رأينا أن هناك أربعة أنواع مختلفة من التطور :

التطور المادى — التطور الاجتماعى — التطور النفسى - التطور [أو التغير] الأخلاقى .

ورأينا أن مردها جميعا فى نهاية المطاف إلى الفطرة . كما رأينا أن الفطرة شىء ثابت رغم تعدد الأشكال وتطورها على الدوام .

وهنا شبهة ينبغى أن نزيلها بقوة .

إن قولنا المكرر الملحّ بأن الفطرة ثابتة لا يعنى قط أننا نلغى من حسابنا قيمة التطور .

إننا إن ألغينا قيمة التطور فإننا نلغى حقيقة الإنسان ! فالإنسان مخلوق ليتطور على الدوام . والتطور أبرز ما فى فطرته ، وأشد ما يميزها عن فطرة الحيوان! وعن كل فطرة ثابتة الكيان .

كل ما فى الأمر أننا نرد التطور الدائم إلى الفطرة الثابتة الجوهر . ونرى — فى ذات اللحظة — الجوهر الثابت والصورة المتغيرة حقيقتين متجاورتين ، أو حقيقة واحدة شاملة تفسر كل نشاط الإنسان .

ثم نحكم على الإنسان — فى تطوره — بالمقياس الثابت الذى تقدمه الفطرة ! وهذه الحسبة الرياضية المعقدة فى ظاهرها — أو المتناقضة — بسيطة جداً حين نمثل لها فى كل من الأنواع الأربعة السالفة من التطور .

فمقياس الفطرة الثابت بالنسبة للتقدم العلمى أنه يسير فى خط صاعد أبدا . وبهذا

المقياس ـ الثابت ـ نحاسب الإنسان . فكل إنسان يأخذ بنتائج العلم فى تقدمه النظرى والعملى فهو سليم الفطرة سائر فى الطريق الصحيح . وكل إنسان يرفض ـ لأى سبب ـ الاستفادة من ذلك التقدم فهو منحرف الفطرة فى حاجة إلى علاج.

ومقياس الفطرة الثابت بالنسبة للتقدم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى أنه ينحو دائما نحو التشابك والتعقد ، والمفروض فيه أن يعمل على التوازن بين مختلف طاقات البشرية ونوازعها . فكل جيل من الناس يصلون إلى هذا التوازن ، فتنضج نظمهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على توازن : توازن بين الفرد والمجتمع ، وبين الطاقة المادية والطاقة المعنوية ، وبين السلبية والإيجابية ... الخ ...الخ فهو جيل سليم الفطرة سائر فى الطريق الصحيح. وكل جيل يرفض النضوج الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، أو ينحرف عن التوازن فهو جيل متخلف أو منحرف . فى حاجة إلى علاج .

ومقياس الفطرة الثابت فى التطور النفسى هو النمو الدائم نحو النضوج والتكامل والشمول والتوازن . فكل فرد أو جيل يتجه نحو هذا اللون من النمو فهو سليم الفطرة سائر فى الطريق الصحيح . وكل فرد أو جيل يثبت على درجة معينة من النمو — متخلفة — أو يتقدم ببعض جوانب نفسه ويتأخر ببعض ، أو يفقد توازنه ، فهو منحرف الفطرة فى حاجة إلى علاج [والمقياس الواضح المحسوس هو القمة التى وصلت إليها البشرية على هدى الإسلام مع إضافة ما يجد بطبيعة الحال من تقدم علمى وتقدم فى أشكال المجتمع ، وهو أمر تدعو إليه طبيعة الإسلام ، فمن اتجه نحو هديها فهو سائر فى الطريق الصحيح ،ومن انحرف عنها فهو منحرف معتل] .

ومقياس الفطرة الثابت فى الجانب الخلقى أن يكون الإنسان إنسانا ! وهو مقياس مستمد من الفطرة ! فالإنسان قبضة من طين الأرض ونفخة من روح

الله ، ممتزجتين مترابطتين فى كيان موحد . له دوافعه وأشواقه . دوافع الجسد وأشواق الروح . له نزعاته الفطرية من طعام وشراب وملبس ومسكن ، وجنس وتملك ، وصراع وبروز .. وله « قيم » تجعل لجميع الأعمال غاية وهدفا ، ولا تكون هى هدفا فى ذاتها كما يحدث فى عالم الحيوان . وهدفا واعيا مدركا بما يتناسب مع طبيعة الإنسان.. ثم إن له إلى جانب الدوافع ضوابط تضبط منصرفات الطاقة الفطرية وتنظفها دون أن تكبتها أو تقتلها من منبتها ، وهذه الضوابط فطرية كالدوافع سواء بسواء ، يستخدمها الإنسان السوى استخداما فطريا غير مفروض من الخارج [وإن كانت تنمية الضوابط فى حاجة إلى عون خارجى بالتربية ، كالقدرة على النطق والقدرة على المشى ، فطريتان كامنتان فى الجسم . ولكنهما تحتاجان إلى العون الخارجى لتنتقلا من الحالة الكامنة إلى الوجود الواقعى] . وفى هذه الفطرة خطوط متقابلة : الخوف والرجاء . الحب والكره . الحسية والمعنوية . الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بالغيب . الواقع والخيال . السلبية والإيجابية . الالتزام والتحرر . الفردية والجماعية .. وهذه الخطوط مهمتها أن تعدد جوانب الإنسان وتوازن نشاطه .. ثم إن فى صميم الفطرة أن تهتدى إلى خالقها ، فتعرفه وتتصل به وتقبس من نوره وتهتدى بهديه وتتعبد له وحده .. ومن هذه القاعدة تنبثق كل مبادىء الأخلاق(١) فمن سار عليها فهو سليم الفطرة سائر فى الطريق الصحيح . ومن انقلب عليها فهو منحرف هابط مرتكس إلى مستوى الحيوان !

* * *

وهواة التفسير المادى للتاريخ يجادلون أشد الجدل فى هذه الدلالات . وفى الدلالة الخلقية خاصة . يجادلون فى أن ماحدث فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين هو انحراف عن الفطرة . ويقولون إنه تطور، وإنه صاعد، وإنه سليم !

---

(١) انظر بالتفصيل كتاب الدراسات .

ولقد سمعنا من قبل شهادة التاريخ لتزييف قصة التطور ، فأثبتت لنا هذه الشهادة أن ماحدث فى العصر الحديث لم يكن « تطورا » فريدا فى بابه ، ناجما عن الظروف المادية الخاصة بهذا العصر ، إنما كان له شبيه فى حياة الإغريق والرومان من قبل ألفين من السنين !

فالآن .. لكى نتأكد من دلالة الفطرة بالنسبة لهذا « التطور » المزعوم.. هل هو انحراف عن الفطرة وارتكاس إلى الحيوانية المريضة ، أم تطور صالح يسير مع فطرة الإنسان ..

بل .. لكى نتأكد من وجود فطرة على الإطلاق يرجع إليها فى قياس المسائل الخلقية .. فطرة ثابتة تقول لا ، ونعم ، فى كل مرة ، عن قواعد ثابتة مكينة فى كيان الإنسان ..

لكى نتأكد .. فلنستمع إلى شهادة القرن العشرين !

شهادة القرن العشرين

كما استمعنا من قبل لشهادة التاريخ ، لنثبت أن ما يسمى « تطورا » خلقيا فى القرن العشرين ، ناشئا من « التقدم » العلمى والصناعى والاجتماعى . . الخ ليس شيئاً فريدا فى التاريخ ، وإنما كان له شبيه من قبل . . نستمع الآن لشهادة القرن العشرين ذاته ، لنرى هل هو « تطور » أم انحراف !

إن الدفعة التى نفخ فيها ماركس وفرويد ودركايم ، وغيرهم ممن يحذون حذوهم ، قد أفهمت هذا الجيل من البشرية أنه حين ينفلت من إطار الدين ، وينسلخ من قواعد الاخلاق — فى مسائل الجنس على الخصوص — ويأبى التقيد بشىء على الإطلاق مما كان فى الماضى .. حين يصنع ذلك فهو « يتطور » . أى يرتقى و يتقدم إلى الأمام . .

وفهم هذا الجيل من البشرية أنه « مطالب » بتحطيم ذلك كله : الدين والأخلاق والتقاليد . . وأنه لن يرتقى و يتقدم حتى يأتى عليها جميعا و يقتلعها من جذورها . وأنها « معركة مقدسة » يخوضها هـذا الجيل ضد الرجعية والجمود والتأخر .. ضد الجهل والخرافة والأسطورة .. ضد «القيد» الذى يعوق الانطلاق.

وكانت الشياطين تنفخ فى روح الجيل من جوانب متعددة فى آن واحد . . أو إن شئت قل تنفخ فيها من كل جانب .

فالذى يتحدث فى علم النفس يقول إن الدين كبت .. ينبغى أن يحطم لكى لا يؤذى الكيان النفسى للفرد !

والذى يتحدث فى الاقتصاد يقول إن الاقتصاد الصناعى يحتاج إلى مجتمع « متحرر » من القيود الموروثة من المجتمع الزراعى ، ومن بينها كذلك احتجاز المرأة لمهمة الأمومة ! إذ ينبغى — فى المجتمع الصناعى — أن تخرج المرأة تعمل !

والذى يتحدث فى الاجتماع ينظر بعين السخرية إلى تلك السذاجة التى كانت تخيل للناس أن الدين فطرة ! وأنه شىء منزل من السماء ! ألا يعلم الناس أن البشر هم الذين ابتدعوا الدين أيام جهالتهم وسذاجتهم ؟! انظروا إلى المجتمعات المتأخرة التى ما تزال تعيش فى الأحراش فى أفريقيا واستراليا . . وستجدون بذرة الدين هناك . فى الجهل والسذاجة والخرافة والأسطورة . . ثم انظروا إلى التقدم الحضارى فى القرن العشرين ! أما تستحون من أن يكون فى ضمائركم ووجداناتكم بقية مما ورثتموه عن سكان الغابات والأحراش ؟ !

والذى يتحدث عن العلوم .. العلوم البحتة، لا ينسى الدين كذلك ! إنه يذكر الناس بيوم كان الناس متدينين فكانوا لجهالتهم الشديدة ينسبون ما يحدث فى الكون كله إلى الله ! يا لجهالتهم ! لم يكونوا يعرفون القوانين الطبيعية التى تحكم الكون . . أما « نحن » العلماء فى القرن العشرين . .

والذى يتحدث فى الفن . . يزرى بتلك الأيام التى كان التحدث عن الجنس فيها يعتبر « عيبا » تأباه الأخلاق ! تباً لكم أيها المتأخرون ! كم كنتم تحجبون من ألوان الجمال الممتع البهيج الأخاذ ! انظروا إلينا نحن المتحررين ! اليوم نحن نجعل الجنس فنا قائما بذاته .. لحظة الجنس « كون » كامل .. تعالوا نتتبعه من جميع أقطاره . . تعالوا نصفه داخل النفوس وفى واقع الحياة . . تعالوا نكشف متعه ومباهجه . . تعالوا نعرّ الناس ذكورا وإناثا ونطلقهم ينشطون نشاط الجنس . . ونمسك الكاميرا للتسجيل .

أما الذى يتحدث فى «التطور» .. فهو يدخل الميدان من كل باب. من أى باب. يتحدث ليقول إن الدين « ظاهرة » تاريخية ! تمر بها البشرية فى دورها الطبيعى وتبرأ منها بمضى الأيام ! [كالحصبة التى تصيب الطفل مثلا ! !] ولكنها إذ تبرأ منها تتحصن ضدها ، فلا تعود إليها بعد ذلك أبداً ! «فالمصل» المضاد للدين هو العلم . هو المعرفة . وهو اليوم متيسر بعون الله — بعون الشيطان (!) —

فى كل مكان . فى المدرسة . فى السينما . فى الإذاعة . فى التليفزيون . فى الصحافة فى الأدب . فى الفن . . فى كل مكان يجد الإنسان المصل الواقى من الدين !

وهكذا دخل فى روع هـذا الجيل من البشرية أنه لامناص ! إما الدين والرجعية والتأخر والتخلف الاقتصادى والاجتماعى والخرافة . . وإما الانطلاق والتحرر والنشاط والحركة والمعرفة والتقدم العلمى والاقتصادى والاجتماعى . . بلادين ! . . فمن ذا الذى يرمى نفسه إذن فى هاوية الظلمات وهو يرى مرتقى النور ؟!

كلا !

فمن شاء له مزاجه المنحرف أن يتدين .. فلا بأس ! نحن فى عصر «الحرية» . ومن الحرية أن نترك كل صاحب مزاج لمزاجه . ولو كان منحرفا ! نعم . فهذه هى الحرية . فمن شاء أن يتدين فما عسانا أن نصنع له ؟ لاشىء . ولـكن لابد من تحصين المجتمع ضد الجرثومة الفاتـكة . . نقدم المصل الواقى من الرجعة إلى الوباء الفتاك . نقدم « تنظيمات » عملية تجعل هذه الرجعة مستحيلة ، وتتركها حالات فردية غير مخشية الانتشار . « فالاختلاط » على نطاق واسع كفيل — بذاته — أن يحطم هذه العقدة اللعينة . . عقدة الدين . فى لحظة الاختلاط . . وسط المغريات ، والأنفاس الحارة والشواظ المتلمظ . . والجسد ملاصق للجسد وتواق إليه .. فى الخلوة والزحمة سواء .. فى تلك اللحظة من ذا الذى يذكر دينه ؟! يذكره ليحرمه من تلك المتعة المتاحة؟ وى ! ومن ذا الذى يرتـكب هذه الحماقة؟! خلّ الدين للحظة أخرى . . خل الدين لساعة الخلوة . ساعة لايحرمنا فيها الدين من المتاع . . مثلا للحظة الـكنيسة ! ومع ذلك تلاحق الشياطين نفوس الشباب حتى فى هذه الخلوة الروحية فى داخل الـكنيسة ، فما يكاد « الأب » ينتهى من « الموعظة » فى الـكنيسة الأمريكية ، حتى يطفىء الأنوار الـكبرى ، ويضىء المصابيح الخافتة المغرية بالخلسة ! ويدير اسطوانات الرقص للشباب والفتيات . . بنفسه . . ليتطور ! هل يصح أن يبقى الدين فى عزلة عن المجتمع ؟ ! !

الاختلاط على نطاق واسع . . هو صمام الأمن ضد الدين . إنه يأكل هذه الجرثومة أكلا كما تقتل مضادات الحيوية الجراثيم (Anti - Biotics !) . . إنه يزيحها من مكمنها فى أعماق النفس ، بأن يضع إلى جوارها متعة الشهوة العارمة المتجددة النشيطة .. أنشط ما فى كيان الإنسان حين يطلق لها العنان !

فليكن الاختلاط على نطاق واسع إذن هو « شعار » المجتمع « المتطور » ..

وليكن السؤال هكذا فى كل مكان فى الأرض : مجتمع مختلط؟ أم رجعى؟!

ويكون رد الفعل بطبيعة الحال هو نفى التهمة الشائنة عن النفس . من ذا الذى يرضى لنفسه التهمة وسوء السمعة وسوء الحال ؟

وليكن معنى « الروح الجامعية » فى الجامعة هو الاختلاط ! لأى مدى يختلط الطالبات والطلبة ؟ لأى مدى تستطيع البنت أن تنتقى ولدا من هؤلاء وتجلس معه على حشائش الجامعة أو فى « البوفيه » .. فترة ريثما تنتهى الدروس ويخرجان .. ويذهبان .. أين يذهبان .. ؟ !

وليكن توظيف المرأة فى المصانع والمتاجر والدواوين « سياسة » .. ليكون الاختلاط طابعا « رسميا » للمجتمع .. وتكون نتائجه « الحتمية » هى القضاء على الجرثومة الخبيثة الملعونة .. ملعونة لأنها بعد أن تبدو أنها قتلت قتلا كاملا . . تعود !

وليكن الأدب والفن والإذاعة والسينما والتليفزيون والصحافة . . بكل ما تملك من قوة « الدعوة » ومغريات العرض والتشويق ، أداة فى يد تلك السياسة ، توجهها حيث يراد لها التوجيه .

الاختلاط . البهجة . المتعة . التحرر . . أيها « الرجل » هل تكره « الاستمتاع » ؟ ! أيتها « المرأة » ألا تحبين أن تثبتى « ذاتك » ؟ . . إنك فى حقيقة الأمر لطيفة ومغرية . . « جذابة » ولكنك لا تجربين سحرك .

جربى .. هل تعلمين أنك لو تأنقت فى ملبسك وتزينت فإن هذا الرجل سيلتفت إليك . . سيعجب بك . سيتجه إليك بعواطفه . سيحبك . قد يتزوجك . لم يرض ؟ جامد . . رجعى . . متحجر .. جربى مع الآخر .. رضى ؟ ألم نقل لك ! لقد نجحت فى إثبات ذاتك . . ياله من انتصار . . الآن قد نزلت الميدان . . فلا تنكصى على عقبيك !

يابيوت الأزياء .. يامصانع الزينة . يابيوت « الجمال » .. إياك أن تكفى لحظة لكى لا « يبرد » الشواظ المنطلق المسعور . . لاتكفى عن إزجاء المغريات . ياسلام . فستان يجنن عقول الرجال . فتنة . إغراء . . من يتماسك أمام هذا الإغراء ؟ الصدر المكشوف المغرى . من يصمد للفتنة ؟ الساق العريانة . . الرقصة والثنية فى المشية . . الرنة فى الصوت الناعم .

أيتها البنت . . إياك أن يحجزك أبوك عن « تحقيق ذاتك » . . مالأبيك ومالك ؟ ثورى . إرمى فى وجهه تقاليده البالية . تمسكى بالتحرر . قولى له إن عارضك : إنك من جيل رجعى . أنا من جيل « متطور » .

أيها الولد . تريد أن تتدين ؟ ! يامجنون ! تحرم نفسك ؟ ! عش واستمتع ! هيا أقدم ! تنتظر لك ! خذها ! حقق ذاتك !

* * *

وهكذا تبلورت فكرة « التحرر » حول ذلك التحلل الخلقى ، الذى لايسمى بطبيعة الحال تحللا لكى لايفسد مفعوله . وإنما يسمى « تطورا » ليظل مفعوله قائما على الدوام .

التطور . . معناه الانفلات من قيود الدين وقيود الأخلاق . وقيود التقاليد . وقيود « الإنسان » !

فإذا قام مجنون يحاول وقف التيار الجارف من الانفلات والتحلل تصايحت حوله الأصوات ،ألوف الأصوات وملايين الأصوات ،تهزأ به وتسخر ،وتصمه بكل تهمة شنيعة لكى يكف . . لكى لايفسد المفعول !

رجعى . متأخر . جامد . متحجر . جاهل . متهوس . مجنون . يريد أن يرجع عقارب الساعة إلى الوراء . يريد أن يوقف عجلة التطور .

العجلة ستدوسه .

ستدوسه « حتمية » التطور !

فهو ليس تطورا فقط . وإنما هو كذلك حتمى ! فلقد يخشى أن يقوم فعلا جماعة من « المجانين » يحاولون رد البشرية إلى صوابها ، وتذكيرها « بإنسانيتها » الشاردة المفقودة . فلا بد من الاحتياط من قيام مثل هذه الجماعة فى أى مكان على الأرض ، تعيد نشر الجرثومة الخبيثة الملعونة ، التى تبدو أنها قتلت قتلا كاملا . ثم تعود !

فإذا كان الاختلاط على نطاق واسع هو المصل الواقى من الدين فى نطاق الواقع العملى .. « فالحتمية » هى المصل الواقى من الرجعة إليه فى نطاق «الفكر». ومن هنا نكون احتطنا للأمر من كل جوانبه فى عالم الفكر وعالم الواقع سواء . ومن قام بعد ذلك يقف فى طريق « الحتمية التاريخية » و « حتمية التطور » ، فلا يلومن إلا نفسه . يذهب مزقاً فى الآفاق .

* * *

ومضت الموجة العاتية تكتسح فى طريقها كل شىء . . وبدت فعلا ذات قوة « حتمية » مروعة . . لايقف فى سبيلها شىء ..

ونبت جيل فى أوربا وأمريكا متحلل من كل قيد .. حقيقة .. لا يربطه رابط من خلق أو دين أو تقليد فى مسألة الجنس . لاشىء على الإطلاق يقول له : أمسك . كل شىء يقول له : أقدم .

كل التوجيهات وكل « التنظيمات » وكل التيارات تهيء له الانطلاق الجنسى وتزينه له وتدفعه إليه .

وصار أمراً طبيعياً جداً ، وهيناً جداً ، ومعروفا جداً أن تتخذ كل فتاة « صديقـا » (Boy Friend) وكل فتى « صديقة » (Girl Friend) يقضيان معاً « ضرورة » الجنس بصورة من الصور تبلغ حد العلاقة الكاملة بلا حواجز إن شاء وإن شاءت . . وحبوب منع الحمل تيسر الطريق .

و « استمتعت » أوربا وأمريكا بنتائج « الاختلاط » كاملة .. حتى الثمالة .

وبدا للناس هناك أن هذا هو الأمر « الطبيعى » الذى لا يستنكر . لِمَ يستنكر ؟

ما المانع ؟ هل هناك مانع « حقيقى » يمنع من هذا السلوك ؟

الدين ؟ تلك الخرافة القديمة الذميمة ؟ لقد « عجز » الدين عن وقفه « التطور » . عجز عن الوقوف فى وجه « الحتمية » التاريخية . فكيف نلتفت إلى هذا العاجز الذى يختنق صوته بين الأصوات ؟

الأخلاق ؟ قيم وضعتها أجيال عابرة . قد ذهبت . لن ترجع . أنّى للماضى أن يحكم الحاضر ؟ أنى للموتى أن يحكموا الأحياء ؟ ألسنا نحن الأحياء ؟ هل هى حياتنا نحن أم حياة أولئك الذين ماتوا وانتهت مهمتهم فى حياة البشرية ؟ لقد كانوا يتحدثون بظروف أيامهم . ونحن نتحدث بظروف أيامنا . بالذرة . بالصاروخ .

ماذا ؟ ما المانع ؟ أى شيء يضيرنا ؟ المجتمع يزداد « تقدما » كل يوم . الاختراعات مستمرة . العلم يقتحم كل يوم أفقاً لم يقتحم من قبل . الإنتاج يزيد . وسائل الراحة والتيسير متوالية تترى .

« الإنسان يصنع نفسه »[1]

لاحرج. ولا قيد. ولا رجعة.

الحياة تجارب. وتلك تجربة القرن العشرين. أروع تجربة فى تاريخ البشرية. تجربة يقوم بها « الإنسان » بعيداً عن وصاية « الله ». لقد شب عن الطوق. ماحاجته اليوم إلى الله أو الدين؟ إنه هو الإله الجديد، يصنع دينه بنفسه بعيداً عن إيحاءات الدين الموروث.. دين القرون الوسطى فى عصر الظلمات[2]

ولم يفكر أحد فى أثناء الدفعة المسعورة التى تنفخ فيها الشياطين، أن هناك « فطرة » للإنسان تتأذى من هذا الانحراف المجنون..

« فطرة »...؟!

هل بعد هذا العلم كله، والتقدم كله، والانطلاق كله، والتحرر كله.. يجيء من يحدثنا عن الفطرة؟

فطرة ماذا؟!

ألم تقرأ التفسير المادى للتاريخ؟ ألم تعلم أنه ليس هناك كيان ثابت يسمى الإنسان؟ وأن الإنسان هو حصيلة ظروفه الاقتصادية والاجتماعية.. والمادية. وظروف اليوم غير ظروف الأمس. فحصيلتها مختلفة ومؤدى هذا الاختلاف أن تجارب الماضى لاتقيد إنسان القرن العشرين، ولا يحكم بها على نشاطه وأعماله. إنما يستمد الحكم الجديد من الوضع الجديد..!

الفطرة..؟!

بل الفطرة ذاتها — إن شئت أن تستخدم هذا اللفظ الرجعى المتأخر —

(١) « Man Makes Himself » عنوان كتاب لمؤلف أمريكى يدعى « جوردون تشايلد » V. Gordon Childe

(٢) يقول جوليان هكسلى فى كتابه (الإنسان فى العالم الحديث) Man in the Modern World: ولقد كان الإنسان فى العصور السابقة يلقى العبء على كائن مقدس غير مفهوم يسير الأمور بطريقة غامضة. أما الآن فيجب عليه ألا يفعل ذلك نظرا لزيادة معرفته بحقائق الكون. ومعنى ذلك قيام الإنسان بالتبعات التى كان من قبل يلقيها على الإله (ص ٢٢٤ من الترجمة العربية)

هى التى تدفع إلى هذا الانطلاق . فالجنس عملية « بيولوجية » بحتة . مادخلها بالأخلاق ؟ هذا منطق الفطرة ! هل الكلب وأنثاه ، يعرفان فى لحظة الجنس شيئاً اسمه الأخلاق ؟ وماذا يزيد الإنسان عن الكلب ؟ أوهام صنعتها الأديان !!

الفطرة . . لا فطرة . أو إن شئت فهاتيك الفطرة . نحن نعيش على الفطرة على الدوافع الفطرية . بلا كبت أو ضغط أو حرمان !

* * *

ومضت الموجة العاتية إلى قمتها . . لايضبطها شىء أو يمسكها عن تحطيم « الإنسان » !

الحتمية . . من ذا يمكن أن يقف الحتمية ؟

ثم . . لماذا يوقفها ؟

العيش لذيذ فى ظل « التطور » . . انفلات بلا قيود . . وانطلاق بلا حدود . متعة ..

ومن الذى يتجه إلى وقفها ؟ البنت المجنونة بالإغراء لتثبت ذاتها وتحقق كيانها ؟ أم الولد الغارق فى المتاع الميسر اللذيذ الذى لايكلف دراهم معدودات ؟

أم بيوت الأزياء ودور السينما والمخرجون والمنتجون وال . . الذين يعملون فى تلك الصناعة الرابحة بالملايين ؟

أم « الأدباء » و « الفنانون » الذين تروج كتبهم وأعمالهم فى هذا السعار المجنون ؟

أم الشياطين الذين يقودون البشرية إلى الدمار ؟

كلا !

* * *

ومع ذلك . . يقف أناس ليصيحوا صيحات النذير !

يقف أناس ليقولوا : قد جاوزنا المدى وأبعدنا في التيه !

يقف أناس ليقولوا : عودوا إلى « الفطرة » . عودوا إلى الأخلاق . عودوا إلى الفرامل . فأنتم تدمرون أنفسكم . تدمرون مستقبلكم . تدمرون « البشرية » !

أناس من اتجاهات شتى . . ليس فيهم واعظ من رجال الدين !

رجال « علم » ورجال « سياسة » . وفلاسفة . وملحدون !

وتتوالى الشهادات من تلك الأفواه . . أفواه القرن العشرين !

* * *

يقول . . « ألكسس كاريل » في كتابه « الإنسان ذلك المجهول » :

« إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا . لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية . إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ورغباتهم . وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا [ص٣٨]

« يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء . ولكن الواقع هو عكس ذلك . فهو غريب في العالم الذي ابتدعه . إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته .. ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية .. فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسة لقوامنا ، ولا بالنسبة لهيئتنا .. إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا .. إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف ، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها .. » [ص٤٣ — ٤٤]

« إن الحضارة لم تفلح حتى الآن فى خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلى . وترجع القيمة العقلية والروحية المنخفضة لأغلب بنى الإنسان — إلى حد كبير — للنقائص الموجودة فى جوهر السيكلوجى . إذ أن تفوق المادة ومبادئ « دين الصناعة » حطمت الثقافة والجمال والأخلاق » [ص ١٨٤]

« لقد ارتكب المجتمع العصرى غلطة جسيمة باستبداله تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالا تاما . ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة، حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن ، أو مطامعهن الاجتماعية ، أو مباذلهن ، أو هوايتهن الأدبية أو الفنية ، أو للعب البريدج ، أو ارتياد دور السينما .. وهكذا يضيعن أوقاتهن فى الكسل . إنهن مسئولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التى يتصل فيها الطفل بالكبار ، فيتعلم منهم أموراً كثيرة .. إن الكلاب الصغيرة التى تنشأ مع أخرى من نفس عمرها فى حظيرة واحدة ، لا تنمو نمواً مكتملا كالكلاب الحرة التى تستطيع أن تمضى فى إثر والديها . والحال كذلك بالنسبة للأطفال الذين يعيشون وسط جمهرة من الأطفال الآخرين وأولئك الذين يعيشون بصحبة راشدين أذكياء . لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجى والعقلى والعاطفى طبقا للقوالب الموجودة فى محيطه . إذ أنه لا يتعلم إلا قليلا من الأطفال فى مثل سنه . وحينما يكون مجرد وحدة فى المدرسة ، فإنه يظل غير مكتمل . ولكى يبلغ الفرد قوته الكاملة فإنه يحتاج إلى عزلة نسبية ، واهتمام جماعة اجتماعية محددة تتكون من الأسرة » [ص ٣١٨ — ٣١٩]

« من المعروف أن الإفراط الجنسى يعرقل النشاط العقلى . ويبدو أن العقل يحتاج إلى وجود غدد جنسية حسنة النمو ، وكبت مؤقت للشهوة الجنسية حتى يستطيع أن يبلغ منتهى قوته .. ولقد أكد فرويد ، عن حق ، الأهمية القصوى للدوافع الجنسية فى وجوه نشاط الشعور . ومع ذلك فإن ملاحظاته تتعلق بالمرضى

على الأخص .. ومن ثم يجب ألا تعمم استنتاجاته بحيث تشمل الأشخاص العاديين، وبخاصة أولئك الذين وهبوا جهازا عصبيا قويا ، وسيطرة على أنفسهم .. وبينما يصبح الضعفاء ، الممتلو الأعصاب ، غير المتزنين ، أكثر شذوذا عند ما تكبت شهوتهم الجنسية ، فإن الأقوياء يصيرون أكثر قوة ، بممارسة هذا الشكل من الزهد » [ص١٧٤] .

« الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير التى يفرضها المجتمع العصرى . ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات فى جسمه وشعوره ، وعرفنا أنه لايستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التى خلقتها « التكنولوجيا » وأن مثل هذه البيئة تؤدى إلى انحلاله . وأن العلم والتكنولوجيا ليسا مسئولين عن حالته الراهنة ، وإنما نحن المسئولون ، لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع. لقد نقضنا القوانين الطبيعية ، فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى . الخطيئة التى يعاقب مرتكبها دائما ... فالحياة لا تعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن فى ارتياد الأرض المحرمة .. هى إضعاف السائل .. ولهذا فإن الحضارة آخذة فى الانهيار » [ص٣٢٢] .

* * *

ويقول «ول ديورانت» الفيلسوف الأمريكى فى كتابه «مباهج الفلسفة» :

« وثقافتنا اليوم سطحية ، ومعرفتنا خطرة ، لأننا أغنياء فى الآلات فقراء فى الأغراض . وقد ذهب اتزان العقل الذى نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الدينى ، وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا ؛ ويبدو العالم كله مستغرقا فى فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب . إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التى أقلقت بال سقراط . نعنى كيف نهتدى إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التى بطل أثرها فى سلوك الناس ؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعى بهذا

الفساد الماجن من جهة ، وبهذا الجنون الثورى من جهة أخرى ، حين نفقد الفلسفة التى بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التى توحد الأغراض وترتب سلم الرغبات . . . »[1] [ص ٦ — ٧ ج ١]

« واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر فى تغير أخلاقنا . فقد كان القانون الأخلاقى قديما يقيد الصلة الجنسية بالزواج ، لأن النكاح كان يؤدى إلى الأبوة بحيث لايمكن الفصل بينهما ، ولم يكن الوالد مسئولا عن ولده إلا بطريق الزواج . أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية و بين التناسل ، وخلقت موقفا لم يكن آباؤنا يتوقعونه ، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة فى التغير نتيجة هذا العامل . و يجب على القانون الأخلاقى فى المستقبل أن يدخل فى حسابه هذه التسهيلات الجديدة التى جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة ! ... » [ص ١٢٥ ج ١]

« فحياة المدنية تفضى إلى كل مثبط عن الزواج ، فى الوقت الذى تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها ولكن النمو الجنسى يتم مبكرا عما كان من قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادى . فإذا كان قمع الرغبة شيئاً عمليا ومعقولا فى ظل النظام الاقتصادى الزراعى ، فإنه الآن يبدو أمرا عسيراً أو غير طبيعى فى حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال ، حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين . ولا مفر من أن يأخذ الجسم فى الثورة ، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان فى الزمن القديم . وتصبح العفة التى كانت فضيلة موضعا للسخرية ؛ ويختفى الحياء الذى كان يضفى على الجمال جمالا ، و يفاخر الرجال بتعداد خطاياهم ، وتطالب النساء بحقها فى مغامرات غير محدودة على قدم

(١) يلاحظ أن الكاتب — مع إقراره بأن حرارة الإيمان الدينى قد أنشأت ذات يوم اتزانا فى العقل — لايدعو ولايعمل لاستعادة حرارة الإيمان الدينى . إنما هو يلجأ إلى « الفلسفة » لتعيد اتزان العقل المفقود ! والفلسفة فى تاريخها الطويل كانت حصيلة ذهنية باردة ، لم تؤثر قط فى حياة البشرية المواررة . فالحياة البشرية لاتؤثر فيها إلا العقيدة الدافعة . ولكن الكاتب الغربى — الأمريكى — لايملك إلا هذا الحل الهزيل .. لأنه هارب من الكنيسة !

المساواة مع الرجال . ويصبح الاتصال قبل الزواج أمرا مألوفا ، وتختفى البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس . لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقى الزراعى ، ولم يعد العالم المدنى يحكم به[1] » [ص ١٢٦ — ١٢٧]

« ولسنا ندرى مقدار الشر الاجتماعى الذى يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسئولا عنه . ولا فى أن بعض هـذا الشر يرجع إلى مافينا من رغبة فى التعدد لم تهذب ... ولـكن معظم هـذا الشر يرجع فى أكبر الظن فى عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعى للحياة الزوجية . وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو فى الغالب ثمرة التعود قبله . وقـد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية فى هـذه الصناعة المزدهرة ؛ وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لامفر منه فى عالم خلقه الإنسان . وهذا هو الرأى الشائع لمعظم المفـكرين فى الوقت الحاضر . غير أنه من المخجل أن نرضى فى سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية ، وهى تعرض علينا فى المسارح وكتب الأدب المـكشوف ، تلك التى تحاول كسب المـال باستثارة الرغبة الجنسية فى الرجال والنساء المحرومين ، وهم فى حُـمَّـى الفوضى الصناعية ، من حِمى الزواج ورعايته للصحة .

« ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة . لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن فى ابتذال ظاهر . ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة فى هذه الفترة من التأجيل نظاما دوليا مجهزا بأحدث التحسينات، ومنظما بأسمى ضروب الإدارة العلمية . ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها . . » [ص ١٢٧ — ١٢٨]

(١) واضح أن الكاتب يسير هنا على هدى التفسير المادى للتاريخ ، فيفسر التحلل الخلق « بالتطور » الاقتصادى . ولن نناقش هذه « الشهادات » هنا ، وإنما ننقلها كما هى بغير تعليق ، لأن الذى يهمنا منها هو النتائج التى يصل إليها أصحابها فى النهاية ، من القول بأن هذا « التطور » أو أياً كان اسمه ، ينذر البشرية بالانهيار . وهى نتيجة مشتركة وصل إليها « الشهود » جميعا على اختلاف مذاهبهم .

« وأكبر الظن أن هذا التجدد فى الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم دارون على المعتقدات الدينية . وحين اكتشف الشبان والفتيات — وقد أكسبهم المال جرأة — أن الدين يشهر بملاذهم التمسوا فى العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين . . . » [ص ١٣٤]

« ولما كان زواجهما [الرجل والمرأة فى المجتمع الحديث] ليس زواجا بالمعنى الصحيح — لأنه صلة جنسيه لا رباط أبوة — فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذى يقوم عليه ، ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع . وينكمش الزوجان فى نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان . وتنتهى الغيرية الموجودة فى الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة المساخر . وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية فى التنويع ، حين تؤدى الألفة إلى الاستخفاف . فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته . . . » [ص ٢٢٥]

« لندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا . أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده . فنحن غارقون فى تيار من التغيير ، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا فى اختيارها . وأى شىء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم ، فالآن وقد أخذ البيت فى مدننا الكبرى فى الاختفاء ، فقد فقد الزواج القاصر [المقصور] على واحدة جاذبيته الهامة . ولا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر ، حيث لا يكون النسل مقصودا . وسيزداد الزواج الحر ، مباحا كان أم غير مباح . ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل ، فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شرا من عزلة عقيمة تقضيها فى أيام لا يغازلها أحد . سينهار « المستوى المزدوج » وستحث المرأة الرجل بعد تقليده فى كل شىء على التجربة قبل الزواج . سينمو الطلاق ، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة . ثم يصاغ نظام الزواج بأسره فى

صور جديدة أكثر سماحة . وعندما يتم تصنيع المرأة ويصبح ضبط الحمل سرا شائعا فى كل طبقة ، يضحى الحمل أمرا عارضا فى حياة المرأة ، أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت .. وهذا كل شىء »(١) .

[ص ٢٣٥ — ٢٣٦]

* * *

ونشرت جريدة « أخبار اليوم » فى عددها الصادر فى ١٢ مايو ١٩٦٢ ، تحقيقا صحفيا بعنوان « شباب العالم فى طريق الضياع ! » جعلت مقدمته هكذا :

«إلى أين يتجه شباب العالم ؟! فى أمريكا يرتفع ترمومتر الانحراف بين الشباب .. وفى بريطانيا تتألف عصابات من المراهقين للسطو وتدخين الحشيش . . وفى سويسرا يتزايد الانحلال .. وفى روسيا يجتمع المجلس الأعلى للسوفيت ليبحث مشكلة انحراف الشباب الروسى . . لقد أبرقت « أخبار اليوم » إلى مندوبيها ومراسليها فى عواصم العالم وطلبت منهم صورة كاملة عن الانحراف الجارف الذى يهدد شباب العالم . ! »

وهذا هو نص التحقيق :

من لندن كتب زغلول السيد :

إن جرائم من كل نوع يرتكبها الشبان فى بريطانيا كل لحظة . وهى جرائم تختلف باختلاف الطبقات . إذ أن بريطانيا هى أكثر بلاد العالم حساسية بالنسبة لنظام الطبقات . الصحف البريطانية تنشر كل يوم جرائم تقع فى مختلف أنحاء البلاد . وتصور لنا هذه الجرائم تلك الجريمة التى وقعت أخيراً عندما دخل بعض الشبان السينما ، ولم يعجبهم الفيلم فانهالوا على مقاعد السينما الوثيرة يمزقونها

---

(١) ألف الكاتب كتابه هذا سنة ١٩٢٩ ! وقد تحققت كل الصور التى توقعها الكاتب يومئذ ، فأصبح المجتمع الأمريكى كما توقعه بالفعل ، كما أن هذه الصور ذاتها تنتقل ـ بالعدوى ـ إلى المجتمعات « المتحضرة » التى تنقل حضارتها عن الغرب .

بالسكاكين ، ثم مزقوا الشاشة بأيديهم . وكانت النتيجة أن أغلقت السينما أبوابها . ولم يكن هذا الحادث هو الأول من نوعه . وإنما كان الثالث !

هجوم العصابات :

ومنذ أيام نظمت إحدى عصابات الشباب هجوما على عصابة أخرى وطعنت بالسكاكين عشرة من أفرادها . وقد أعد الهجوم كما تنظم الحملات العسكرية . فقد أرسلت عصابة « موسويل » بعض أفرادها للقيام بمهمة الاستطلاع ثم بدأ بعد ذلك الهجوم بالسكاكين والعصى والقضبان الحديدية والزجاجات المكسورة . وكان أفراد العصابة الأخرى يرقصون التويست فى قاعة البلدية . وفاجأتهم عصابة « موسويل » بالهجوم وارتفعت صرخات الفتيات اللاتى كن يشتركن فى الرقص وسالت الدماء فى كل مكان .

جرائم الطبقة الدنيا :

ومثل هذه الجرائم هى التى يشتهر بها أفراد الطبقة الدنيا . وهى فى الواقع أفظع الجرائم وأكثرها إزعاجا . . . فالشبان المنحرفون من أفراد هذه الطبقة يتجمعون أحيانا فى عصابات كبيرة ويهاجمون القرى والمدن الصغرى ويتصرفون بالطريقة التى يشاهدونها فى الأفلام تماماً .

٥ شبان أمام القاضى :

وفى الأسبوع الماضى وقف خمسة شبان أمام القاضى الإنجليزى سيمور كولينز فى ويست لندن بتهمة الانحراف والبطالة . قال القاضى لجون بومونت (٢٣سنة) إنك شاب تتمتع بإمكانيات طيبة . ولكنك تترك نفسك تتهاوى وتزداد كسلا وخمولا حتى تصل إلى مرحلة لا يستطيع أحد أن يساعدك فيها .

وقال القاضى لبول إيفا « ٢٣ سنة » هل تعتقد حقاً أن أى شخص يمكن أن يستخدمك فى عمل . وأنت تترك شعرك يسترسل على جبينك ورقبتك ؟

وقال لشارلس ويستوود (٢١ سنة) يلزمك قدر كبير من المجهود لتجعل من نفسك إنساناً مهذبا .

تركت الكلية إلى الشارع :

ويرد الشبان بأقوال مختلفة . فالكولم دريك (٢٣ سنة) قال : « لقد ساعدنى أبواى على تحصيل قدر كبير من التعليم . ولكن فى منتصف مرحلتى الدراسية بالكلية بدأت أتساءل: ما الذى سأكونه فى المستقبل ؟ ورأيت نفسى مساعد صيدلى أجلس طوال اليوم وراء « البنك » وعندما تمعنت فى هذه الحياة لم أجد فيها كثيراً من السعادة . كل مافيها مرض وأدوية وحبوب مهدئة . . ولذلك فقد تركت الكلية ، وقررت أن أحيا طليقاً فى شوارع لندن وباريس ! »

احتقار الحياة . . بالإجماع :

إن هؤلاء الشبان جميعاً مجمعون على احتقار الحياة ، وكان مثل هؤلاء يموتون فى الشوارع من الجوع ، أما المتعطلون فى لندن منذ ثلاثين عاما الآن فإن المجتمع يساعدهم « على نحو ما » على الحياة .

يشرح أحدهم وهو شارلس ويستوود كيف يحصلون على نقود فيقول : « إن دخلنا الأسبوعى يتراوح بين ٣٠ و ٤٠ شلنا ، ونحن نحصل على المال من الفتيات اللاتى يشفقن علينا ، أو الفتيات اللاتى يشعرن بالسرور منا ، كما نحصل على المال من السياح الذين يريدون التقاط صور لنا ، أو من زائرى لندن الذين يريدون الاطلاع على خبايا الليل فى المدينة . أو من المثقفين الذين يقضون الليل فى مناقشتنا ، أو من الناس الذين يشعرون بالوحدة ويريدون رفيقا . أو باختصار من أى شىء مشروع ولكن بلا مجهود أو عمل . »

جرائم الحشيش :

وهذا النوع من الجرائم التى يرتكبها الشبان المتعلمون من الطبقة المتوسطة مثل تدخين «الحشيش» يتزايد باستمرار . ويجذب هذا النوع من الجرائم الفتيات

تماماً كما يجذب الشبان . ولكن لما كان من الصعب على الفتيات أن يحصلن على « الحشيش » فإنهن يلجأن إلى نوع من أقراص المخدرات الخفيفة . وتباع هذه الأقراص سراً فى بعض المقاهى والبارات . وقد اكتشف البوليس فى بلدة إيستبورن أن طالبات المدارس يتناولن هذه الأقراص . والسبب الذى أبدينه هو « الهرب من الحياة » (1) وأسوأ مناطق الإجرام والانحراف فى لندن منطقة « سوهو » التى تنتشر فيها أوكار المخدرات وحيث ترقص الفتيات التويست طوال الليل حتى إذا طلع الصباح يكون التخدير والإرهاق قد أعياهن فلا يهمهن بعد ذلك ماذا يحدث لهن !

مواجهة الجرائم :

والسؤال الآن : ما الذى تفعله بريطانيا لمواجهة هذه الجرائم المتزايدة ؟

لقد ذهبت إلى إدارة الأحداث المنحرفين بوزارة الداخلية . وقابلت مستر رومان مدير الإدارة الذى قال لى إن أسباب الجرائم تختلف من طبقة إلى أخرى . وإن أسوأ أنواع الشبان المنحرفين هم الشبان الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا . ولقد دل التحقيق على أن تربية الطفل مسئولة إلى حد كبير عن سلوكه . ولقد كانت الحرب مسئولة فى البداية . فقد هاجرت بعض الأسر أثناء الحرب وتركت أطفالها الذين لم يجدوا آباء أو أمهات يعتنون بهم . واتجه الكثيرون منهم إلى الجريمة .

ولا شك أن السينما والتليفزيون لهما تأثيرهما على الشبان أيضاً . لقد شنق صبى فى الثالثة عشرة من عمره صديقا له بجورب أمه . وعندما سئل عن السبب أجاب قائلا : « لقد رأيت شيئاً كهذا فى التليفزيون . »

---

(1) فى بحث حديث للدكتور ليبكن فى جريدة الصنداى تيمز الإنجليزية بتاريخ ٢٧ يناير سنة ١٩٦٣ يقول عن الشباب المنحرف الذى يتعاطى المخدرات هناك : « لأنهم يقولون أن الحشيش محاولة للتعبير عن أنفسهم ، ولتحديد ملامحهم فى مجتمع ضائع . فى عالم بلا شكل ! وهم يفخرون بأنهم قد فتحوا لنا باب لإدراك الخيال الإنسانى ! »

العلاج :

وقد أمرت الحكومة بإجراء تحقيق خاص فى مسألة الأفلام والمسرحيات العنيفة التى تعرض فى التليفزيون . ولكن هذا ليس السبب الوحيد فى انتشار جرائم الشباب . لقدقال لى مستر بومان إن الحكومة لم تستطع توفير التسهيلات اللازمة لكى يقضى الشبان أوقات فراغهم بطريقة مرضية ، ولذلك فإن الحكومة تشترك الآن فى مشروع كبير يهدف إلى بناء مزيد من الأندية وحمامات السباحة وغير ذلك من وسائل قضاء وقت الفراغ .

وفى نفس الوقت يشترك جيش كبير من الأطباء والإخصائيين الاجتماعيين والإخصائيين فى التربيةفى دراسةأسباب انحراف الشبان واحتياجاتهم ومشاكلهم.

صورة من سويسرا :

ومن سويسرا كتب إبراهيم سعدة :

الوقت الواحدة بعد منتصف الليل . الشوارع خالية تماما . . البرد يجمد الأطراف ويشل حركة الدم فىالعروق . وفجأة ظهرت سيارة قديمة مكشوفة ! . . لا تعرف لونها فهى مطلية بجميع الألوان الطبيعية وغير الطبيعية لوحة طائشة عبثت بها ريشة الفنان الغريب الذى يقلد بيكاسو . رسومات عجيبة . فوق هيكل السيارة . ونوافذها . وكل مكان فيها . حتى ليصعب عليك التقاط أرقامها . . أكثر من ٧ أشخاص كانوا يركبون هذه السيارة .

لا يمكنك أن تفرق بين الصبى والفتاة . الملابس واحدة . نفس البنطلون الضيق جداً الذى يحدد أكثر مما يخفى . نفس « البلوزة » الملونة بالأحمر والأخضر والهباب مع النبى . الشعر طويل ويصل إلى أعلى الدقن . . وإلى ماوراء القفا .

إلى داخل الشقة :

ثم وقفت السيارة أمام إحدى الفيلات المتناثرة فى إهمال أمام بحيرة جنيف . ويدور المفتاح المفقود فى القفل . . وتندفع المجموعة داخل الشقة — فى الدور الثانى من الفيلا — وتضاء الأنوار . . والشموع . . وتفرقع زجاجات النبيذ والبيرة والويسكى ثم يسكب كل هذا فى وعاء كبير لتكوين أعجب كوكتيل لم يسمع بمثله أمهر « متر دوتيل » حتى يومنا هذا ! وانسابت الموسيقى من الآلة الصغيرة التى تدور فوقها أحدث الأسطوانات الراقصة وغير الراقصة .. واختفت الأنوار . . واكتفت المجموعة بالشموع الملونة . . والأضواء غير المباشرة والتى تنبعث من خلف مقعد .. من وراء ستارة .. فوق دولاب ! ووضع كل «مخلوق» سيجارة أو سيجارا أو بيبة بين شفتيه . . وبدأت حلقات وسحب الدخان المتباينة تحلق فى سقف الغرفة الضيقة . وكان لابد من الرقص لتكتمل « الحفلة » . . ولم تتنبه المجموعة إلى أن الساعة قاربت الثالثة صباحا . . بل اختاروا أعنف أنغام راقصة كالروك أندرول .. وأجنها كالتويست ، وبدأوا يضربون بأقدامهم وأجسامهم فوق الأرض . . . ثم توزع أوراق « السكوتشينة » بالتساوى على اللاعبين . . ثم يسحب الأول ورقة من اللاعب الثانى فإذا وجد عنده مثلها ألقى بالورقتين على الأرض . . وهكذا حتى ينتهى الدور بأن تتبقى ورقة أخيرة فى يد لاعب فيعتبر الخاسر فى هذا الدور . . ويستحق توقيع العقاب عليه . . والعقاب الوحيد فى هذه اللعبة هو أن يقوم الخاضر بخلع أية قطعة من ملابسه . . فيبدأ عادة بخلع الجاكيت . . أو الكرافت . . أو الحذاء . . وهكذا حتى تنتهى اللعبة بأن يخلع اللاعبون ملابسهم كلها ويصبحون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم . . بين ضحكاتهم وصرخاتهم وغمزاتهم . . وتزداد هذه الصرخات فى حالة وجود فتاة أو أكثر ضمن « الشلة » . .

وسطاية أخرى . .

ولم تتنبه كل العائلات إلى نداء الصحافة ! إن بعضها لم يستفد من الدرس المؤلم الذى جاء بعد القبض على « شلة » المراهقين التى كتبتها فى بداية هـذا التحقيق ! الدليل . ؟ لقد عرفت سويسرا عصابات البلوفر الأسود . . إنها البدعة المستوردة من باريس .. الشباب الضائع الذى استطاع الهروب من سيطرة الآباء فعاش فى الشوارع والمقاهى والمواخير . . حياة بوهيمية لامعنى لها . . الأيام تمر وهو فى مكانه فى المقهى أو على الرصيف ، لا يشعر بها حتى تنتابه حالة من حالات الملل والضيق .. فيقرر أن يقدم على شىء يبعده عن هذا الضيق وهذا الملل ويقربه من الضياع . . أى شىء خارق للعادة ليلفت إليه الأنظار . . وتنشر صوره فى الصحف و يقفز اسمه إلى الصفحات الأولى .. ويتحدث عنه الناس فى كل مكان.

الشباب الضائع فقد زمامه :

هذه المشكلة لاتهم سويسرا وحدها . . وإنما تعانى منها معظم دول أوربا . بدأت الأزمة فى باريس . . فقالت الصحافة إن الشباب الفرنسى مظلوم إن السينما الأمريكية هى السبب . أفلام المغامرات والعصابات ورعاة البقر هى التى حطمت معنويات الجيل الجديد . إن المراهق الفرنسى يقلد آل كابونى .. ويحلم بالثراء بعد السطو على أحد البنوك على الطريقة الأمريكية التى يشترط فيها اختفاء جميع رجال الشرطة تماما من أمام البنك لحظة تنفيذ الخطة . آراء أخرى لاتوافق الرأى الأول وتقول إن السينما والأفلام الأمريكية مظلومة وبريئة من هذا الاتهام . وإن أهم أسباب انحراف الشباب فى فرنسا هو انحلال المجتمع نفسه . انعدام الروابط بين أفراد الأسرة . سياسة « عدم المبالاة » التى يطبقها الآباء فى تربية الأولاد . إن ترك المراهق وحده فى هذه الحياة المبكرة يدفعه إلى الحيرة . . والضياع . الأفلام المثيرة تؤثر فيه .. التصرف الخاطىء يجد فيه نوعا من المغامرة .

حفلات ساهرة وألوف الجنيهات :

ففى كل شهر — على الأكثر — تقام فى باريس حفلة ساهرة للشباب يغنى فيها جونى هوليدى الذى لا يزيد عمره على ١٨ سنة ومطرود من المدارس الإعدادية وصاحب مئات الألوف من الجنيهات الآن ! ويتسابق أكثر من ١٠ آلاف مراهق ومراهقة لسماع هذا المغنى.. برغم ارتفاع ثمن تذكرة الدخول. تبدأ السهرة فى التاسعة مساء ولا تنتهى إلا بعد تدخل البوليس والمطافىء والإسعاف والآباء !

وتسيل الدماء ويسقط العشرات قتلى وجرحى !

الرقابة الدقيقة :

وعلماء النفس يطالبون أولا بالعلاج الوقائى . . يطالبون بفرض الرقابة الصارمة على الأفلام السينمائية . . سلسلة الأفلام الإباحية المنحلة التى تخرجها فرنسا وألمانيا وإيطاليا يجب أن تتوقف . . أن يمنع عرضها تماما لا أن يقتصر على تحديد سن المتفرج بعمر معين. هذه الرقصات الانحلالية يجب أن تمنع من التلفزيون ومن المحال العامة . . والقبض على المنحل جونى هوليدى وأمثاله وإيداعهم إصلاحيات يتربون فيها .

جرائم الأحداث فى أمريكا :

ومن واشنطون كتب فريد زوسى :

سجلت جرائم الأحداث فى الولايات المتحدة ارتفاعا ملحوظا فى العام الماضى كعادتها منذ ١٢ سنة على التوالى حيث بلغ عدد الأولاد الذين مثلوا أمام محاكم الأحداث حوالى المليون . بعد أن كان هناك ٧٧٣ ألف قضية أمام محاكم الأحداث فى عام ١٩٥٩ .

ومشكلة الأحداث تثير الأمة الأمريكية . ولا سيما بسبب امتدادها إلى الطبقات العليا فى المجتمع . كما أن هناك نسبة عالية من الانحراف بين الفتيات ، ويثرن مشكلة كبيرة فى كيفية التصرف معهن لأن معظم مؤسسات الأحداث خاصة بالأولاد .

وقد ألقى البوليس أخيراً القبض على مجموعة من الأولاد تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ١٧ سنة من أغنى العائلات متهمين فى ١١ تهمة سرقةوأربع تهمات اقتحام منازل ، وتهمتين بسرقة سيارة ، وعشر تهمات تخريب وتدمير . وفى نيوجرسى قبض البوليس على عصابة تضم ١٧ من الأحداث بتهمة سرقة أشياء ثمينة تقدر أثمانها بحوالى ١٠ آلاف دولار وبيعها بأثمان بخسة . وقد اعترفوا بأنهم يتلقون من آبائهم أموالاً كافية تجعلهم فى غنى عن السرقة ، وأنهم أقدموا على السرقة لأنها « شيء مثير » . وفى ويست شستر وهى إحدى الضواحى الغنية بمدينة نيو يورك اتهم المدعى العام أكثر من ٢٥٠ شاباً معظمهم من العائلات الغنية المعروفة ببيع واستخدام المخدرات . وقد تحول الكثيرون منهم إلى مدمنين و بعضهم من طلبة الجامعات .

قانون الكونجرس الأمريكي :

وقد أصدر الكونجرس الأمريكى أخيراً بعد ست سنوات من المناقشة قانون جرائم الأحداث عام ١٩٦١ و وقعه الرئيس كنيدى . ويعد هذا القانون بمثابة نقطة تحول فى مكافحة جرائم الأحداث ، وهو يخصص ٣٠ مليون دولار لهذا الهدف خلال السنوات الثلاث القادمة ، ولما كانت البطالة بين الشباب من الأسباب الرئيسية للانحراف ، لذلك أكدت حكومة كنيدى عزمها على القيام ببرنامج ضخم لتشغيل الشباب ، ومن مراحل هذا البرنامج إنشاء قوات السلام خارج الولايات المتحدة وفى أعالى البحار .

مشكلة دولية :

وهناك حقيقة هامة هى أن جرائم الأحداث ليست مقصورة على أمريكا ولكنها مشكلة ذات طابع دولى ، وقد أكد ذلك عدة مئات من المندوبين من جميع أنحاء العالم الذين حضروا مؤتمر الأمم المتحدة لمنع الجريمة وتقويم المنحرفين الذى عقد فى لندن عام ١٩٦٠ وحضره مندوبون من الاتحاد السوفيتى أيضاً .

● ● ●

وأخيراً تجيء تلك الشهادة من رئيسى أكبر دولتين فى العصر الحاضر ، الدولتين الحاكمتين بأمرها فى الأرض ، واللتين تتنازعان فيما بينهما مناطق النفوذ فى العالم أجمع .

فى عام واحد ، ١٩٦٢ ، يصدر تصريحان من رجلين يباعد بينهما ما بين الشيوعية والرأسمالية من خلاف فى المذهب وخلاف فى السياسة وخلاف فى الوسائل . ولكن يجمع بين تصريحيهما شبه واضح . إن كلا منهما يقدم إنذاراً لشباب وطنه ، أنه جاوز المدى فى انحلاله ، وأنه فى طريقه إلى الانهيار .

قال خرشوف : إن الشباب الشيوعى قد بدأ ينحرف ويفسده الترف ! وإن من بينه « عصبجية وصيّعا ! » وأنذر بأن الحكومة السوفييتية تبحث إطلاق يد البوليس فى معالجة هؤلاء « البلطجية » كما أنذر بأن معسكرات جديدة قد تفتح فى سيبيريا للتخلص من الشباب المنحرف لأنه خطر على مستقبل روسيا ! !

وقال كنيدى : إن الشباب الأمريكى مائع منحل مترف غارق فى الشهوات ، وإنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين ، بسبب انهماكهم فى الشهوات ! وأنذر بأن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا . وأهاب بالعلماء والمصلحين الاجتماعيين أن يبحثوا هذا الخطر ويقرروا العلاج !

* * *

ولا يفوتنا أن نشير إلى الفضيحة الكبرى التى حدثت فى إنجلترا منذ قريب وأتهم فيها وزير الحرب بإذاعة أسرار عسكرية هامة تعرض وطنه للخطر فى مقابل شهوة دنسة مع فتاة ساقطة تحيط نفسها بجو من الدعارة يسقط فيه الأمراء والوزراء !

وهذا كله فوق حوادث الجنون والانتحار والأمراض العصبية والنفسية وضغط

الدم ، الآخذة فى الزيادة المستمرة ، والتى لامثيل لها فى عددها وفى ضراوتها ، فى كل أجيال التاريخ !

* * *

إنها أمور خطيرة جداً تلك التى تقولها شهادة القرن العشرين !

إنها تقول أولا : إن هذا التحلل الخلقى ليس « تطورا » وإنما هو انحراف.

وتقول ثانيا : إنه انحراف ضار بالكيان البشرى مؤدٍ إلى الدمار .

وتقول بالتالى : إن هناك « فطرة » للإنسان ، تتأذى من كل شىء لايلائم طبيعتها ، وتمرض من استمرار تعاطيه .

وتقول كذلك : إن هذه الفطرة ثابتة ، فما كان يؤذيها ويدمرها قبل ألفى عام مازال يؤذيها ويدمرها بعد مرور الأجيال الطوال ، ولم يحدث فيها «تطور» يجعلها تصحّ على ما كانت تمرض به فى تلك الأزمان . بل هى مازالت تمرض به على نفس الصورة وبنفس المقدار .

وتقول أخيراً إن الجانب الخلقى — على الأقل — من حياة الإنسان ، ذو مقياس ثابت يقاس به فى جميع الأجيال ، فما كان صوابا فى علاقات الناس — وعلاقات الجنسين بصفة خاصة — قبل ألفى عام ، مايزال هو الصواب ، وما كان خطأ وانحرافا فى تلك العلاقات مايزال هو الخطأ والانحراف ، بعد كل «التقدم» العلمى ، « والتطور » الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، « والتحرر » النفسى فى ألفين بل ألوف من الأعوام !

وخلاصة ذلك كله أن أى نظام لحياة البشرية ينبغى أن يحمل فى حسابه ذلك المقياس الثابت للأخلاق ، مهما كانت مرونته فى الجوانب المادية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، التى ينبغى أن تنمو ، وينبغى أن يسمح لها بالنمو فى ظل أى نظام صالح للحياة . .

وهذا يقودنا إلى الحديث عن موقف الإسلام من الحياة البشرية . .

الإسلام وحياة البشرية

الإسلام دين الفطرة . .

ومزيته العظمى أنه يساير الفطرة ويطابقها مطابقة كاملة .

وقد تحدثت فى كتابين سابقين عن لون هذه المطابقة ومداها . فتحدثت فى كتاب « منهج التربية الإسلامية » عن طريقة الإسلام فى تربية النفس البشرية، وكيف أنه يشملها كلها من جميع جوانبها ، ويشملها كلها فى آن واحد :

« طريقة الإسلام فى التربية هى معالجة الكائن البشرى كله معالجة شاملة لاتترك منه شيئاً ولاتغفل عن شىء . جسمه وعقله وروحه ،حياته المادية والمعنوية، وكل نشاطه على الأرض .

« إنه يأخذ الكائن البشرى كله ، ويأخذه على ما هو عليه ، بفطرته التى خلقه الله عليها ، لا يغفل عن شىء من هذه الفطرة ، ولا يفرض عليها شيئاً ليس فى تركيبها الأصيل .

« ويتناول هذه الفطرة فى دقة بالغة فيعالج كل وتر منها ، وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر ، فيضبطها بضبطها الصحيح .

« وفى الوقت ذاته يعالج الأوتار مجتمعة . لا يعالج كلا منها على حدة فتصبح النغمات نشازا لا تناسق فيها . ولا يعالج بعضها ويهمل البعض الآخر ، فتصبح النغمة ناقصة غير معبرة عن اللحن الجميل المتكامل ، الذى يصل فى جماله الأخاذ إلى درجة الإبداع »(1)

وفى كتاب « دراسات فى النفس الإنسانية » عدت إلى رسم مكونات النفس

---

(1) منهج التربية الإسلامية ، ص 19 من الطبعة الثانية .

الإنسانية وطريقة الإسلام فى معالجتها ، ووكدت بصفة خاصة حقيقة الترابط فى كيان الإنسان :

« هذا الكيان الإنسانى المتفرد ، لا نصل إلى كل قراره فى الحقيقة حين ندرك فقط أنه كيان مزدوج الطبيعة ، ثم ندرك أن هناك امتزاجا بين عنصريه المكونين له ، يجعله ـ وهو يجمع بين نشاط الملك ونشاط الحيوان ـ يؤدى كلا منهما بطريقته الخاصة ، طريقة الإنسان ، التى تحمل مشابه من الملك ومشابه من الحيوان ، ثم تفترق فى النهاية عن الملك والحيوان .

« ليس هذا هو القرار الأخير فى كيان الإنسان !

« وإنما نصل إلى قراره حين ندرك أنه فى الحقيقة كيان موحد ، على الرغم مما فى طبيعته هذه من ازدواج .

« كيان موحد .. كل ما ينبعث عنه من نشاط فإنما يصدر عن كيانه الموحد المتشابك المعقد التركيب !

« أعمال الإنسان كلها ذات ترابط وثيق وإن بدت منفصلة فى بعض الأحيان .

« النشاط المادى والنشاط المعنوى ..

« النشاط العملى والنشاط التعبدى ..

« النشاط الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، والنشاط الفكرى والروحى ..

« كل لون من ألوان النشاط هذه وما شابهها قد يبدو لأول وهلة نشاطا منفصلا ، متخصصا ، مستغرقا ، يقوم به الإنسان بجانب من جوانبه ، ولا يتصل ببقية الجوانب أى اتصال ..

« وذلك وهم ظاهرى ، كوهم تجزؤ الإنسان إلى جسم وروح منفصلين .

« وَهْمٌ يغرى به بروز أحد هذه الجوانب فى لحظة وتوارى الجوانب الأخرى مؤقتاً وراء هذا البروز » (٢)

---

(٢) دراسات فى النفس الإنسانية ، فصل « طبيعة مزدوجة »

وهنا فى هذا الكتاب نبحث الموضوع من زاوية أخرى ، هى زاوية الثابت والمتطور فى كيان الإنسان ، وطريقة الإسلام فى معالجة النفس البشرية فى هذا المقام .

* * *

إن الكيان البشرى وحدة ..

وحقيقة إن فيه جوانب ثابتة وجوانب متطورة كما رأينا فيما سبق من البحث . أو فيه — على الأصح — صور متغيرة وجوهر ثابت .. ولكن عجيبة الإنسان الكبرى أن الثابت والمتطور فيه يكوّنان وحدة واحدة فى النهاية ، مترابطة متماسكة متحدة ، لا يمكن فصل بعضها عن بعض .

العقل البشرى يتطور .. ينمو على الدوام .. تجدّ له معلومات وخبرات وتصورات . ولكنه مع كل تطوره لا يقفز وحده خارج كيان الإنسان ، ويتطور بمفرده ، تاركا بقية النفس . وإنما يتطور وينمو وهو فى داخل الإطار الكلى للإنسان ، سواء فى ذلك الإنسان الفرد ، أو الإنسان المتجمع فى صورة مجتمع .. وكذلك النتاج العلمى أو المادى لهذا التطور ، إنه ينمو على الدوام ، ولكنه لا يستقل بنفسه عن الكيان البشرى ، وإنما يأخذ حيّزه — مع تطوره الدائم — فى داخل الكيان الثابت الذى يتكون منه « الإنسان » .

والنمو الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، والنمو النفسى كذلك . كل شىء ينمو ويتطور ، وهو فى النهاية داخل فى الكيان الثابت الذى لا تغير جوهره التطورات . .

ومن هذا الخيط المزدوج يأخذ الإسلام الأمر ، وعلى أساسه يقيم نظامه للحياة البشرية .

* * *

« بسم الله الرحمن الرحيم . يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء »[1] صدق الله العظيم .

فى هذه الآية الواحدة العجيبة أربع قضايا متوالية تحدد الجانب الثابت من حياة البشرية !

« اتقوا ربكم الذى خلقكم » « من نفس واحدة » « وخلق منها زوجها » « وبث منهما رجالا كثيراً ونساء »

وإنه للون من الإعجاز أن تجتمع القضية هكذا ، أو القضايا الأربع ، بهذا التتابع السهل البسيط ، فى آية واحدة معدودة الكلمات !

آية واحدة تقص فى إيجاز معجز كل تاريخ البشرية .. !

وتجىء آيات أخرى كثيرة فى القرآن فتفصل جوانب هذه القضية تفصيلا وتزيدها بيانا . وسنستعرض بعض هذه الآيات فى أثناء الحديث التفصيلى عن تلك القضية أو القضايا الأربع المتوالية ، ولكنا نريد هنا أن نبرز اجتماعها فى تلك الآية المفردة التى تحدد فى بساطتها تلك حقائق البشرية الأساسية فى ألفاظ معدودات .

قضية الربوبية . قضية وحدة الإنسانية . قضية وحدة الجنسين قضية المجتمع البشرى .. أربع قضايا متوالية تحدد الإطار الذى تعيش فى داخله البشرية .

« اتقوا ربكم الذى خلقكم » قضية الربوبية والخلق . الله هو الخالق . قضية أزلية ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ ! ومن ثم يترتب عليها تقوى الله .. فتنشأ القضية الأولى فى حياة الإنسان : قضية العقيدة .

« من نفس واحدة » .. قضية الإنسانية الناشئة من نفس واحدة . من أصل

---

(١) سورة النساء [١]

واحد مشترك · من كيان واحد يضمها جميعاً . قضية ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ ! ومن ثم يترتب عليها أخوة البشرية ·

« وخلق منها زوجها » . . قضية الجنسين ، الرجل المرأة ، أحدهما من الآخر . فالمرأة « من » ذات النفس التى هى الرجل .. قضية ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ ! ومن ثم يترتب عليها المساواة « الإنسانية » بين الجنسين ، وكذلك وجود علاقة ثابتة بين الجنسين ·

« وبث منهما رجالا كثيراً ونساء » .. قضية المجتمع المتكون من الأفراد ، الناشئين من نفس واحدة ، والذين هم إخوة فى الإنسانية . قضية ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ ! ومن ثم يترتب عليها أن تكون تنظيمات المجتمع قائمة على هذه الحقائق : الأخوة ووحد النشأة ووحدة « النفس » البشرية . . .

هل تتغير هذه الحقائق أو « تتطور » بتطور أساليب الإنتاج أو تقدم العلوم ؟ أم هل تتغير دلالتها ؟ !

إنها ثابتة لا تقبل التغيير ، لأنها حقائق « تاريخية » وجدت وانتهت ، ولا سبيل إلى تغيير حقائق التاريخ !

وعلى هذه الحقائق الأربع الثابتة ، تقوم حقائق أخرى ، وتشريعات وتوجيهات ، لابد أن تكون ثابتة لأنها تتعامل مع حقائق ثابتة ، ولابد أن تكون دائمة ما دامت الحياة البشرية على الأرض .

ونأخذ فى التفصيل . . .

* * *

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم »

قضية الربوبية والخلق هى القضية الرئيسية فى التصور الإسلامى ، لأنها الحقيقة الأولى التى تنبثق منها كل الحقائق التالية وتعود إليها .

إن الله هو الخالق الذى خلق الكون وخلق الإنسان . . ومن ثم فهو « الرب » الذى ينبغى عبادته . . وحده .

تلك حقيقة أزلية لا سبيل إلى تغييرها ! فكل التطور المادى والعلمى والاقتصادى والاجتماعى والنفسى لن يوجد خالقاً جديداً يُنسب إليه الخلق كله وخلق الإنسان خاصة ، غير الله ! وكل ما يحدثه « الإنسان » على وجه الأرض من تغيير وتطوير ، وإنشاء وتعمير ، وهدم وتدمير . . كله لا يغير تلك الحقيقة الأزلية ، ولا ينشى خالقاً فى السماوات والأرض غير الله !

والملحدون من أمثال جوليان هكسلى ، الذين يقولون إن الإنسان ينبغى أن يأخذ على عاتقه ما كان يلقيه من قبل فى عجزه وجهله على عاتق الله .. يهزلون! ولا يحترمون عقولهم .. وإن كانوا « مخلصين » فى إلحادهم — كما يعتذر لهم بعض « المثقفين » ! — فهم يسيئون تفسير حقائق الحياة . فالله الذى خلق الإنسان قد منحه الخلافة فى الأرض : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »(1). ومن مقتضى هذه الخلافة أن ينشىء الإنسان بإذن الله أشياء وأوضاعا وأحداثا على وجه الأرض . أن ينتج . أن يعمل . أن يطور الموجود ليبدع منه أشكالا جديدة على الدوام . وذلك معنى الخلافة التى جعلها الله للإنسان . . . أفذلك يغرى الإنسان أن ينسى حقيقته ويخاصم الله !! « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ؟ ! »(2)

ماذا أحدث الإنسانُ على غير قانون الله ؟ !

أليس فى كل ما يعمل وينتج وينشىء ويطور ، يعمل بمقتضى القانون

(1) سورة البقرة [٣٠]
(2) سورة يس [٧٧]

الإلهى الذى أودعه فطرة الـكون ، وكل عمله أن « يتعرف » على « القوانين الطبيعية » التى هى « سنة الله » .. يتعرف عليها بما وهبه الله من طاقة المعرفة ، ثم يحاول التطبيق عليها ، بمقتضى ما وهبه الله من قدرة على التطبيق ؟

أى شىء فى عمله كله خارج عن النطاق الذى رسمه له الله ؟

كلا ! إنهم يهزلون ولا يحـترمون عقولهم . . أو يعميهم الجهل عن حقيقة الناموس . .

لا خالق إلا هو فى السماوات والأرض . . تلك هى الحقيقة « العلمية » التى تنشأ منها كل الحقائق الأخرى فى هذا الوجود .

وما دام هو الإله ، فمقتضى ألوهيته أن يقوم العباد بعبادته : « وما خلقت الجن الإنس إلا ليعبدون »[1].

والعبادة لفظ شامل واسع محيط . إنه ليس شعائر التعبد المحصورة المحدودة . ولـكنها كل شىء . هى عمل العباد كله . فالعباد مخلوقون للعبادة . أى أن كل عملهم الذى يعملون مفروض أنه عبادة . ومن ثم يلتقى العمل بالشعائر التعبدية ويصبحان شيئاً واحداً فى عرف الإسلام .

وما دام هو الإله الواحد الأحد ، فمقتضى وحدانيته هو إفراده بالعبادة . فلا يعبد غيره فى الأرض . وليس معنى ذلك هو المعنى الضيق المحصور ، وهو ألا يسجد الإنسان لأحد ولا يركع لأحد . فهذا المفهوم لا يناسب إلا المفهوم الضيق للعبادة المحصور فى الشعائر التعبدية . ولـكن العبادة بمعناها الحقيقى ، التى هى عمل الناس كله ، هى التى ينبغى أن تـكون لله وحده ولا تـكون لأحد غيره من الخلق . فـكل العمل البشرى — وهو العبادة — ينبغى أن يـكون لله وحده دون شريك .

---

(١) سورة الذاريات [٥٦] .

فيأ كل الإنسان لله ويشرب لله ويسكن ويلبس لله . وينشط نشاطه الجنسى لله . وذلك لله . ويقاتل لله . ويبرز لله . ويحب لله ويكره لله إلخ . . الخ وذلك هو معنى العبادة لله فى نطاقها الواسع . . . نطاقها الحقيقى .

ومقتضى وحدانيته كذلك أن تكون له الحاكمية وله التشريع . فالحاكمية ألوهية ، وطاعة الحاكمية عبودية . . ولن يشرع إنسان للناس — من عنده — إلا أن يكون شاعراً أن الناس ينبغى أن يطيعوه هو ولا يطيعوا سواه. أى — بمعنى من المعانى — يعبدوه ! وما دام يضع لهم عقوبات حين يخرجون على طاعته — هو — فهو يستعبدهم لنفسه ، وهم — حين يطيعونه راضين — يتعبدون له ! ويستوى أن يكون المشرع إنساناً فرداً أو مجموعة من الناس تعطى نفسها الحق فى التحليل والتحريم لبقية الناس ، وترسم العقوبات المخالفين . . إنها تعطى نفسها حقوق الإله ، وتتطلب من الناس مايتوجهون به إلى الله .. وهو ما لايحق لهم ما داموا ليسوا آلهة ولاخالقين . .

تلك هى القضية الأولى فى التصور الإسلامى . أن تكون العبادة لله وحده. والحاكمية لله وحده . والتشريع من عند الله وحده .

وهى قضية تقوم على حقيقة أزلية .. وحقيقة « علمية » هى أنه لا إله إلا الله.

والذين يدعون إلى أن يشرع الإنسان لنفسه ، ويضع القواعد لنفسه ، هاهم أولاء فى صراحة يقولون : إن الإنسان ينبغى أن يحمل على عاتقه هو ما كان يضعه على عاتق الله من قبل ، ويصبح هو الله !(1)

ويلتقى بهذه الحقيقة الأزلية حقيقة مقابلة فى الفطرة .. أن الفطرة البشرية تتجه إلى عبادة الله : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم . ألست بربكم ؟ قالوا : بلى! شهدنا ! »(2)

(1) جوليان هكسلى ، كتاب « الإنسان فى العالم الحديث » [وغيره كثيرون !]
(2) سورة الأعراف [172]

وتلك حقيقة علمية ، تثبتها وقائع التاريخ ..

الإنسان فى كل عصوره وكل أحواله يعبد الله . ولكنه يهتدى تارة ويضل أخرى . فيعبد الله على صفاء وصحة، أو يعبده فى صور منحرفة ، أو يعبده ويشرك به آلهة أخرى . .

ولكنه فى كل حالة يعبد الله .. الخالق .. الذى خلقه وخلق الكون والحياة .

ولا تحتاج الفطرة إلى من يوجهها إلى عبادة الله . فهى تعبده تلقائيا — ضالة أو مهتدية — بلا تدخل . وإن كانت توقيعات مختلفة من الكون فى الحس البشرى « توقظ » الفطرة وتنبهها إلى حقيقة الله .

العجز البشرى ، الذى يحسه الإنسان فى أعماقه مهما وصل من القوة والمقدرة . العجز عن تحقيق كل ما يريده الإنسان والسيطرة على كل ما يريد السيطرة عليه . العجز عن الخلود . العجز عن معرفة الغيب . العجز على أن يكون الإنسان إلها ، يقوم بذاته ولا يحتاج إلى مدد من خارجه .. من غذاء أو كساء أو جنس !!

والروعة التى يحسها الإنسان إزاء الكون .. الكون الهائل ، والكون الدقيق . الأجرام المروعة فى ضخامتها ، والدقة المعجزة فى تفصيلاتها وجزئياتها وتنظيماتها ودورة أفلاكها .

والموت .. الذى يروع الحس البشرى ويلجئه للبحث عن واهب الحياة .

وروعة حدوث الأحداث : الليل والنهار ، والزمان والمكان ، والموت والحياة ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر ، واللذة والألم والسعادة والشقاء .. الخ

كلها توقيعات يوقعها الكون على الحس البشرى ، فتوقظ فطرته إلى الله ![1]

والإسلام يقيم نظامه كله على هاتين الحقيقتين المتقابلتين : حقيقة وجود الخالق وحقيقة توجه الفطرة إليه .

---

(١) انظر فصل الدين والفطرة فى كتاب الدراسات .

فهو يمنح الإنسان عقيدة فى الله ، تلبى فطرته المتوجهة إلى الله ، وتصحح الفطرة وتقومها من ضلالها إن ضلت عن حقيقة الله . عقيدة تلبى حاجة الإنسان الفطرية إلى الله . وحاجتها الفطرية إلى عبادته . وحاجتها الفطرية إلى التعرف على مركزها من الحياة والكون ، وعلى حقيقة الصلة بينها وبين الله .

وعقيدة — من ناحية أخرى — تنظم حياة الإنسان ، بمقتضى عبوديته لله وحاكمية الله له ، فتجعل التشريع كله والتنظيم ، مستمدا من العقيدة ، مرتبطا بها متعلقا بعبادة الله .[1]

وعقيدة — من ناحية ثالثة — تجعل التشريع والتنظيم متمشيا مع فطرة الإنسان ، فى الثبات والتغير على السواء ! ومن ثم تلتقى العقيدة بالفطرة فى كل اتجاه .

* * *

والنظم التى خرجت على تلك الحقيقة الأزلية ، ماذا صنعت ببنى الإنسان ؟!

لقد صنعت بهم شرورا كثيرة ..

استعبدتهم بعضهم لبعض .. فى حدود « الوطن » الواحد ، وفى حدود العالم الكبير !

« فالطبقة الحاكمة » كما تعترف المذاهب كلها ، تشرع لنفسها ولمصالحها على حساب بقية الطبقات . أى أنها تتأله على حساب الآخرين ، وتستعبد الآخرين لحسابها ألوانا من الاستعباد .

و« الفرد الحاكم » هو الطاغية فى كل أطوار التاريخ ..

ذلك فى حدود « الوطن » .. أما فى حدود العالم الكبير ، فأمة تستعبد أمة وتذيقها العذاب ، وهذه وتلك خارجتان على الله !

واستعبدتهم لشهواتهم .. فحين ينفلت الإنسان من ضوابط العبادة الحقة لله تملكه شهواته ونزواته ، فيستعبد لها ويستذل .

---

(١) انظر كتاب « هذا الدين » وكتاب « المستقبل لهذا الدين »

ووضعت لهم نظما لا تلائم فطرتهم [انظر ألكسس كاريل] لأنها قائمة على الجهل المطبق بحقيقة الإنسان . وكان من جراء هذه النظم هذا الفساد الذريع والشقاء الذى يغشى وجه الأرض ..

ومزقتهم ، بين حاجتهم الفطرية إلى الله والعقيدة، وبين التنظيمات الضرورية لهم ، لأمنهم وراحتهم ، والتى تستمد — فى حياتهم — من عند غير الله. فتتضارب الحاجات ، وتتمزق المشاعر ، ويحدث الجنون والاضطراب ..

وفى النهاية تهدد — كما رأينا فى شهادة القرن العشرين — بتدمير البشرية ![1]

* * *

والعقيدة فى الله أمر ثابت ، لثبات الحقيقة التى ترتكن إليها ، وهى وجود الخالق ووجود المخلوق .

ومن ثم كانت العقيدة — كما أنزلها الله — ثابتة فى جميع أطوار التاريخ . لا تتبدل ولا يطرأ عليها تغيير .

« لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ... وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدو الله ما لكم من إله غيره .. وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . . وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ... »[2]

دعوة واحدة على مدار التاريخ ..

ولكن للعقيدة جانبها المتطور على مدار التاريخ ! جانب التشريع والتنظيم الذى يناسب درجة النمو التى تكون عليها الأمة وقت الرسالة . النمو النفسى والاجتماعى والعقلى . .

---

(١) راجع كتاب « الإسلام ومشكلات الحضارة » لسيد قطب .
(٢) سورة الأعراف .

وحين تبلغ البشرية رشدها تجيئها العقيدة فى صورتها الأخيرة الثابتة، وتحمل هذه العقيدة فى الوقت ذاته كل المرونة المطلوبة لتطورات المستقبل [كما سيجيء بالتفصيل فى نهاية الفصل] : « اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا »(١)

* * *

أما الذى يزعمه علم الاجتماع الغربى من « تطور » العقيدة فى الله ذاتها ، ليوحى إيحاء خبيثا بأن العقيدة أمر بشرى ، ابتدعه البشر فى جهالتهم ، وينبغى أن نتبرأ منه فى عصر النور (!) .. أما هذا فمغالطة لا تثبت للتمحيص

إن الذى « تطور » لم يكن هو العقيدة فى الله . إنما كان انحراف العقيدة فى الله !

حين عبدت البشرية أباها ، وعبدت الطوطم ، وعبدت الوثن ، وعبدت قوى الطبيعة المفرقة . . كانت فى كل ذلك تنحرف عن العقيدة الصحيحة فى الله ، وتتصوره تصورات شتى منحرفة ، تتطور فى كل مرة مع تطور « المعلومات » والتصورات البشرية ، والتشابكات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . . ولكنها لم تكن فى شىء من ذلك تتبع دين الله .

ومن ناحية أخرى فمن الثابت فى التاريخ — الذى أغفله علم الاجتماع الغربى عن عمد — أن البشرية — فيما بين انحرافاتها المتكررة « المتطورة » — قد مرت بفترات فاءت فيها إلى العبادة الصحيحة — عن طريق الرسالات السماوية — قبل أن تعود مرة أخرى إلى الانحراف .

ومن ثم فإن « تطور » التصورات المنحرفة للعقيدة يفقد دلالته التى يلصقها بها علم الاجتماع الغربى . فهو ليس دليلا على أن الدين قد ابتدعه البشر ولم ينزله

---

(١) سورة المائدة [٣]

الله ، وليس دليلا كذلك على أن العقيدة فى الله عنصر متطور ، يجيء عليه وقت يزول من النفوس بحكم « التطور » . . وتستبدل به عبـــادة أخرى ، أو لاعبادة على الإطلاق !

بل إن هذه الانحرافات « المتطورة » لتعطى دلالة عكسية لما يقوله علم الاجتماع الذى أبدعته الشياطين !

إنها تعطى دلالة ثبات العقيدة ! ففى جميع الأجيال ، وعلى جميع المستويات توجد عقيدة فى الله !! تهتدى أو تضل ، وتأخذ صوراً شتى ، ولـكنها فى النهاية عقيدة فى الله ! فهى إذن عنصر ثابت فى كيان الإنسان !

والقرن العشرون ، أو « علماؤه » من الشياطين ، لا يستطيعون أن يأخذوا من هذه الانحرافات التوجيه الذى يريدونه ، وهو أن الناس فى القرن العشرين أحرار فى ألا يعبدوا الله ! أو أن الخروج من عبادة الله ظاهرة « بشرية » آن أوانها فى القرن العشرين !

كلا ! إن ما أثبتته الفطرة فى مئات الألوف من السنين . . لا يلغيه الواقع المنحرف لبعض الشياطين فى القرن العشرين ، ممن فسدت فطرتهم فارتـكسوا إلى مادون مستوى الآدميين !

* * *

« اتقوا ربكم الذى خلقـكم من نفس واحدة » .

ينتقل القرآن بعد ذلك إلى القضية التالية ، بعد قضية ربوبية الخالق وعبادة العباد .

« خلقـكم من نفس واحدة » .

تلك الحقيقة الثابتة لا تغيرها التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ولا التطور فى أساليب الإنتاج ! إن شيئا من ذلك كله لايقول إن الإنسان يرجع فى تاريخه إلى أصول متعددة .

حتى التفسير الحيوانى للإنسان — تفسير داروِن — لم يقل إن هناك أصولا متعددة للجنس البشرى . وإنما هو أصل واحد مشترك فى نهاية المطاف .

ولكن تلك الحقيقة الثابتة تعطى كثيراً من المعطَيات .

إن وحدة البشرية وأخوّتها حقيقة علمية ، تترتب عليها أمور خطيرة فى علاقات الناس بعضهم ببعض .. أمور تغفلها النظم « البشرية » كلها ، ويذكرها الإسلام .

ولا نعود إلى النظم السالفة ، التى جعلت من الناس قوما منبوذين لاحقوق لهم ، ولا كيان ، ولا « آدمية » .. إنما نتحدث عن النظم « المتحضرة » الراقية فى القرن العشرين !

كيف تبدو أخوّة البشرية ووحدتها فى ظل « التفرقة العنصرية » التى تشوه وجه الأرض فى القرن العشرين ، فى أمريكا المتحضرة ، وانجلترا [فى جنوب أفريقيا] وغيرها من بلاد الله ؟ !

كيف تبدو هذه الحقيقة الثابتة فى ظل النظم التى استكبرت عن عبادة الله وقالت إنها شبت عن الطوق ، ولم تعد فى حاجة إلى وصاية الله أو وصاية الرسل والأنبياء .. لأنها تعيش فى عصر « العلم » و « التقدم » و « المدنية » ؟ !

كيف هى حين يمسك البيض « المتحضرون » بشاب زنجى ذنبه أنه أسود اللون ، فيضربونه ويركلونه حتى الموت ، ويعلقونه فى فروع الشجر زيادة فى التنكيل ، ورجل البوليس الأبيض واقف ينظر ولا يتدخل حتى ينتهى الجرم البشع الشنيع !

تلك هى الحضارة ! الحضارة الراقية التى تستكبر على الدين . وتنظر إلى العقيدة فى الله على أنها رجعية وتأخر وانحطاط !

* * *

والإسلام قد راعى هذه الحقيقة الثابتة فى تشريعاته وتوجيهاته :

« وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أقربكم عند الله أتقاكم »[1] . ولم يقل أبيضكم . ولا أكثركم « حضارة ! » من ذلك النوع الذى يبيح قتل الملونين لأنهم ملونون ، ويثور ثورة همجية حين تأمر الدولة بإعطاء أحدهم حق التعليم فى مدارسهم وهو من أبسط حقوق « الإنسان » !

« لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى »[2]

« اسمعوا وأطيعوا ، ولو استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله تبارك وتعالى »[3]

وراعاها فى واقعه التاريخى . فبلال الحبشى الأسود هو مؤذن رسول الله صلى الله علية وسلم الذى يظهر على ظهر الكعبة فيؤذن يوم الفتح ، وهى التى يعظمها العرب فى الجاهلية والإسلام . وعمار وابن مسعود كذلك هما اللذان يجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وبين أبى بكر وعمر — رضى الله عنهم — فى حديث واحد فى شأن واحد فيقول : « إنى لا أدرى ما بقائى فيكم فاقتدوا باللذين من بعدى — وأشار إلى أبى بكر وعمر — واهتدوا بهدى عمار ، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه »[4]

وراعاها مع غير المسلمين ، لأنها حقيقة لاتتعلق بوجود المسلمين ، وإنما تتعلق بوجود « الناس » : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » . فعامل الناس جميعاً على أساس إنسانيتهم المطلقة ماداموا لايفسدون فى الأرض ولا يحاربون المسلمين ولا يفتنونهم فى دينهم : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطو إليهم . إن الله يحب المقسطين »[5]

---

(١) سورة الحجرات [١٣] . (٢) أخرجه الطبرى .
(٣) رواه البخارى .
(٤) أخرجه الترمذى . (٥) سورة الممتحنة [٨]

بل راعاها فى الحرب مع الذين يقاتلونه فى الدين ! فكانت تلك المعاملة الإنسانية الكريمة التى لم يعرفها التاريخ فى غير حروب المسلمين !

والذين لايؤمنون بالله ولا يريدون أن يكونوا مسلمين فى كل الأرض ، لعلهم يستنبطون شيئا من التفسير المادى للتاريخ ، أو التفسير الحيوانى للإنسان يبررون به وحشياتهم فى السلم والحرب ، فى الاضطهاد العنصرى والقتل والتدمير على نطاق واسع ، وفى وسائل التعذيب الوحشى التى يستخدمها الطغاة من حكامهم ليسندوا ألوهيتهم الزائفة . . فى عصر « الحرية » و « والتقدم » والاستكبار عن عبادة الله !

* * *

وقد انعكس هذا المفهوم الإسلامى عن وحدة البشرية وأخوتها فى مجموعة من التشريعات والتوجيهات والتقاليد ، لم يكن لها مثيل فى تاريخ الأمم الأخرى كلها ، خارج نطاق الإسلام .

فقد انبثق من هذا المفهوم بادئ ذى بدء أن يكون السلم هو القاعدة الأولى للبشرية . فهذا هو الذى يتناسب مع أبناء « النفس الواحدة »: « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة »(١) . « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله . »(٢) فالأمر الأول موجه إلى المؤمنين ليدخلوا فى السلم كافة ، ذلك بأن يسلموا أنفسهم كلها لله ، فيسود السلام بينهم و بين فطرتهم ، و بينهم و بين الكون من حولهم ، و بين بعضهم و بعض ، وبذلك يصبحون الأمة الراشدة التى تشرف على بقية البشرية : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً(٣) الأمة التى تجعل من نفسها المثال الذى تترسمه البشرية ،فأولى بها أن تكون ترجمة صادقة لمفهوم القرآن ، وتكون

---

(١) سورة البقرة [٢٠٨] (٢) سورة الأنفال [٦١] . (٣) سورة البقرة [١٤٣]

خالصة لله . والأمر الثانى يحدد العلاقة بين هذه الأمة المؤمنة وغيرها من الناس. فإن جنحوا للسلم ، إن امتنعوا عن العدوان ، وأطلقوا الحرية للدعوة إلى الله بينهم ، تاركين الناس لحرية اقتناعهم ، فالأمر للمسلمين أن يجنحوا هم كذلك للسلم ، وقد باتت الأبواب مفتوحة أمامهم لمزاولة الدعوة إلى دين الله فى الأرض، بلاحاجز من سلطة تحول بينهم و بين الناس، و إقامة نظام الله فى الأرض بلامانع من سلطة تحول بينهم و بين إقامة شريعة الله ، ليسود السلام كل الأرض ، تحقيقاً لأخوة البشرية فى صدورها من « نفس واحدة » . فأما حين يقع العدوان على دعوة الله أو على المسلمين ، أو على النظام الإسلامى ، فى صورة من صور العدوان ، سواء بالوقوف فى وجه الدعوة ،أومحاربة النظام القائم على شريعة الله ، أو فتنة المسلمين عن دينهم ،فالحرب تقع لرد العدوان الظالم: « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم .ولاتعتدوا. إن الله لايحب المعتدين»(1)«فإن انتهوا فلاعدوان إلا على الظالمين »(2) .

وانبثق عن هذا المفهوم كذلك أنه « لاإكراه فى الدين »(3) . حقيقة إن الإسلام هو الهدى . والمسلمون هم الأمة المهتدية الراشدة . ولكن ليس لهم مع ذلك أن يُكرهوا إخوتهم فى البشرية على اتباع دين الحق! إنما عليهم أن يدعوهم إلى الهدى .. دعوة بالتى هى أحسن . كما يليق بالإخوة : «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »(4) « وجادلهم بالتى هى أحسن »(5) . وإنما تقع الحرب فى الدعوة لا لإكراه الناس على الدين ، فالأمر صريح بأنه لاإكراه فى الدين . ولكن لإزالة القوى الظالمة التى تحجب الهدى عن الناس . فإن جنحت تلك القوى الظالمة المعتدية إلى السلم وأبدت أنها لاتقف فى سبيل الدعوة إلى الله الحق ، فلا حرب ولا عدوان .

---

(1) سورة البقرة [190] (2) سورة البقرة [193] (3) سورة البقرة [256]
(4) سورة النحل [125] (5) سورة النحل [125]

وانبثق عنه أن تكون العلاقة بين المؤمنين وأصحاب الديانات الأخرى هى علاقة المودة : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم »(١). فهى علاقة المؤاكلة والتزاور والتزاوج .. وهى أوثق العلاقات .

ثم انبثق عنها أن يقوم العدل بين البشر على أساس إنسانيتهم وحدها . بصرف النظر عن أى اعتبار آخر .. ولو كان هذا الاعتبار هو العداوة للمؤمنين ! ففى وسط الحرب الخبيثة التى كان يشنها اليهود على الإسلام فى مهده ، يحاولون زلزلة المؤمنين واقتلاع العقيدة الجديدة من جذورها قبل أن ترسخ فى الأرض ، والدس والكيد ونشر الأراجيف ، وتشكيك الناس بعضهم فى بعض ، وإيذاء المسلمين والمسلمات فى أعراضهم .. بالإضافة إلى الحرب الرسمية التى تستخدم فيها أدوات القتال ، مع الغدر فى هذه الحرب ونقض المواثيق وانتهاك الحرمات .. فى وسط كل ذلك لا يقبل الإسلام عدواناً وقع على واحد من اليهود ، إذ رُمِىَ بتهمة ظالمة وكاد يحكم عليه من أجلها ، فيتنزل الوحى بتبرئته فى هـذه الآيات البينات : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطاً . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل عنهم يوم القيامة ، أم من يكون عليهم وكيلا ؟ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما . ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما . ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئاً فقد احتمل

---

(١) سورة المائدة [٥] .

بهتانا و إثما مبيناً . ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرونك من شيء . وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما »(١) . وقد نزلت هذه الآيات التسع بهذا التفصيل والبيان والتوكيد الشديد المكرر، لتحمى الرسول صلى الله عليه وسلم من الحكم على هذا اليهودى البرئ الذى كانت القرائن — الظاهرة — كلها تتهمه ، وكان الحق أنه برىء من الاتهام ! ووضع الإسلام بذلك فى عالم الواقع هذا المبدأ الإنسانى الخالد.. الذى لا يوجد قط بهذه الصورة فى غير الإسلام !

ثم كانت هذه التوجيهات العامة : « ولا تلمزوا أنفسكم . ولا تنابزوا بالألقاب »(٢) . « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا »(٣) [وهو مكتوب على الأمة المسلمة كذلك] « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى »(٤) .

هكذا . . إنسانية على الاتساع ! فى السلم وفى الحرب سواء . فى الحب وفى الكره سواء !

وكان هذا فى نظر الإسلام عنصراً ثابتا فى حياة البشرية ، لا تقلبه الظروف والأهواء ، لأنه ليس نابعاً من الظروف ، وإنما ينبع من حقيقة ثابتة لا تغيرها تطورات « الإنتاج » ولا أحداث التاريخ !

* * *

(١) سورة النساء [١٠٥ — ١١٣]
(٢) سورة الحجرات [١١]
(٣) سورة المائدة [٣٢]
(٤) سورة المائدة [٨]

والقضية الثالثة هي قضية العلاقة بين الجنسين .. وهي من أخطر قضايا البشرية .

« خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » .

إن الزوجين — الرجل والمرأة — من « نفس » واحدة . والإشارة إلى النفس هنا ذات دلالة لا تخفى . إن المشاركة ليست في « النوع الإنساني » فقط . ولكنها أخص من ذلك كثيراً . إنها المشاركة في « النفس » . . النفس الواحدة. ومن ثم يتشاركان في الكيان الإنساني الداخلي ، الذي تشير إليه لفظة « النفس » كما يتشاركان في الإطار الخارجي للإنسان . . « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض »(١) . . متداخلين ممتزجين لا يتميزان من حيث الكيان الإنساني للإنسان !

وهذه الحقيقة الأولية التي وضعها الإسلام بهذه الصورة ، ورتب عليها ما يتفق معها من تشريعات ، لم تفيء إليها البشرية خارج نطاق الإسلام إلا بعد فترة طويلة جداً . . وبعد صراعات مدمرة ، حطمت الأسرة والمجتمع في الغرب ، وحطمت الأخلاق والتقاليد ، وأدت إلى تلك الفوضى الجنسية البشعة التي ردت الإنسان حيواناً يرتكس في سعار مجنون . بينما الإسلام قد أعطاها المرأة تكريماً وكرما ، مع المحافظة الكاملة على كيانها ، وكيان الرجل معها ، وكيان الأسرة والمجتمع . . وذلك هو الفرق بين دين الله ودين البشر الذين يشرعون لأنفسهم ، ويزعمون لأنفسهم حقوق الإله !

لقد رتب الإسلام على هذه المشاركة في النفس الواحدة ، نتائجها الطبيعية ، فأعطى المرأة حق الملك والتصرف والكسب والعمل والتعليم ، والزواج وطلب الطلاق ، والمجادلة عن نفسها والمنافحة عن حقوقها . . وهي مصونة الأخلاق ، تقوم بهذه الأمور كلها على مستوى « الإنسان » الراشد العابد النظيف ، لا على

---

(١) سورة آل عمران [١٩٥]

مستوى الحيوان المنفلت من القيد ، ولا الشيطان القاعد للفتنة والإغراء : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن »[1] «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن — إلا أن يأتين بفاحشة مبينة — وعاشروهن بالمعروف »[2] « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير »[3]

وفرنسا — المتحضرة — لم تعط المرأة حق التصرف المباشر فيما تملك ، وحق التعامل المباشر مع المجتمع إلا فى القرن العشرين ! وأوربا كلها لم تعط المرأة حق المساواة فى الأجر على العمل الواحد إلا فى القرن العشرين . وما تزال انجلترا إلى هذه اللحظة لا تراعى هذه المساواة بين الموظفين والموظفات ، بحجة أن المرأة تحمل وتلد وتطلب إجازة للوضع !

ولم تصل المرأة إلى هذه الحقوق حتى اضطرت أولا أن تخرج للعمل لتكفل نفسها لأنه لا عائل لها يكفلها ! واضطرت ثانياً أن تتخلى عن أخلاقها لأنها قيد يمنع حصولها على العمل ، من الرجل الحيوان الذى يريد — قبل أن يمنحها لقمة الخبز التى تريدها — أن ينال منها المتعة الحرام . ثم انتهى الأمر بها أن تقوم — غير مضطرة — بدور الفتنة فى الأرض ، وتحول الحياة فى الغرب إلى ماخور كبير . ثم .. ثم قال الغرب بعد هذا الصراع الحيوانى كله مع المرأة : إنه لا يعطى لها هذه الحقوق لأن ذلك مقتضى الحقيقة الأولية فى خلق الرجل والمرأة ، ولكن لأن « التطور » الاقتصادى قد اقتضى ذلك !! التطور « الحتمى » ! أى . . والناس راغمون !! بينما يضع الإسلام هذه القواعد مبتدئا — بلا ضغط من الظروف الاقتصادية ولا قهر — والناس راضون ، لأنهم بذلك يعبدون الله!

---

(1) سورة النساء [٣٢]
(2) سورة النساء [١٩]
(3) سورة المجادلة [١]

ويضعها قواعد ثابتة — لأنها مستمدة من حقيقة ثابتة — تطبق فى المجتمع الرعوى — الذى كان يوم نزل الإسلام — وفى المجتمع الزراعى الذى تلاه ، كما تطبق فى المجتمع الصناعى والمجتمع الذرى سواء . لا دخل لها « بتطور » أساليب الإنتاج ولا تطور الاقتصاد والمجتمع . لأنها تتعلق بشِقّى «الإنسان» .. الإنسان من حيث هو إنسان !

* * *

وتتفرع من قضية الجنسين قضايا كثيرة متشعبة ، ذات خطر كبير فى حياة البشرية :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة »(١)

الأزواج — كما مر بنا فى الفقرة السابقة — من « أنفسكم » . من « نفس واحدة» . ولكن الآية هنا تضيف بيان نوع العلاقة بين الجنسين واتجاهها وحكمتها .

لماذا خلق الله الأزواج ؟ إن حكمة الله واسعة شاملة . . ولكن الآية تحدد الحكمة — أو تشير إلى بعض اتجاهاتها — « لتسكنوا إليها » ذلك هدف خلقة الزوجين فى عالم الإنسان .

والسكن علاقة واسعة يشملها السكون والراحة والاطمئنان . . وتظللها السكينة ويرفرف عليها الهدوء . وهذا ما يريده الله من علاقة الزوجين . إنه لا يريدها خصاما وعراكا تفسد معه طيبات الحياة . ولا يريدها مشغلة دائمة وهمّا مقعدا مقيما كما هى اليوم فى الغرب حين انفلت من إطار الوحى الإلهى وأخلد إلى الأرض واتبع هواه .

«وجعل بينكم مودة ورحمة» ذلك تركيب الفطرة : التجاذب بين الجنسين. ولئن كان القرآن لم يستخدم هنا كلمة « الحب » وإنما استخدم « المودة »

(١) سورة الروم [٢١]

فلأنه — من ناحية — يريد أن يرفع العلاقة إلى أفق شفيف منير ، ولأنه — من ناحية أخرى — أكثر واقعية ! إن الوله والعشق والتطلع . . مرحلة من مراحل الدفعة الجنسية ، تقع فى فورة الشباب ولكنها لا تدوم . . وليس من شأنها أن تدوم ! إنما الذى يدوم هو المودة ! إنها تشمل العلاقة كلها فى جميع مراحلها ، وتبقى بعد فتور الوله والعشق والتطلع بحكم طبائع الأشياء وطبائع النفوس !

هذه القضية الثابتة ذات أطراف ثابتة ، وعلاقات ثابتة . ومن ثم ترتبت عليها أمور ثابتة فى حياة البشرية !

فالقضية تقوم ابتداء على وجود « الرجل » من ناحية و « المرأة » من ناحية . وتلك حقيقة ثابتة [فيما عدا انحرافات الفطرة التى سنتكلم عنها بعد قليل!] ثم على وجود تجاذب بين الرجل والمرأة من ناحية أخرى . وتلك حقيقة أخرى ثابتة . ثم على رغبة تحقيق السكن من هذه العلاقة القائمة على التجاذب من ناحية ثالثة . وتلك حقيقة كذلك ثابتة .

وإذ كانت جميع أطراف القضية ثابتة كما هو واضح . . فنتائجها لا يمكن أن تخضع للتطور والتغيير !!

وهنا تتداخل تلك القضية الثالثة [قضية الجنسين] مع القضية الرابعة التى سنتحدث عنها تفصيلا فى الفقرة التالية ، وهى قضية المجتمع [« وبث منهما رجالا كثيراً ونساء »] فتحددان معاً كل علاقات الجنسين .

إن هذا التجاذب القائم بين الرجل والمرأة ، ووجودهما فى ذات الوقت فى مجتمع ، قد استلزم تنظيم العلاقة بينهما على أسس تلتقى مع فطرتيهما أولا ، وتلتقى كذلك مع حقيقة وجودهما فى مجتمع .

لو كان الأمر أمر رجل واحد وامرأة واحدة فى كل الأرض . . لما احتاج إلى تنظيم كثير ! ولكن خروج النسل من هذه العلاقة بينهما أولا، وتحول النسل

إلى رجال كثير ونساء ثانيا ، يجعل الأمر فى حاجة إلى تنظيم دقيق محكم يمنع الخلل الذى ينشأ — كلما اتسعت الدائرة — من الفوضى التى لايضبطها دليل .

لقد استلزم وجود رجال كثيرين ونساء — لا رجل واحد وامرأة واحدة — تنظيم صور « التجاذب » الذى يحدث حدوثا فطريا بين الرجال والنساء . لكى لايصبح فوضى تصطدم فيه مختلف « التجاذبات » فتؤدى إلى ضياع «السكن» المرجو لكل نفس من جهة ، وتؤدى إلى فساد روابط المجتمع من جهة أخرى . كما استلزم وجود النسل المنبث من لقاء شِقَّى النفس الواحدة قيام « الأسرة » وتنظيم علائقها .

وهكذا تشعبت علاقات كثيرة مختلفة من الحقيقة الرئيسية وهى خلق الزوجين وشد بعضهما إلى بعض برباط الجذب و « المودة » . . ثم صارت هذه العلاقات المتشعبة ثابتة لأنها ترتكز على حقائق ثابتة .

وأمر العلاقة بين الجنسين هو أشد ما يجادل فيه المصابون بلوثة التطور فى الغرب والشرق ، وأشد ما يجادل فيه الأولاد والبنات الذين أعمتهم الشهوة المنفلتة من قيادها ، فلم تعد تبصر إلا متعة الجسد الفائر ، ولم تعد تطيق قيداً يوضع فى طريق السعار المجنون .

ولكننا ونحن نناقش الأمور الجادة فى حياة البشرية لاينبغى أن نغمض عيوننا عن الحقائق الثابتة « الصارمة » التى لاتلين لشهواتنا وأهوائنا ، ولا تدور معها حيث تدور . « إننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع . لقد نقضنا قوانين الطبيعة فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى ، الخطيئة التى يعاقب مرتكبها دائما . . . فالحياة لاتعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن فى السماح بارتياد الأرض المحرمة . . هى إضعاف السائل . ولهذا فإن الحضارة آخذة فى الانهيار » [ألكسس كاريل] .

---

(١) سورة الروم [٢١]

لذلك لاينبغى لنا ونحن نبحث هذا الموضوع الجاد ، أن ندور مع شهوات الأولاد والبنات ، أو نندفع وراء المصابين بلوثة التطور . . إنما ينبغى أن نبين لهؤلاء وهؤلاء حقائق الفطرة ، فيساعدهم ذلك على مواجهة أزمتهم والتغلب عليها بإنشاء أوضاع تلائم الفطرة وتسير فى اتجاهها . .

إن ثبات العلاقة بين الجنسين ، وعدم خضوعها « للتطور » أمر تمليه الفطرة التى لاحيلة لأحد فيها . والتى رأينا من شهادة القرن العشرين أنها لم تتطور فى عشرين قرنا من الزمان ، ولم تعط إلا إجابة واحدة فى كلتا المرتين ، وفى كل مرة استئذنت فى ارتياد الأرض المحرمة !

لقد أعطت الفطرة إجابتها واضحة حاسمة جازمة فى كل مرة انفلت فيها عقد « الضوابط » فى علاقات الجنسين ، وانفلت فيها الأولاد والبنات وراء دفعة الجسد لايطيقون صبرا ولايخضعون لتنظيم .

أعطت الفطرة إجابتها فى اليونان القديمة وروما القديمة وفارس القديمة . وأعطت إجابتها فى العالم الإسلامى يوم انحل وركبته الشهوات . وأعطت إجابتها فى فرنسا فى الحرب العظمى الثانية . وتعطى إجابتها الآن على نطاق واسع فى كل الأرض ، وفى أمريكا و روسيا على وجه التخصيص . .

إجابة واحدة لاتتغير : الانحلال الخلقى والإباحية الجنسية . . معناها الدمار . معناها الشقاء . معناها الضياع . لا إجابة غير هذه الإجابة فى كل التاريخ !

وعبثا حاول القرن العشرون أن ينجو من قانون الفطرة الصارم . أو من عقوبة الفطرة التى تصيب مخالفيها .

عبثا حاول أن يقول إنه خَلْق وحده لا شبيه له من قبل !

وعبثا حاول أن يقول إنه لا توجد « فطرة ثابتة » للإنسان !

وعبثا حاول أن يقول إن ما أصاب الأمم السالفة من الدمار مع النشاط الجنسى « الحر » لن يصيبه !

وعبثا حاول أن يقول إنه سيمنع الدمار قبل حدوثه لأنه جيل واع فاهم عارف دارس متعلم !

وعبثا حاول أن يقول إن لديه علاجا لكل داء !

عبث . . كله !

إنها إجابة واحدة ثابتة تصدر عن الفطرة الثابتة . .

إما تنظيم علاقات الجنس بقيود من الدين والأخلاق والتقاليد.. و إما الانفلات الحر . . والشقاء البشع والدمار الرهيب . .

تلك هى « الحتمية » الحقيقية . . لأنها حتمية الفطرة كما خلقها الله .

ما قيمة الجدل والإنكار ؟

ماقيمة دفن الرءوس فى الرمال ؟

الشهوة لذيذة . نعم . والانفلات محبوب :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا ...(1)»

ولكن العقوبة عنيفة ، هائلة . مخيفة . . .

الضغط العصبي والنفسى . الانتحار والجنون . الشذوذ والجريمة . . الدمار .

تلك شهادة القرن العشرين . .

من ذا الذى يملك عقلا فى رأسه ، ثم يندفع وراء لوثة التطور ، أو وراء شهوة الأولاد والبنات ، وهو يرى أمامه النتائج بالفعل ، منذرة بأبشع نهاية للبشرية ؟ !

---

(1) سورة آل عمران [١٤]

بل من ذا الذى فى قلبه ذرة حب لهؤلاء الأولاد والبنات ثم لا يمسك بحجزهم أن يتهاووا فى الهاوية ؟

إن علينا واجبا « إنسانيا » ضخما ، نؤديه لأنفسنا . لإنسانيتنا . لأولادنا وبناتنا ، أن نبصّرهم بحقيقة موقفهم وحقيقة الفطرة لكى لا يذهبوا فى طريق الضياع .

وقد يكرهوننا — نعم — ونحن نبصرهم ! كما يكره الطفل الطبيب ويسبه ويلعنه وهو يحقنه بالدواء !

ولكن أى أحمق يلقى الدواء من يده لأن الطفل يسبه ويلعنه ؟ أو يتركه فى لوثة الحمى لكى يحبه ؟ !

كلا ! إن كنا جادين . . فلنتبين حقائق الفطرة ، ونبينها للناس .

أو إن كنا لا نريد أن نتعب خواطرنا ، أو كنا نحن — كالأولاد والبنات — نريد أن « نستمتع » . نريد أن « ننتهب لذة العيش » . نريد أن نلغ فى حمأة الجنس . . فلنكن صرحاء ! ولنقل إننا هكذا « مبسوطون » مرتاحون ملتذون لا نريد أن نفيق من دخان الحشيش والأفيون . وليكن بعد ذلك ما يمكن أن يكون ! !

* * *

حقائق الفطرة تقول إن هناك تجاذبا فطريا بين الجنسين . . لا بد أن يأخذ سبيله إلى اللقاء . ففى أى صورة يكون هذا اللقاء ؟ على صورة التخصص ؟ أنثى معينة لكل رجل ، ورجل معين لكل امرأة ؟ أم على صورة المشاع : كل أنثى لكل رجل وكل رجل لجميع النساء ؟

تجربة القرن العشرين تعطينا الإجابة الحاسمة عن هذا السؤال .

إن المجتمع الغربى — أو الشيوعى — لم يصل لصورة الفوضى الكاملة . فما زال فيه أفراد فاضلون بل « متطهرون » . بل « متزمتون » يحافظون على التقاليد وينظرون بتقزز عنيف لتلك الفوضى الجنسية الضاربة بأطنابها هناك . . ومع

ذلك . . مع أن الفوضى لم تصل لصورتها الكاملة . . فإن بوادر الانهيار قد بدت واضحة وصارت تنذر بانهيار المجتمع ، مع القلة القليلة الفاضلة المتبقية فيه . . فكيف إذا زادت عن ذلك ، وهى ماتزال فى طريقها إلى الزيادة ، لأن الشياطين لم تشبع بعد ، ولم تزل تطلب المزيد من التدمير ؟ !

والمجادلون يقولون : لا هـذا ولاذاك . . لا التزمت ولا الإباحة . . شيء وسط بين الطرفين المتطرفين !

لانحرم كل علاقة بين الجنسين ، ولا نطلق لها العنان !

أكذوبة لطيفة مخدرة ! تريح الأعصاب من عناء التفكير والتدبير ، وحمل الهم ، ووجع القلب !

نبيح للشبان والفتيات الاختلاط . . مع الرقابة !

الولد والبنت يشتركان فى « النشاط الاجتماعى » . فى الجامعة بلاشك . وفى المدرسة الثانوية إذا أمكن . وفى الشارع . والنادى . والـ . . . .

تحت رقابتنا !

ماذا يمكن أن يصنع الأولاد والبنات وهم تحت رقابتنا ؟ !

ستهذب مشاعرهم . ويذهب الجوع الجنسى الناشئ عن الحرمان من ناحية. ويتعارف الجنسان من ناحية أخرى فلا يصير كل منهما مجهولا من الآخر متهيبا له ، تملأ رأسه الخيالات المنحرفة عنه . .

و . . تحت رقابتنا ! ماذا يمكن أن يحدث تحت رقابتنا ؟ !

ولقـد يحدث فعلا أن يميل ولد إلى بنت ، أو بنت إلى ولد . . أليس كذلك ؟

شيء فطرى . ماذا يمنع ؟ . . تحت رقابتنا !

ولقد يحدث فعلا أن يشتد الميل . . شيء فطرى !

فلنكن واقعيين ! هل يمكن أن نمنع هذا الشيء الفطرى ؟

فلنكن بعيدى النظر : هل الأفضل أن يتم اللقاء خلسة . . أم تحت رقابتنا؟!

ولقد يحدث فعلا أن يطغى الميل و يشتد . .

« ياسيدى . . وماله . . بكرة يتزوجها » !

فلنكن بعيدى النظر : هل الأفضل أن يتزوج بنتا لاتعرفه أو يعرفها . . أم بنتا تعرفه و يعرفها ؟

ضمة ؟! قبلة ؟ فى السينما أو فى الشارع . . فى الظلمة . . أو فى الخلوة ؟ !

ياسيدى . . وماله . .

شىء من عبث جنسى ؟ ! لاضير البتة .. تجربة يأخذ منها خبرة .. والبنت؟ ستعرف صاحبها ! تأخذ موعظة تنفعها فى غفلتها ! هل أنت ستحرسها إن شاءت أن تفسد ؟ كلا ! فلتتركها !

ماذا يحدث حتى من غير رقابتنا ؟ ! !

تلك طريق الحرية فى القرن العشرين ! !

بدأت — والله ! — بهذا التفكير المخلص لا من جانب الشياطين الذين أوحوا بلوثة التطور وأوحوا بالانفلات من القيود والانطلاق كالحيوان . . ولكن فى أذهان المربين والآباء والأمهات ، و ربما بعض « رجال الدين » المتطورين !

ثم . . كانت النتيجة التى يشكومنها المربون والآباء و الأمهات والساسة والعلماء . . . و . . . رجال الدين !

لاوسط لشهوات البشرية !

لاوسط يمكن الوقوف عنده بالإرادة الواعية أو النية المخلصة . .

إنما الوسط المتخيل الذى يراود الناس أحيانا ، فيودون — فى إخلاص — أن يقفوا عنده ، هو مرحلة من مراحل « التطور ! » . مرحلة من مراحل الانزلاق لا تكون قد أبعدت بعد فى الهبوط ! ولكنها مرحلة لايمكن الوقوف عندها أبداً . تلك حتمية الفطرة ! وتلك تجربة التاريخ !

لقد قال القرن التاسع عشر الذى بدأ تجربة الاختلاط هذه : سنقف عند المرحلة المأمونة . لن نوغل . لن نفقد أنفسنا . لن تبلعنا الهوة . . لكن لم يقدر أن يفعل ! بلعته الهوة أو كادت فى القرن العشرين !

والبطء الذى تتم فيه عملية الانهيار ، البطء الذى يجاوز أعمار الأفراد إلى أعمار الأجيال ، هو الذى يغرى الأفراد بأن يعتقدوا أن الوقفة ممكنة عند الحد الأوسط!

كلا ! وهم باطل ! لم يحدث فى التاريخ !

ليس « التطور » هو الذى يقول . ليس التفسير المادى هو الذى يقول . إنما تلك حقيقة الفطرة . وهى « الحتمية » المفردة الصادقة فى كل هذه الأباطيل .

مادام قد انفلت القيد فلا وقفة !

والوقفة الظاهرية التى تستغرق جيلا أو بضعة أجيال هى التى تخدع المخلصين فتخيل لهم أن الوقفة أمر ممكن ! إنها خدعة ! انظر إلى رقعة أكبر لكى ترى حقيقة الخط الهابط ومدى الاندفاع ! إن عقرب الساعات فى الساعة بطىء الحركة فلو نظرت إليه لبضع دقائق فلن تراه يتحرك من مكانه ! ولكن انظر إليه بعد ساعة ! ثم بعد ساعات ! والساعة ذات التقويم بها خانة تبين اليوم من الشهر . بطيئة الحركة ! تتحرك مرة واحدة فى اليوم . لو نظرت إليها بضع ساعات فلن تراها تتحرك من مكانها ! ولكن انظر إليها بعد يوم كامل . ثم بعد أيام !

وانظر إلى التاريخ على نطاق واسع . انظر إلى الأجيال . فى الجيل الواحد قد لا تتغير الصورة كثيراً . وإن كانت فى هذا الجيل خاصة عنيفة التغيير ، لأن الشياطين ينفخون فيها بعنف عنيف . ولكن انظر إلى رقعة واسعة لكى ترى الصورة على حقيقتها . .

لا وسط لشهوات البشرية !

تلك حتمية الفطرة . . فى نهاية المطاف ! فطرة الفرد . . وفطرة الجماعات !

إن الشهوة لا تشبع بالإرواء الدائم ! بل تشتد ظماءً وتجن !

خذ أمريكا مثلا . .

هل فى المجتمع الأمريكى حواجز تمنع من إرواء الشهوة ؟ أى حواجز ؟ !

كلا ! لا شىء البتة !

ومع ذلك ففى هذا المجتمع ذاته ينتشر إلى حد «الشبق» عشق الصور العريانة !

وتنتشر حوادث الاغتصاب والخطف الجنسى . والقتل بعد إتمام الجريمة الخلقية !

وينتشر — أبشع من ذلك — الشذوذ الجنسى فى الأولاد والبنات على حد سواء !

وفرنسا وسويسرا وبلجيكا . . نفس الصورة . . ودول الشمال « أرقى » بلاد الأرض !

إجابة واحدة تعطيها الفطرة حينما تستأذن فى ارتياد الأرض المحرمة ! إجابة ثابتة فى التاريخ !

* * *

هل معنى ذلك أن « نكبت » مشاعر الجنس ؟

أو ليست المضار الناشئة من الكبت والحرمان وبيلة هى الأخرى ؟

بلى ! وبيلة !

الحرمان الكامل طويل يفسد مشاعر النفس ويتلف الأعصاب !

والشذوذ الجنسى الذى يصاحب الحرمان الطويل معروف فى التاريخ . والخيالات المريضة التى تشغل كل جنس بالجنس الآخر ، وتحصر تفكيره الظاهر والباطن فى مشاعر الجنس . و . . . و . . . كل شىء معروف !

والحرمان الكامل الطويل مجاف للفطرة ولم يطلبه الله من البشرية !

إنما وضع نظاما «معتدلا» وسطا لا يكبت المشاعر ولا يطيل فترة الحرمان.

فالكبت بمعناه النفسي ، أي استقذار الدافع الجنسي ، أمر لاوجود له في مفهوم الإسلام ، الذي يضع علاقة الجنسين في النور الكامل ، ويقول إنها فطرة . وإنها فطرة سوية . وإنها فطرة مصرح بها ومرغوب فيها ! « وإن في بضع أحدكم لأجراً ! قالوا يارسول الله : أإن أحدنا ليأتي شهوته ثم يكون له عليها أجر ؟ ! قال : أرأيت لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ قالوا : بلى ! قال : فإذا وضعها في حلال كان له فيها أجر ! »(١)

وتطويل فترة الحرمان أمر يأباه الإسلام بكل وسائله ! فهو يدعو دعوة صريحة إلى التعجيل بالزواج . ويضع الترتيبات الاقتصادية التي تعين عليه ، بما في ذلك إعانة بيت المال للشبان المتزوجين ! فالنظام الإسلامي نظام متوازن في جملته تتناسق فيه التصورات الاعتقادية والتوجيهات الخلقية مع التنظيمات السياسية والاقتصادية ، وتتكامل كلها وتتفاعل ، لإنشاء مجتمع كامل فاضل . ومن ثم فهو لا يكل مسألة التبكير بالزواج لمجرد التوجيه ، ولكنه يكفل لها التحقيق بتيسير وسائل الحياة العملية في نظامه المتكامل .

ولن نقف هنا طويلا لنناقش إمكانية هذا الأمر في تعقدات المجتمع الحالية ! فالبشر مطالبون أن يكيفوا أوضاعهم على ضوء فطرتهم ، لا أن يمسخوا فطرتهم على ضوء أوضاع يخضعون لها في ذلة واستخذاء ! ثم . . إن التعقيدات الاقتصادية ليست هي السبب الحقيقي في إطالة فترة التعطل الجنسي التي تغري بالفساد ! فالشباب في أمريكا يتكسب في سن مبكرة جداً ، ثم ينفق كسبه في المتعة الحرام ! لأن هذا هو التوجيه الذي تصبه في أعصابه الشياطين ! ولا يعجز المجتمع الأمريكي الثري عن تنظيم عملية الزواج للشباب لو أراد . . لو كفت عن تضليله الشياطين ! والمجتمع الشيوعي تعوله الدولة ! ولا تعجز الدولة عن تنظيم عملية

---

(١) رواه مسلم .

الزواج للشباب لو أرادت . . لو لم يكن فى حساب القائمين عليها أن «الأخلاق» خرافة ينبغى أن تباد ! ومع ذلك فقد سمعنا صيحة خرشوف المنذرة بالوبال !

أما نحن — المسلمين ! — فنحن لا هنا ولا هناك ![1]

إنما يعنينا على أى حال أن نتبين طريقة الإسلام فى مسايرة الفطرة ، وتنظيم حياة البشرية على أساسها . على الأقل . لكى نعرفها !

لا كبت . ولا حرمان . ولكن تنظيم .

تنظيم يشمل الفرد والمجتمع فى ذات الوقت ، وبوسيلة واحدة مشتركة . فالمجتمع النظيف المتوازن ، تقوم فيه الأسرة النظيفة المتوازنة ، التى تربى الفرد النظيف المتوازن . والفرد النظيف المتوازن بدوره ينشىء الأسرة وينشىء المجتمع. ومن ثم يعمد الإسلام إلى تنظيف ضميرالفرد ، بربط قلبه ومشاعره بالله ، وتربيته على طاعته ، وحبه وخشيته ، وفى ذات الوقت يضع التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والتوجيهات الفكرية والروحية التى ترسى المجتمع على قواعده السليمة ، التى تنشىء الأفراد المتوازنين .

وفى مسألة الجنس بصفة خاصة يكره الإسلام الاختلاط بلا سبب،ويبيحه فى أضيق الحدود . ويمنع التبرج والفتنة ولايبيحهما على الإطلاق ! ويكره خروج المرأة بلا سبب ويبيح خروجها عند الاقتضاء نظيفة المشاعر نظيفة السلوك .

ويكره لها العمل الذى تتشبه فيه بالرجل ، ومع ذلك يبيحه إباحة كاملة فى حالة الضرورة . ويشجع على الزواج وييسر وسائله ، ويدعو إلى التبكير فيه . ويمنع إقامة علاقات جنسية خارج هذا النطاق .

---

(١) انظر فيما بعد فصل « نحن والغرب » !

تلك هى الخطوط السريعة لسياسة الإسلام فى أمر الجنس وهى أمور سهلة ميسرة متناسقة مع النظام الإسلامى حين يطبق فى واقع الحياة ..

وكلها ترتكن إلى الفطرة ودوافعها و « حتمياتها » كما ترتكن إلى الحقائق الثابتة فى حياة البشرية .

* * *

التجاذب بين الجنسين — كما قلنا — فطرة ، حتمية الحدوث . ومادام الجنسان ليسوا أفرادا معدودين ، ولكنهم رجال كثير ونساء ، فقد لزم تنظيم التجاذب بينهما لكى لا يؤدى إلى الفوضى والاضطراب .

وإباحة الاختلاط بلا سبب ، وتبرج المرأة وانشغال بالها بالفتنة والإغراء هما اللذان أفسدا الغرب وأنشآ تلك النذر التى شكا منها كنيدى وخروشوف ، والفلاسفة والعلماء .

فالإسلام لذلك لا يبيح هذا ولا ذاك .

وليس الحجاب التقليدى هو المقصود . ولا الكبت ولا الحرمان .

لقد كانت المرأة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تخرج وتعمل وتقاتل وتعلم بنات جنسها . . كل ذلك بقدر الضرورة الواجبة لشخصها وللجماعة المسلمة.

نعم . وفى المجتمع المسلم تقوم بكل تلك الألوان من النشاط عند الاقتضاء . فى المجتمع المسلم . أى فى المجتمع النظيف الذى يعبد الله ، ويطبق شريعته، ويأتمر بأوامره . أما فى غير هذا المجتمع فليس لها — أولأى أحد — أن يحتج بالحقوق أو الحريات التى أعطاها الإسلام للمرأة ! وهى — والمجتمع معها — لا يطبقان فى حياتهما هذا الإسلام .

إنه لم يقل لها — بداهة — أن تعيش وترضى بمجتمع غير مسلم ، لا يطبق

نظام الإسلام فى حياته . فإذا هى قبلت أن تعيش فى مثل هذا المجتمع -- غير منكرة عليه — فما لها إذن وما للحقوق التى نظمها الإسلام للمجتمع الإسلامى ، رجاله ونسائه على السواء ؟!

ولم يقل لها — بداهة — أن تخرج متبرجة شغلتها الفتنة ! فإذا كانت اليوم — بحكم العدوى الآتية من الغرب -- تصنع ذلك ، فهى وشأنها . . ولا شأن لها بالإسلام ! ولا تتمحك فى الإسلام !

وما دامت تخرج — فى المجتمع المسلم — لهذه الشئون ، فالعزلة الكاملة ليست قائمة بين الجنسين . ولكن لا تقوم العلاقات « الخاصة » بين الشبان والفتيات ، والرجال والنساء . لا يقوم نظام « الأخدان » الذى يسمى «الصداقة» فى الغرب .

وهى تخرج محتشمة كشرط أساسى لقيام المجتمع المسلم . . تلك مسألة لا يمكن أن يتنازل عنها الإسلام !

ويقول دعاة الحرية ودعاة التطور ودعاة تطوير الإسلام (!) إن المسألة عادة ! فنحن حين نعتاد أن نرى المرأة الحاسرة عن شعرها وذراعيها وساقيها . . لا يحدث شىء !! فى مبدأ الأمر تحدث هزة . . هزة المفاجأة . ثم يصبح المنظر عاديا جداً . . لا يثير شيئا على الإطلاق . بل يصبح — عجيبة ! — أقل إثارة من الفتاة المغطاة الشعر والذراعين والساقين !

وسنسلم معهم — والله — بكل يقولون . . ثم نظل عند رأينا . . رأى الإسلام !

إن الذين يقولون إن منظر المرأة الحاسرة لا يثير شيئا فى نفس الرجل حين يعتاد عليه .. أولئك ينظرون إلى الرقعة الصغيرة من التاريخ . . ولا ينظرون فى تاريخ الأجيال ! ينظرون إلى عقرب الساعات بضع دقائق ويقولون إنه لا يتحرك من موضعه ولا يدل على شىء !

ولكن . . فلنحسب الحسبة من أولها . . لنصل منها إلى نهايتها !

لماذا حسرت أول بنت عن ساقيها وذراعيها وشعرها ؟

فى وقت من الأوقات كان المجتمع لايبيح ذلك . عن إيمان . ويراعيه بدقة. ثم تنحل قليلا روابط المجتمع ، ويفتر الإيمان . . فتخرج « الحثالة » تحاول أن تنتفش حين يخف عليها الضغط![1] عندئذ تخرج أول فتاة حاسرة . ماذا تقصد ؟ تقصد بلا شك إثارة الفتنة بهذا الصنيع . وتحدث الفتنة بالفعل . وتحدث العدوى. فالمجتمع فى سبيل الانحلال. وتحدث الهزة الأولى . « الطيبون » يستنكرون ، والخبيثون يمضون فى الطريق على حذر فى مبدأ الامر . ثم فى استهتار حين تخف حدة الاستنكار . .

وتخف الهزة فعلا . يعتاد الناس على المنظر الجديد . يصبح عاديا حقا لا يثير شيئا فى النفس . إنه جزء من « الروتين » اليومى يفقد دلالته بعد حين ، لتتبلد الحواس عليه . كما تتبلد حتى على فعل السموم .

هذه حقيقة . .

ولكنها نصف الحقيقة . .

ونصفها الآخر هو الذى ينساه — أو يتناساه — دعاة الحرية ودعاة التطور . ودعاة تطوير الإسلام !

إن التى خرجت أول مرة تبغى الفتنة [ومثيلاتها بطبيعة الحال اللواتى تكاثرن بالعدوى] لم تعد لهن ميزة فى المجتمع الجديد ، الذى قلدهن كله . فأصبحن فيه عاديات . . لا يثرن الانتباه .

وهن لا يردن أن يكن عاديات . . يردن أن يثرن الانتباه !

---

(١) راجع فصل « الثابت والمتطور فى كيان الإنسان » ص١٤٢ من هذا الكتاب .

فإذا كان القدر — البسيط — من العرى الذى تعرينه أصبح عاديا.. فلابد إذن من المزيد .. بضعة سنتيمترات تتعرى من أى مكان . من صدر الفستان. من ظهره . من تحت الركبة . .

وتعود الصيحة . . والهزة . . وتعود فتفتر . . يصبح عاديا هذا القدر من « الفتنة » فلا يثير الفتنة ! يصبح من روتين اليوم المعتاد !

نعم . . ولكن لن تقف العجلة !!

البنت الأولى — ومثيلتها — لابد ستزداد !

القصد هو الفتنة ! فإذا بطلت الفتنة بتعرية الصدر ، لأن كل الفتيات يعرين صدورهن ، والشبان اعتادوا المنظر وتبلدت حواسهم عليه ، فلابد من شىء جديد يثير الفتنة ويزيد الإغراء . . تعرية جديدة . بدعة جديدة فى المشى. خلاعة فى الضحكة .. تبذل فى الأخلاق .. أى إثارة .. القصد هو الفتنة !

والبركة فى « المودة » وبيوت الأزياء ! والسينما والتليفزيون ! تلتقط الخيط الهابط ، وتزيد هبوطا فى الحمأة !

لا تقف العجلة ..!

والطيبون المخدوعون . الذين يظنون أنهم يستطيعون وقف العجلة عند حد معين .. عليهم أن يفيقوا من غفلتهم ، ليروا أين : فى أى مكان فى الأرض، وفى أى عصر فى التاريخ ، أمكن وقف العجلة عند الحد « المعقول » ! وما الحد المعقول ؟ ! وعليهم أن ينظروا فى المجتمع الحاضر من حولهم ليروا كيف ومتى يمكن وقف العجلة المندفعة فى طريق الفتنة والإغراء . . والتردى فى الفاحشة . . والتحلل من كل رباط . . ؟ !

كلا ! لاتقف العجلة . . تلك شهادة القرن العشرين ، فى كل الأرض . . وهى كذلك شهادة التاريخ . .

إنها الحتمية الوحيدة الصادقة ، لأنها حتمية الفطرة التى تقول إنه لا شِبَع للشهوات إلا بالضبط وبالتقييد !

من أجل ذلك لا يبيح الإسلام الفتنة والإغراء . . ولا يبيح الفاحشة . . ويصر على الحشمة فى الزى وفى المشية وفى الحديث ، للرجل للمرأة سواء :

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها . وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن ، أو بنى أخواتهن أو نسائهن ، أوما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء . ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن . توبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون[1] » . « فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض[2] » . « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى[3] »

هذا . . أو الدمار !

الدمار الرهيب الذى بدأ يهدد الغرب . . ويؤذن غدا بتدمير البشرية ! !

* * *

وتلك قضية ثابتة لا تتغير !

ثابتة لأنها لا تنبع من تغير أساليب الإنتاج ، ولا من التطور الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، ولا من التطور العلمى . . أو أى لون من ألوان التطور . . وثابتة لأن كل « تطور » تقع فيه البشرية لا يحول دون نتائجها الحتمية !

(١) سورة النور [٣٠ — ٣١] (٢) سورة الأحزاب [٣٢]
(٣) سورة الأحزاب [٣٣]

إنها تنبع من الفطرة . من مكونات النفس البشرية . من قوة الجذب بين شقى الإنسانية . جذب إما أن ينظم . . و إما أن ينفلت قياده بلا نظام . .

وكل دعاى التطور . . وكل النيات الحسنة التى تتعلق بأمل الوقوف عند « الحد المعقول » . . الوقوف قبل الهاوية . . الحيلولة دون الاندفاع الخطر . . الـ . الـ . . كلها تقف مخذولة أمام شهادة القرن العشرين . . وشهادة التاريخ .

وليست الأمور بالتمنى . .

إن حقائق التاريخ وحقائق الفطرة أمور جادة لاتحتمل العبث . . ولاتحتمل التضليل ! وكذلك لاتحتمل المخالفة !

« سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا »(١)

« إننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع . لقد نقضنا قوانين الطبيعة فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى ، الخطيئة التى يعاقب مرتكبها دائماً . . فالحياة لاتعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن فى السماح بارتياد الأرض المحرمة . . هى إضعاف السائل. ولهذا فإن الحضارة آخذة فى الانهيار » [ألكسس كاريل]

* * *

ينظم الإسلام اللقاء — الفطرى — بين الجنسين فى علاقة مشروعة هى الزواج . بعد تحريم العلاقات الأخرى كلها ،وتربية الفرد خلقيا ودينيا على النفور من الفاحشة والتقزز منها ، وتنظيف المجتمع من المثيرات غير العادية التى تجعل الفضيلة مستحيلة . فيمنع التبرج والرقاعة والخلاعة ولين الحديث وفنون الإغراء، و يوجد متنفس — من الجنسين — أهدافا جادة بدلا من تلك الأهداف التافهة المحصورة فى الإغراء من جانب ، والوقوع فى الإغراء من جانب آخر ، من أجل التسلية والبهجة والمتاع الرخيص ! أهدافا جادة تشمل إقامة الجماعة الراشدة

(١) سورة الأحزاب [٦٢]

التى تنشد القيم العليا وتحاول تطبيقها فى الأرض ، فى عالم المادة وعالم الروح . فى التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والروحية . . النظيفة المتعالية . . ولكل من الجنسين فيها نصيبه كما سيجىء . .

وحين ينتظم اللقاء الفطرى فى رباط الزواج المقدس تنشأ الأسرة .

والأسرة هى النظام الطبيعى الذى يلبى الفطرة . .

وقد أطلقها دركايم كلمة خبيثة لم يثبتها بدليل .. وإنما تركها تشكك الناس فى مقدساتهم وفى فطرتهم ، حين قال إن الأسرة ليست نظاما فطريا ! !

وشهادة ألوف السنين وعشراتها . . ليست فى نظره ذات دلالة ! ولا تشهد — فى نظره — باتجاه الفطرة !

وما البديل ؟ ما البديل حين يصدر « العقل الجمعى » أمره — سبحانه ! — بتحطيم الأسرة والعدول عنها ؟

البديل الوحيد هو الفوضى الجنسية . . ودمار المجتمع فى آخر المطاف !

الأسرة هى التى تلبى كل دوافع الفطرة . دافع الجنس . والرغبة فى النسل . والرغبة فى « الاستحواذ » . وفى « الامتداد » و « البروز » . وفى السكن والاستقرار . .

وذلك فوق أنها ضرورة « فطرية » لتربية الأطفال ، لاتغنى عنها المحاضن ولا المدارس ولا التربية الجمعية التى تطبقها النظم الجمعية الحديثة . [راجع شهادة ألكسس كاريل ص ١٥٩ من هذا الكتاب ، وشهادة أنـا فرويد فى كتابها « أطفال بلا أسر » حيث تتحدث عن الاختلالات النفسية والعصبية التى تنشأ من وجود عدد كبير من الأطفال يشتركون فى أم واحدة هى الحاضن المربية ، ضد الفطرة التى تجعل الطفل فى سنتيه الأوليين على الأقل فى حاجة إلى أم كاملة لا يشركه أحد فيها] .

وإذ كانت الأسرة ضرورة ثابتة للبشرية ، لاتلغيها تطورات الإنتاج ولا تطورات الاقتصاد [حتى وإن كانت تنحرف بها فى عصر من العصور الفاسدة ، كما حدث فى اليونان القديمة وفى الغرب الحديث] فهى فى حاجة إلى نظام ثابت مثلها ينظم أركانها ويرسى قواعدها . وقد أعطاها الإسلام التشريع الثابت الذى يكفل استقرارها وتمسكنها .

أعطاها تشريعات الخطبة والزواج والطلاق والحضانة والإنفاق . والصلح والخصام . والنشوز من أحد الزوجين . كما حدد حقوق الزوج وحقوق الزوجة وحقوق الأطفال المادية والمعنوية .وحدد « آداب » الأسرة ، وآداب المجتمع كله تجاه الأسرة وعلاقات الزواج . .

وأعطى ذلك كله صفة الثبات . . لأنها أمور مرتكنة مباشرة على الفطرة. على الجانب الثابت من الكيان البشرى . على وجود الرجل من طرف ، والمرأة من طرف ، والتجاذب الدائم بينهما الذى لابد أن يفضى إلى اللقاء .

و « التطوريون » يقولون إن نظم الأسرة لا يجوز أن تكون ثابتة . لأنها تتأثر بالتطورات العلمية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية . .

المرأة اليوم قد استقلت اقتصاديا . وصارت تعمل . وصارت الأداوت العلمية الحديثة تيسر لها شئون المنزل ، فلم تعد تشغل بالها ولا وقتها كما كانت من قبل ، ونشأ عندها « فراغ » لابد أن تقضيه فى « المجتمع » بصورة من الصور ، وطاقة لابد أن توجهها للنشاط « الاجتماعى » . كما أن الاستقلال الاقتصادى لم يجعل للرجل ذلك السلطان الذى أعطاه له الإسلام [الذى نشأ فى مجتمع — لاننسى ! — متأخر ! بدوى رعوى !] . . الخ . . الخ .

وقد ناقشت تلك الدعاوى فى كتب سابقة . ولكن لابأس هنا بالمزيد !

إن الاستقلال الاقتصادى الذى تفرح به المرأة الغربية الحديثة ، والذى

كلفها الحصول عليه أن تخرج من دينها وأخلاقها وتقاليدها ، كان قضية مسلّمة في النظام الإسلامي لاتحتاج إلى جهاد . . و . . لايترتب عليها إفساد الأسرة !

وإن « العمل » الذى اضطرت إليه المرأة الغربية اضطراراً اقتصادياً ، واضطرت فيه كذلك إلى التنازل عن أخلاقها لتأكل . . حق أعطاه الإسلام المرأة .. ولكن دون أن يضطرها إلى التبذل ، ودون أن يقبل منها — أو من الرجل — ذلك التبذل .

ولكن الإسلام لم يقم علاقات الأسرة على استقلال المرأة الاقتصادى أو عدم استقلالها . ولا على خروجها للعمل أو عدم خروجها . إنما أقامها على أسس الفطرة . والفطرة ثابتة لاتتغير . .

إن الإسلام — رغم إعطاء المرأة الاستقلال الاقتصادى الكامل ، ورغم تقرير حقها — عند التطبيق الواقعى — فى أن تعمل وتخرج إلى «المجتمع» للضرورة . . أقام الأسرة على أساس أنها « أنثى » لا رجل ! أنثى تقوم بالمهمة الفطرية للأنثى ، وتتكيف نفسيا وعصبيا بهذه المهمة ، وتتخصص لها ، وتطلق فيها طاقتها الحيوية وتبذل فيها نشاطها . ثم ترعاها . ترعى نتاجها الطبيعى ، وتمنحها الجو العاطفى الذى يمسكها ويحافظ على روابطها . وكفل لها مقابل ذلك أن يعولها الرجل — لا ليسلبها حق الاستقلال الاقتصادى [فهو مكفول] ولا ليسلبها حق العمل [فهو مكفول كذلك عند الضرورة . ضرورتها هى الفردية أو حاجة المجتمع إليها] — ولكن لكى لاتشغل بالها وأعصابها بإعالة نفسها وهى متزوجة وفى كنف رجل ، حتى تتوفر لها شحنتها الكاملة من أجل مهمتها المقدسة : مهمة الإنتاج البشرى ورعايته . بينما ينصرف الرجل للإنتاج المادى ورعايته ، متخصصا له ، مطلقا شحنته العصبية فيه .

والغرب الحديث — بحكم ظروفه أو بحكم انحرافاته — قد أبى الاستماع لنداء الفطرة ، وتنظيمها الطبيعى ، وزعم أنه « سيطور » علاقات الأسرة ، ويطور

وضع المرأة ، بل يطور كيان المرأة ذاتها من الداخل لتصبح مخلوقاً جديداً متطورا غير ما أرادته لها عصور الظلام ! مخلوقا « مساويا » للرجل فى كل شىء . كل شىء على الإطلاق !

فماذا كانت النتيجة ؟

لنسمع هنا شهادة « العلم » . . وهى جزء من شهادة القرن العشرين !

يقول ألكسس كاريل فى كتاب « الإنسان ، ذلك المجهول »

« إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لاتأتى من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعليم . إذا أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك .. إنها تنشأ من تكوّن الأنسجة ذاتها ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض . . ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة ، إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليما واحداً ، وأن يمنحا سلطات واحدة ومسئوليات متشابهة . . والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيراً عن الرجل . فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها . والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها . وفوق كل شىء بالنسبة لجهازها العصبى . فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين ، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبى فليس فى الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها . ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هى . فعلى النساء أن ينمين أهليتهن ، تبعاً لطبيعتهن ، دون أن يحاولن تقليد الذكور . فإن دورهن فى تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال . فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة »

[ص ١١٤]

« ... وعلى أى حال يبدو أن النساء — من بين الثدييات — هن فقط اللائى يصلن إلى نموهن الكامل بعد حمل أو اثنين . كما أن النساء اللائى لم يلدن لسن متزنات توازنا كاملا كالوالدات . فضلا عن أنهن يصبحن أكثر عصبية منهن . صفوة القول أن وجود الجنين ، الذى تختلف أنسجته اختلافا كبيراً عن أنسجة الأم ، بسبب صغرها ، ولأنها — جزئياً — من أنسجة زوجها ، يحدث أثراً كبيراً فى المرأة . إن أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن بدرجة كافية . مع أن هذه الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة . ومن ثم فمن سخف الرأى أن نجعل المرأة تتنكر للأمومة . ولذا يجب ألا تلقن الفتاة التدريب العقلى والمادى ولا أن تبث فى نفسها المطامع التى يتلقاها الفتيان وتبث فيهم .. يجب أن يبذل المربون اهتماما شديداً للخصائص العضوية والعقلية فى الذكر والأنثى. كذا لوظائفهما الطبيعية. فهناك اختلافات لاتنقض بين الجنسين ، ولذلك فلامناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات فى إنشاء عالم متمدين » .[ص ١١٦—١١٧]

« أليس من العجيب أن برامج تعليم البنات لاتشتمل بصفة عامة على أية دراسة مستفيضة للصغار والأطفال ، وصفاتهم الفسيولوجية والعقلية؟ يجب أن تعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التى لاتشتمل على الحمل فقط، بل أيضاً على رعاية صغارها» . [ص ٣٦٨] .

تلك شهادة عالم طبيب ، لايستمد « رجعيته » من المفاهيم الدينية ، ولكن من حقائق العلم المعملية !

وهذه شهادة طبيبة نمسوية التقت بها الدكتورة بنت الشاطىء فى النمسا ، ونشرت حديثها عنها فى جريدة الأهرام بعنوان « جنس ثالث فى طريقه إلى الظهور » :

« . . شاءت الظروف أن أذهب فى عطلة الأحد ، لزيارة صديقة لى طبيبة بإحدى ضواحى « فينا » — بعد أسبوع مرهق قضيناه بين أوراق البردى

العربية فى دار الكتب — وكنت أحسب أن يوم الأحد هو أنسب وقت لمثل تلك الزيارة . فما كان أشد عجبي حين فتحت لى صديقتى باب بيتها معجلة ، وفى يدها « بطاطس » تقشره . ثم قادتنى فى لطف إلى مطبخها لنأخذ مجلسنا هناك .

« ولم يغب عنها ماشعرت به من دهشة فابتدرتنى قائلة :

« ما كنت تتوقعين هذا المنظر : طبيبة فى المطبخ ، يوم الأحد !

« قلت ضاحكة : أما العمل يوم الأحد فربما فهمته . وأما اشتغالك بالطبخ مع ما أعرفه من إرهاق مهنتك ، فهذا مالم أنتظره .

« فردت : لو عكست لكنت أقرب إلى الصواب . فالعمل فى عطلة الأحد هو المستغرب عندنا ، لولا أنه فرصتي الوحيدة لكى أقف هنا حيث ترين . وأما اشتغالى فى المطبخ ، فلعلى لم أتجاوز به نطاق مهنتى . إذ هو من نوع العلاج لحالة قلق أعانيها وتعانيها معى سيدات أخريات من المشتغلات بالأعمال العامة .

« ولما سألتها عن سر هذا القلق — مع استقرار الوضع الاجتماعى للمرأة الغربية — أجابت بأن ذلك القلق لا صلة له بمتاعب الانتقال المفروضة على جيل الطليعة من نساء الشرق ! وإنما هو صدى شعور ببدء تطور جديد يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والفسيولوجيا والبيولوجيا فى المرأة العاملة ، وذلك لما لحظوا من تغير بطىء فى كيانها ، لم يثر الانتباه أول الأمر ، لولا ماسجلته الإحصاءات من اطراد النقص فى المواليد بين العاملات . وكان المظنون أن هذا النقص اختيارى محض ، وذلك لحرص المرأة العاملة على التخفف من أعباء الحمل والوضع والإرضاع ، تحت ضغط الحاجة والاستقرار فى العمل . ولكن ظهر من استقراء الإحصاءات أن نقص المواليد للزوجات العاملات ، لم يكن أكثره عن اختيار ، بل عن عقم استعصى علاجه . وبفحص نماذج شتى منوعة من حالات العقم اتضح أنه فى الغالب لا يرجع إلى عيب عضوى ظاهر ، مما دعا العلماء إلى افتراض

تغير طارىء على كيان الأنثى العاملة نتيجة لانصرافها المادى والذهنى والعصبى — عن قصد أو غير قصد — عن مشاغل الأمومة ، ودنيا حواء ، وتشبثها بمساواة الرجل ، ومشاركته فى ميدان عمله .

« واستند علماء الأحياء فى هذا الفرض — نظريا — إلى قانون طبيعى معروف ، وهو أن « الوظيفة تخلق العضو » ومعناها فيما نحن فيه أن وظيفة الأمومة هى التى خلقت فى حواء خصائص مميزة للأنوثة ، لابد أن تضمر تدريجيا بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة واندماجها فيما نسميه « عالم الرجل » .

« ثم تابع العلماء هذا الفرض ، فإذا التجارب تؤيده إلى أبعد ممـا كان منتظراً ، وإذا بهم يعلنون — فى اطمئنان مقرون بشىء من التحفظ — عن قرب ظهور « جنس ثالث » تضمر فيه خصائص الأنوثة التى رسختها الممارسة الطويلة لوظيفة حواء .

« وثارت اعتراضات .. منها : أن كثرة العاملات ينفرن من العقم ويشتهين الولد . ومنها : أن المجتمع الحديث يعترف بالعاملة الأم ويحمى حقها فى العمل ، ويتيح لهـا بحـكم القانون ، فرصة الجمع بين شواغل الأمومة وواجبات العمل . ومنها : أن عهد المرأة بالخروج من دنياها الخاصة لايتعدى بضعة أجيال ، على حين يبلغ عمر خصائص الأنوثة فيها مالا يحصى من دهور وأحقاب .

« وكان الرد على هذه الاعتراضات : أن اشتهاء الزوجة العاملة للولد يخالطه دائما الخوف من أعبائه ، والإشفاق من أثر هذه الأعباء على طمأنينة مكانها فى محل العمل . ثم إن الاعتراف بالعاملة الأم قلما يتم إلا فى حدود ضيقة ، تحت ضغط القانون . وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الأمهات . وأما قصر عهد المرأة بالخروج ، فيرد عليه بأن هذا الخروج — على قرب العهد به — قد صحبه تنبه حاد إلى المساواة بالرجل ، وإصرار عنيد على التشبه به ، مما

عجل ببوادر التغيير ، لعمق تأثير فكرة المساواة على أعصاب المرأة ، وقوة رسوخها فى ضميرها .

« وما يزال المهتمون بهذا الموضوع يرصدون التغيرات الطارئة على كيان الأنثى ، ويستقرئون فى اهتمام بالغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بين العاملات ، والعجز عن الإرضاع لنضوب اللبن ، وضمور الأعضاء المخصصة لوظيفة الأمومة » .

* * *

تلك شهادة « العلم » . . أو شهادة « الفطرة » !

إنها تقول شيئاً واضحاً محدداً . . إن المرأة ينبغى أن تكون « أنثى » . وينبغى أن تتفرغ لوظيفتها الطبيعية الأولى . . الهامة . الخطيرة . المقدسة . ولا تفتن عنها بأية وظيفة أخرى قد تستطيعها ، وقد تتقنها ، وقد تبذ فيها الرجال . . الخ ، ولكنها ليست وظيفتها ! وليس من صالحها هى – كامرأة – أن تستبدل بها وظيفتها ! كما أنه ليس من مصلحة النوع البشرى أن تختل وظائف الجنسين فيه ، أو أن يختل كذلك تركيبهما العضوى ، فوق اختلال تركيبهما النفسى والعصبى !

وتنظيم الإسلام للأسرة قائم على تلك « الفطرة » . . الثابتة التى لا تتبدل إلا بالانحراف . وتلك نتائج الانحراف كما يرويها « العلم » المحايد ، الذى تشترك فيه الطبيبة مع الطبيب !

ولكن المهم أن الإسلام – وهو يجارى الفطرة فى تخصيص المرأة لوظيفتها – لم يجعل ذلك – بأى شكل من الأشكال – وسيلة لاستلاب إنسانية المرأة أو تحقيرها أو إهانتها . . الإسلام ! نحن نتكلم عن مجتمع يتعامل بالإسلام لا عن أى مجتمع منحرف يسىء فهم الإسلام ، أو يسىء استخدام السلطة التى

منحها للرجل فى بعض المواضع ، أو لايحترم روحه ونصوصه التى تقول : « وعاشروهن بالمعروف »[1] وتقول : « بعضكم من بعض »[2] . وتقول «خيركم خيركم لأهله [أى لزوجته] وأنا خيركم لأهلى »[3] .

ثم إن الإسلام ، وهو يخصص المرأة للأسرة .. لرعاية الإنتاج البشرى .. لا يضعها هناك لأنه يهمل كيانها أو لايحسب حسابها فى تنظيم الحياة البشرية وتنظيم « المجتمع » ! كلا ! إنه يعهد إليها بصيانة قدس من أقداس الإسلام والمجتمع الإسلامى . فالأسرة فى نظر الإسلام — وكذلك هى فى الواقع — هى المحضن الذى يتربى فيه الطفل ، ويتشرب أخلاق الإسلام وعقائده وشرائعه . وهذه المهمة الضخمة الخطيرة الهائلة ، التى تترتب عليها كل صورة المجتمع المقبلة — أى أخطر ما يسعى الإسلام إلى إقامته — موكولة للمرأة ، المتخصصة لها ، المكفولة الراحة فيها ، ولذلك لا يشغل أعصابها بالمهام الأخرى ، التى يستطيع الرجل أن يقوم بها ولا يستطيع أن يقوم بسواها ! ولا يشغل أعصابها بإعالة نفسها وهى تقوم بهذه المهمة الخطيرة المقدسة . . ثم لا يفسد أعصابها وكيانها بتوجيهها إلى مصارعة الرجل فى المجتمع — أو حتى مصاحبته — بالصورة التى تحولها — كما تقول الطبيبة المخلصة لبنات جنسها — إلى جنس ثالث معذب شقى فى طريقه إلى تدمير خصائصه الذاتية !

أما الفراغ المزعوم ، الذى تسعى المرأة الغربية الحديثة إلى ملئه بالعمل تارة ، وبالنشاط « الاجتماعى » تارة . . والفساد فى المنتديات وأماكن اللهو و « الاحتفالات » تارة أخرى . . فهو فراغ مفتعل . نشأ أولا من إقامة نظم اقتصادية واجتماعية فاسدة ، وتوجيهات نفسية وخلقية فاسدة . تتجه كلها إلى

---

(١) سورة النساء [١٩]   (٢) سورة آل عمران [١٩٥]
(٣) رواه الترمذى .

تأخير الزواج وتأخير إنجاب الأطفال . ثم تقليل عدد الأطفال .. فينشأ الفراغ .. المنافى للفطرة . ونشأ ثانياً من الظن الخاطىء بأن أى أحد غير الأم يستطيع أن يقوم بالتربية ويعفى الأم منها . . فينشأ الفراغ . . المنافى للفطرة !

إن التربية « بالجملة » فى المحاضن وما أشبهها تخرج أجيالا شاذةمنحرفةناقصة الآدمية .. ثم إنها تشغل فتيات بدور الأمومة الصناعية وهن محرومات من الأمومة الحقة ! ثم تقوم بحركة بهلوانية مجنونة غير عاقلة الهدف : تعمل المرأة لتكسب لتستطيع الإنفاق على الحاضنة التى تربى لها طفلها فى أثناء العمل !! وفى الطريق: يحرم الطفل من أمه الحقيقية ، وتحرم الحاضنة من الأمومة !!

مجموعة عجيبة من الاختلالات . . لا تحدث إلا فى قمة « الحضارة ! » التى يمارسها الغرب فى القرن العشرين !!

والإسلام — كلمة الله إلى الأرض — حاشا أن يقع فى هذه الاختلالات ، لإرضاء مشاعر مجنونة عند مجانين !

* * *

ننتقل الآن إلى القضية الرابعة :

«خلقكم من نفس واحدةوخلق منها زوجها، وبث منهمارجالا كثيراً ونساء».

إنها قضية المجتمع المكون من رجال ونساء ، مشتقين فى الأصل من النفس الواحدة التى خلقها الله .

وقد أخذنا جزءا من هذه القضية فيما سبق حين تعرضنا لعلاقة الجنسين فى داخل المجتمع . فالآن نكمل الحديث عنها فيما سوى علاقة الجنس .

إن تكون المجتمع من الأفراد : من الرجال والنساء ، قضية ثابتة لأنها تستند إلى حقيقة ثابتة لا تغيرها تطورات العلم ولا تطورات التاريخ .

وقد استلزم وجودها وجود علاقات معينة ثابتة بين الفرد وبقية الأفراد . أى بين الفرد والمجتمع .

ونبدأ بمناقشة تلك الأسطورة التى زعمها دركايم .. أسطورة « العقل الجمعى » الذى يحكم الأفراد بغير مقتضى فطرتهم ، ويفرض عليهم مالا يرغبون فيه بطريقة القهر الاجتماعى الذى لا يملك الفرد رده ولا التصرف فيه . إنها أسطورة عجيبة إن لم نقل كذلك خبيثة فقد انتهى منها كما رأينا إلى أن الأسرة ليست فطرة [أى أن البديل — وهو الفوضى الجنسية — ممكن الحدوث بصورة طبيعية إذا أراد ذلك العقل الجمعى !] والدين ليس فطرة [أى أن البديل — وهو التحلل الدينى — ممكن الحدوث بصورة طبيعية إذا أراده العقل الجمعى] وأن الجريمة ليست ظاهرة اجتماعية معتلة ! وإنما هى ظاهرة اجتماعية طبيعية ومفيدة للمجتمع !! [كتاب قواعد المنهج فى علم الاجتماع (ص ١١٨ من الترجمة العربية) : « ومن ثم تكاد تكون الجريمة الظاهرة الوحيدة التى تنطوى بصفة لا تقبل الشك على جميع أعراض الظاهرة السليمة » ص ١١٩ « ولكن معنى ذلك أيضا أننا نؤكد من جهة أخرى أن الجريمة عامل لا بد منه لسلامة المجتمع . وأنها جزء لا يتجزأ من كل مجتمع سليم » !]

إن هذه الأسطورة كلها تقوم على شىء واحد : أن الإنسان الفرد يقوم فى أثناء وجوده فى « الجماعة » بأعمال قد لا يرضى عنها أو يرغب فيها . بل قد يستنكرها إذا خلا لنفسه فيما بعد !

وهذه — ولا شك — حقيقة ! ولكن ما دلالتها ؟ !

إن هؤلاء السادة « العلماء » الكبار يغفلون عن حقيقة « فطرية » كبيرة ، هى ازدواج الطبيعة الإنسانية[1] ويفسرون الإنسان دائما بأحد جانبيه دون الآخر ، ومن ثم يتمحلون الأسباب للوجه الآخر — الموجود دائما — فيفسرونه بتفسير

---

(١) انظر فصل « طبيعة مزدوجة » فى كتاب الدراسات .

آخر « خارج » كيان الإنسان ! فتارة يكون المادة . وتارة يكون المجتمع . وتارة يكون ... !

إن من الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية : الفردية والجماعية . والسلبية والإيجابية . كلاهما موجود وجودا فطريا فى الإنسان. كلاهما أصيل . ليس أحدهما مفروضا على الإنسان من خارج كيانه . وكلاهما يؤثر فيه . وهو قابل للتأثر من كلا طرفيه بصورة فطرية ، لا من طرف واحد فحسب .

والذى يجعل الإنسان فى المجتمع يقوم بأعمال لا يرضى عنها كفرد ، بل يستنكرها حين يخلو إلى نفسه ، ليس هو « القهر الاجتماعى » فى كل حالة ، وإنما هو فى كثير من الحالات « المشاركة الوجدانية » ! أى الرغبة — الفطرية — فى مشاركة الآخرين ولو على حساب الكيان الفردى ، لفترة من الوقت وليس كل الوقت !

والذى يهدم دعوى دركايم ، أن القهر الاجتماعى — وهو حقيقة فى كثير من الحالات — لا يستطيع مهما أوتى من قوة وضغط أن يلغى فطرة الفرد . فطرة الإنسان . وإن كبتها إلى حين . فكل الضغط الذى ما رسته الشيوعية لم يستطع إلغاء النزعة الفردية للتملك ! فاضطرت الشيوعية إلى التراجع! كما أن«الثورات» هى التعبير الدائم عن رفض الخضوع للقهر . ومع أن الثورة ذاتها ظاهرة« جماعية» إلا أنها ولا شك تتجمع من نفوس الأفراد . بل قد تبدأ بفرد واحد ثائر، يجمّع حوله الآخرين . يجمعهم من داخل فطرتهم . من عدم رضاهم عن القهر .

فالجماعية التى تطغى أحيانا على الفرد.والسلبية التى تسكت أحيانا على القهر ، كلتاهما نزعة فطرية . ومن ثم تصبح كل الظواهر الاجتماعية فى النهاية فطرية . سواء كانت سليمة أو معتلة . فالفطرة عرضة للانحراف وعرضة للاعتدال . ومن

اعتدالاتها وانحرافاتها تنشأ اعتدالات الفرد وانحرافاته ، واعتدالات المجتمع كذلك وانحرافاته .

* * *

« المجتمع » جزء من الفطرة . الفطرة الثابتة . والعلاقة بين الفرد والمجتمع كذلك ثابتة فى عمومها . وكونها تقلبت فى شتى العصور ذات اليمين وذات الشمال ، فأخذت صورة فردية حادة أو جماعية حادة ، لايعنى أنه ليس لها مقياس من الفطرة ولا أنه مقياس غير ثابت . وإنما يعنى فقط أنها — ككل شىء فى الفطرة البشرية — قابلة للانحراف كقابليتها للاعتدال .

والقانون الثابت الذى ينبغى أن يحكم علاقة الفرد بالمجتمع ،هو أنهماناشئان معا من النفس الواحدة . فليس أحدهما « أقدس » من الآخر ، وليس لأحدهما حرمات أكثر من الآخر !

وعلى هذا الأساس تصان حرمات الجميع وحقوق الجميع .

ومن ذلك نشأت — فى الإسلام — نظرية الحدود أى العقوبات المحددة من الله . ونشأ كذلك ثبات هذه الحدود .

إن العقوبة فى طبيعتها ، وفى ثباتها ، تخضع لهذه الحقيقة الثابتة : وهى أن الرجال الكثيرين والنساء [المكوّنين للمجتمع] منبثون من ذات النفس الواحدة . ومن ثم لحقوقهم « الإنسانية » جميعا واحدة وحرماتهم واحدة .

حرمة الدم ، وحرمة العرض ، وحرمة المال ، حرمات متساوية . وثابتة . لا تغيرها التطورات .

وعقوبات العدوان على حرمات الدم والعرض والمال كذلك عقوبات ثابتة لا تغيرها التطورات .

ومن ثم جاءت فى الإسلام عقوبات القتل [وما دونه من جراح] والزنا

والسرقة . والإفساد فى الأرض الذى يشمل الجرائم السابقة جميعا ويزيد عليها فتنة الناس فى أمنهم أو عقيدتهم .

أما عقوبة الردة فهى مرتبطة بالعقيدة فى الله . وهى عنصر كذلك دائم وثابت فى حياة البشرية .

وقد تحدث كثيرون عن «التطور» فى النظر إلى العقوبة ، وتحذلق كثيرون وهم يشيرون إلى أبحاث علم النفس الحديث — والتحليلى خاصة — فى طبيعة الجريمة ، وأبحاث علم الاجتماع ، وعلوم كثيرة أخرى تبحث فى هذا الميدان . .

تحدثوا كثيرا وتحذلقوا كثيراً . . وقالوا عن العقوبات الإسلامية جهالات كثيرة !

قسوة. رجعية . تأخر . عدم احترام إنسانية الفرد . النظرة الانتقامية لا النظرة العلاجية . . الخ . . الخ .

وفى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » فصل كامل عن الجريمة والعقاب . وفى كتاب « قبسات من الرسول » فصل آخر بعنوان « ادرءوا الحدود بالشبهات » . ولا أملك هنا إلا تلخيص الفكرة فى سطور .

إن كل « التطور » « والتقدم » « والتحضر » لم يستطع أن يضيف جديداً لفكرة الإسلام! بل لم يصل بعد إلى عدالة الإسلام ، ونظرته التربوية والتوجيهية.

إن الإسلام لا يبدأ بالعقوبة !

ولكن يبدأ بوقاية المجتمع من أسباب الجريمة !

ثم بعد ذلك — بعد أن يهيئ الوقاية المطلوبة . بعد أن لا يعود هناك دافع معقول للجريمة — يأخذ فى تطبيق العقوبة !

ومع ذلك — فاحتياطاً من عدم التأكد من استحقاق المتهم للعقوبة استحقاقا كاملا — يقول : ادرءوا الحدود بالشبهات ، أى : يفسر الشك فى صالح المتهم !

ويقول : « لأن يخطئ الإمام بالعفو خير من أن يخطىء بالعقوبة[1] » !

فأية عدالة . . ! وماذا أضاف التطور والتقدم والتحضر إلى تلك القمم العالية . بل ماذا يمكن أن يضيف ؟ ! بل ماذا بلغ ، وماذا يمكن أن يبلغ ؟ !

« روى أن غلمانا لابن حاطب ابن أبى بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة ، فأتى بهم عمر ، فأقروا ، فأمر كثير بن الصلت بقطع أيديهم ، فلما ولى رده . ثم قال : أما والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لوأكل ما حرم الله عليه لحل له ، لقطعت أيديهم . ثم وجه القول لابن حاطب ابن أبى بلتعة فقال : وأيم الله إذ لم أفعل ذلك لأغرمنك غرامة توجعك ! ثم قال : يامزنى بكم أريدت منك ناقتك ؟ قال : بأربعمائة . قال عمر لابن حاطب : اذهب فأعطه ثمانمائة » !

ذلك هو الإسلام ! إنه لم يوقع العقوبة على السارق — حين رأى أن « المجتمع » هو الذى يدفعه إلى السرقة — بل وقع العقوبة فى الواقع على هذا المجتمع الظالم ممثلا فى صاحب رأس المال ! وذلك قبل التشدق بالبحوث النفسية والبحوث الاجتماعية والاقتصادية بأكثر من ألف عام !

وعقوبات الإسلام كلها منظور فيها هذه النظرة . وقاية المجتمع أولا من أسباب الجريمة . بالتشريع والتوجيه معا . ثم النظر فى كل حالة مفردة للتأكد من دوافع الجريمة فيها . ودرء العقوبة بالشبهة .

والمهم هنا أن نثبت أن هذه الحدود ثابتة ، لأنها ترتكز على عوامل ثابتة . مع مافيها من « المرونة » الإسلامية التى تجعلها تتسع لجميع الحالات ، وتردها إلى مقياس العدالة الثابت فى جميع الأحوال .

---

(١) حديث ذكره صاحب مصابيح السنة فى الصحاح .

وقد مر بنا من قبل فى الحديث عن القضية الثانية : قضية وحدة البشرية وأخوتها ، كلام يدخل فى قضية الفرد والمجتمع ، فيحسن أن نذكر به فى ظل القضيتين المتداخلتين فى حقيقة الأمر :

إن علاقة المجتمعات — الناشئة من نفس واحـــــدة — ليست علاقة الخصام والحرب :

« وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »(1) فالهدف الأخير هو التعارف .هو السلم الذى يدخل فيه الناس كافة . التعارف بكل الوسائل التى تؤدى إليه .

والحرمات تصان لجميع الناس لا لطائفة دون طائفة ولا لفرد دون فرد .

«من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أوفساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا . . ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا »(2) [وهو كذلك مكتوب على المسلمين]

وضمانات التحقيق وضمانات العدالة فى القضاء تشمل كل أبناء النفس الواحدة أيا كان لونهم أو دينهم أو شعبهم أو قبيلتهم . وأيا كانت العلاقة بينهم وبين المسلمين · علاقة حرب أو سلام . وقد مرت بنا الآيات التى نزلت لنصفة الرجل اليهودى . والتوجيه العام : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى »(3)

* * *

تلك هى الأمور الثابتة فى تشريعات الإسلام وتوجيهاته ، وتنظيماته للحياة البشرية .

وهى ثابتة لأنها تقوم على جوانب ثابتة فى كيان الإنسان ، لا يغير منها شيئا كل التطورات العلمية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنفسية .

---

(1) سورة الحجرات [13]
(2) سورة المائدة [32]
(3) سورة المائدة [8]

إنها أعمق فى الفطرة من كل تطور . وأثبت من كل تغيير ..

ولا يجوز أن يخدعنا أنها لا تأخذ هذه الصورة الثابتة فى الواقع البشرى .. فتفسير ذلك كامن فى انحرافات الفطرة لا فى تطورها .

والفرق بين الانحراف والتطور يتبين من النتائج التى يؤدى كل منهما إليها .

التطور — الذى يتمشى مع الفطرة — يؤدى إلى نتائج نافعة صالحة . أما الانحراف — الذى يسير ضد اتجاه الفطرة — فيؤدى إلى الأمراض النفسية والاجتماعية . والعصبية والعقلية .. الخ . وإلى الدمار .

وقد قالت لنا شهادة القرن العشرين ما فيه غناء ؛ فقد بينت لنا بجلاء ما نشأ عن انحراف الفطرة فى الأمور الثابتة التى لا تقبل التطور . وخاصة فى علاقات الجنس ومقاييس الأخلاق !

* * *

إلى هنا كنا نتحدث عن الجانب الثابت من الكيان البشرى، وعن التشريع الإسلامى الذى يقابله ويغطيه ..

والآن ننتقل إلى الجانب المتطور فى حياه الإنسان، لنرى كيف يواجهه الإسلام.

إن « صورة » الحياة البشرية تتغير تغيرا واسع المدى فى كل حين نتيجة الاحتكاك الدائم بين العقل البشرى والكون المادى .. وينشأ عن ذلك تنظيمات جديدة وأحوال .

وقد بينا فى الفقرات السابقة أن هذا التغير — الذى نصفه بأنه واسع المدى — لا يشمل جوانب معينة من الكيان البشرى والحياة البشرية ، لأنها ترتكز إلى أسس عميقة فى الفطرة غير قابلة للتغير .. إلا بالانحراف الذى يصيبها بأشد الأضرار ، ويعرضها للدمار . فالآن نقول إنه يشمل كل الجوانب الأخرى فى الإنسان .

يشمل التقدم المادى والعلمى وتطور أساليب الإنتاج .

ويشمل « صورة » المجتمع .. هل هو مجتمع رعوى . أو زراعى . أو صناعى . أو ذرى . . أو . .

ويشمل بالتالى اقتصاديات هذا المجتمع . وطبيعة الروابط والعلاقات بين المالكين وغير المالكين .

كما يشمل الصورة السياسية للمجتمع . أى شكل الحكومة وتنظيماتها .

وهذه الأمور كلها مرتبط بعضها ببعض ، وإن لم يكن — كما أثبتنا من قبل — ترابط السببية المباشرة . وإنما ترابط المواكبة والمصاحبة والتأثير المتبادل .

ولكنها كلها متغيرة . . هذا هو الطابع الذى يشملها جميعاً .

العلم يكتشف ويخترع على الدوام . ولم يكف عن هذه المهمة أبداً منذ مولده إلى هذه اللحظة . فهو ينمو نماء دائماً — إلا فى فترات الانحراف حين يخمل ويعقم ويكف عن التجدد — ويضيف دائماً حصيلة جديدة من المعرفة .

وباختراعاته واكتشافاته يطور الآلات والعدد والأدوات . . أى أساليب الإنتاج . وتلك — كما رأينا من كلام جوليان هكسلى — فطرة . ولكن « الصورة » التى تؤدى إليها هذه الفطرة متغيرة على الدوام .

وحين تتطور أساليب الإنتاج تنشأ نظم اقتصادية جديدة . وصورة جديدة من المجتمع . وصورة جديدة من الحكومة . . ويسير كل ذلك على سنة النمو الفطرية فى كيان الإنسان .

ولكن . . لاينبغى أن ننسى أن إنشاء نظم اقتصادية جديدة لايتوقف حتما على تغير أساليب الإنتاج كما زعم التفسير المادى للتاريخ . فقد رأينا كيف أنشأ الإسلام نظاماً اقتصادياً متفرداً ، غير مسبوق من قبل ، وهو فى الوقت ذاته غير قائم على أى ضرورة اقتصادية ولا على أى تطور فى أساليب الإنتاج ! وكذلك أنشأ صورة جديدة للمجتمع ، وصورة جديدة للحكومة . .

إنما يحدث — فى المعتاد — أن تتواكب التطورات كلها وتتصاحب . . وينشأ عنها تغيرات دائمة فى صورة الحياة البشرية . وهذا هو الذى نناقشه فى هذه الفقرة ، لنرى موقف الإسلام من هذه التطورات .

* * *

كما واجه الإسلام الجانب الثابت من الكيان البشرى بتشريعات وتوجيهات تناسبه وتتلاقى معه ، بحيث ينطبقان انطباقاً كاملا فى كل لحظة [فيما عدا حالات الانحراف بطبيعة الحال : حيث تفترق الصورة المطلوبة عن الصورة الواقعة بسبب الانحراف لا بسبب التطور . وينبغى فى تلك الحالة إعادة الأمر إلى وضعه الصحيح] . . كذلك يواجه الإسلام الجانب المتطور بتشريعات وتوجيهات تناسبه وتتلاقى معه ، بحيث ينطبقان انطباقاً كاملا فى كل لحظة . . ما عدا حالات الانحراف !

إن عملية النمو العلمى والمادى ، والاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، عملية فطرية . والتغير الدائم فيها فطرى وطبيعى . ولكن ليس معنى هذا أن كل تغير يحدث يكون طبيعياً وملائماً للفطرة ! فالفطرة عرضة دائماً للانحراف حين يساء توجيهها [أو حين تترك بلا توجيه صالح !] وعندئذ تنمو حقيقة ، ولكنها تنمو نمواً منحرفاً . كالطفل الذى ينمو بساق معوجة . إنه ينمو — كما تقتضى الفطرة أن ينمو — ولكن من يقول إن نموه سليم ؟ !

إنهما أمران معا فى ذات الوقت : النمو . . واستقامة النمو على الفطرة . وهذا ما يراعيه الإسلام !

* * *

بينا من قبل فى فصل « الثابت والمتغير فى كيان الإنسان » حقيقة هامة نحتاج هنا إليها حاجة شديدة ، هى أنه — حتى فى الجانب المتغير من الإنسان — تتغير « الصورة » ولا يتغير « الجوهر » . ومؤدى ذلك أن « التطور » لا يكون

سائباً منفلتاً من كل رباط ، يتجه بحسب هواه ، أو بحسب ما تقوده الظروف .
إنما ينبغى أن يكون له رباط من الفطرة . رباط يجعل له هدفاً صالحاً راشداً بانياً يتفق مع اتجاه الفطرة السوية . رباط يمنع الخلل والانحراف فى أثناء عملية النمو الفطرية .

التقدم العلمى تدفعه الرغبة الفطرية فى المعرفة . والعقل البشرى يكتشف ويخترع بمقدار ما يوفقه الله ويفتح عليه من طاقة المعرفة . ولكن التطبيق العملى لحقائق العلم المحايدة . . ليس أمراً محايداً ! فالتطبيق يمكن أن يتجه إلى الخير ، ويمكن أن يتجه إلى الشر . والفطرة السوية تستخدم العلم فى سبيل الخير فقط ، ولا تستخدمه فى سبيل الشر . لأن الشر لا يخدمها .

والنمو الاجتماعى والاقتصادى والسياسى نمو فطرى . ولكن له وجهين متقابلين . أو وجوهاً شتى تندرج تحت اتجاهين . أحدهما للخير والآخر للشر . والفطرة السوية تنمو فى سبيل الخير وتأبى النمو المنحرف فى سبيل الشر .
والنمو النفسى كذلك .
كل حركات النمو هذه فطرية ، فينبغى أن تحكمها الفطرة السليمة . ومن ثم ينبغى أن يكون هناك «إطار عام» يشمل عملية النمو ، ويمنعها من الانحراف. وذلك بالضبط ما يصنعه الإسلام !

* * *

إن الإسلام كلمة الله النهائية للبشرية : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام ديناً»[1] . ولم يكن لمجتمع الجزيرة العربية وحدها . ولا لعهد الرسول وحده صلى الله عليه وسلم . ولا لأى بيئة أو جيل محدد على وجه الأرض .

---

(١) سورة المائدة [٣] .

وإنما للبشرية كافة . وفى جميع أعصرها : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »
و « العالمين » لفظ يشمل الزمان والمكان على أقصى اتساع . بلا حدود !

لذلك لم يضع الإسلام — فى الأمور المتغيرة — أحكاما تفصيلية .

لقد وضع التشريعات التفصيلية الثابتة فى الأمور الثابتة فى أعماق الفطرة . التى لا تتغير . أى لا ينبغى أن تتغير . لأن كل تغير فيها هو انحراف ضار بحياة البشرية [راجع شهادة القرن العشرين !]

أما الأمور المتغيرة — ولو أن مبادئ الشريعة العامة تحيط بها وتشملها — فلم ترد فيها أحكام تفصيلية عرضة لأن تتحطم عند أول نمو يحدث فى المجتمع . . وهو حادث لا محالة !

لو وضع تشريعات اقتصادية تفصيلية ثابتة للمجتمع الرعوى القبلى ، لحطمها النمو الزراعى ، ثم النمو الصناعى ، وجعلها غير صالحة للاستعمال . ولكان ذلك فى الوقت نفسه قيدا يعوق المجتمع عن النمو الفطرى الصحيح .

ولو وضع صورة محددة لشكل الحكومة ، مفصلة على قد حكومة «المدينة» مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو على قد الجزيرة العربية القريبة العهد بالنظام القبلى ، لما صلحت هذه الحكومة لمجتمع الجزيرة العربية ذاته بعد جيل واحد من الزمان ، بعد الفتوح والامتداد ، والاحتكاك بشتى النظم والحضارات ، ونمو الحاجات . .

وحاشا لله أن يكون نظامه الدائم عرضة لهذه الاضطرابات ..

وإنما كان موقف الإسلام من هذا الأمر ، هو موقفه فى كل أمر .. المطابقة الكاملة مع الفطرة !

« إطار » ثابت يسمح بكل أنواع النمو الفطرى الصحيح . وأسس عامة تحدد الاتجاه وتعين الطريق وتمنع الانحراف . وتسمح بأشكال متعددة تقوم كلها على القواعد الكلية والمبادئ الثابتة ، كما تقوم على الخصائص المميزة للنظام الإسلامى ، التى تفرقه وتميزه عن الأنظمة التى وضعها البشر لأنفسهم .

وسنرى ، بشىء من التفصيل ، كيف كان موقف الإسلام من النمو العلمى، والنمو الاقتصادى والاجتماعى والسياسى · والنمو « الحضارى » على وجه الإجمال.

* * *

فأما النمو العلمى ، فلم يكن القرآن — كما يحلو لبعض ذوى النوايا الطيبة فى هذه الأيام أن يتصور! — لم يكن ليحوى « نظريات » علمية، فى الطبيعة والكيمياء والفلك والذرة والصواريخ . وليس من شأنه أن يفعل !!

إنما شأنه أن يوجه النمو العلمى بما ينفع الفطرة ويلائمها .. وذلك ما حدث بالفعـل .

لقد أشار القرآن إلى طاقة المعرفة : « وعلم آدم الأسماء كلها » (١) وأشار إلى وجوب التعلم : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » (٢)

ثم أوجب تدبر آيات الله فى الكون والتعرف عليها : « إن فى خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون » (٣)

وأوجب المشى فى الأرض والبحث عن رزق الله فيها : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه (٤)

وأعلم الإنسان — فى ظل هذا التوجيه كله — أن السماوات والأرض — بما تحويان من موجودات وطاقات — مسخرة للإنسان بأمر الله : « وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه » (٥) . فعليه إذن أن يسعى إلى تحقيق

(١) سورة البقرة [٣١] (٢) سورة العلق [١ — ٥] (٣) سورة البقرة [١٦٤]
(٤) سورة الملك [١٥] (٥) سورة الجاثية [١٣]

هذا التسخير بالفعل : بالعلم [التعرف على قوانين الـكون التى يسيره الله بمقتضاها] والتطبيق [المشى فى منا كب الأرض والأكل من رزقه] .

ومن تلك النقطة . من هذا التوجيه . انطلق العقل المسلم يرتاد الـكون .

العقل الذى كان فى جاهلية العرب لا يتجه إلى العلم إطلاقا .. كل همه أن ينظم شعراً جزلا مصقولا رصينا ، يضمنه على الأكثر بعض «الحـكم» النظرية .. انطلق فى عالم الواقع ينشئ أكبر حركة علمية فى تاريخ الأرض إلى ما قبل العصر الحديث .. ويكفى أن يكون هو الذى أنشأ المذهب التجريبى الذى تقوم عليه كل فتوحات العصر الحديث ! :

يقول « بريفولت » فى كتاب « بناء الإنسانية » Making of Humanity :

« لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية (١) على العالم الحديث ، ولـكن ثماره كانت بطيئة النضج .. إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا ، لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ؛ ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة . بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية . فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تـكون ، وأهم ما تـكون ، فى نشأة تلك الطاقة التى تـكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره : أى فى العلوم الطبيعية ، وروح البحث العلمى .

---

(١) يقصد الحضارة الإسلامية كما قال فيما بعد . ذلك أن التاريخ لم يعرف للعرب حضارة متميزة إلا بالإسلام . كما أن الحضارة الإسلامية لم تـكن قط حضارة للعرب كجنس . إنما كانت نتاج الإسلام ذاته من جميع العناصر المسلمة التى دخلت فى الإسلام . وهى تحمل طابع الإسلام لا طابع العرب . والعرب عنصر واحد من العناصر الـكثيرة التى صنعت هذه الحضارة .

« . . . . . . وإن ما يدين به علمنا لعـلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتـكرة . بل يدين هـذا العلم إلى الثقافة العربية [يقصد الإسلامية !] بأكثر من هذا : إنه يدين لها بوجوده نفسه . فالعالم القديم – كما رأينا – لم يكن للعـلم فيه وجود . وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية ، استجلبوها من خارج بلادهم ؛ وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم فى يوم من الأيام ، فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية .وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات . ولـكن أساليب البحث فى دأب وأناة ، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقةالمستمرة ، والبحث التجريبى . . كل ذلك كان غريباتماما عن المزاج اليونانى . أما ماندعوه « العلم » فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، من طرق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان . . وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية ، أدخلها العرب إلى العالم الأوربى[1] »

ويقول المؤلف نفسه :

« وإن « روجر بيكون » درس اللغة العربية والعـلم العربى فى مدرسة « أكسفورد » على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس . وليس « لروجر بيكون » ولاسميه « فرنسيس بيكون » الذى جاءبعده ، الحق فى أن ينسب إليهماالفضل فى ابتـكار المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية . وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى هى طرف من التحريف الهائل لأصول

(١) عن كتاب « تجديد الفكر الدينى فى الإسلام » تأليف محمد إقبال وترجمة عباس محمود ص ١٤٩ — ١٥٠ .

الحضارة الأوربية . وقد كان منهج العرب فى عصر «بيكون» قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوربا .

« ومن أين استقى « روجر بيكون » ماحصله من العلوم ؟

« من الجامعات الإسلامية فى الأندلس . والقسم الخامس من كتابه (Cepus Majus) الذى خصصه للبحث فى البصريات ، هو فى حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم[1] » .

ويقول دريبر الأستاذ بجامعة نيويورك فى كتابه « النزاع بين العلم والدين :

« تحقق علماء المسلمين من أن الأسلوب العقلى النظرى لايؤدى إلى التقدم ؛ وأن الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها . ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم الأسلوب التجريبى والدستور العملى الحسى .

« وإن نتائج هذه الحركة العملية تظهر جلية فى التقدم الباهر الذى نالته الصنائع فى عصرهم ، وإننا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر . ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية — الذى يعتبر مذهبا حديثا — كان يدرس فى مدارسهم . وقد ذهبوا فيه إلى أبعد مما وصلنا إليه . وذلك بتطبيقه على الجوامد والمعادن[2] . . وقد استخدموا علم الكيمياء فى الطب ، ووصلوا فى علم الميكانيكا إلى أنهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام . وكانوا عارفين كل المعرفة بعلم الحركة . ووصلوا فى نظريات الضوء والإبصار إلى أن غيروا الرأى اليونانى القائل بأن الإبصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئى ، وقالوا بالعكس . وكانوا يعرفون نظريات انعكاس الأشعة وانكسارها . وقد اكتشف « الحسن ابن الهيثم » الشكل المنحنى الذى يأخذه الشعاع فى سيره فى الجو .

---

(١) المصدر السابق ص١٤٨ . (٢) راجع الهامشة فى ص ٣٩

وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة فى الأفق ، وكذلك نراهما فى المغرب بعد أن يغيبا بقليل[1] »

* * *

وهذا يكفى لإثبات طبيعة الحركة العلمية التى نشأت فى ظل الإسلام ، والتى حوى القرآن « إطارها » التوجيهى ، ولم يكن ليحوى تفاصيلها لأنها متغيرة على الدوام.

إنما يهمنا فيها أن نشير إلى أن الإسلام كان يوجه الحركة العلمية فى طريق الخير ، ويعصمها من الانحراف الذى يمارسه العلم فى ظل الحضارة الغربية ، حيث تستغله الشياطين فى إفساد أخلاق الأمم والأفراد ، وتدمير مقدساتهم ، وحل روابطهم وإشاعة التفاهة فى نفوسهم ، بتأثير السينما والإذاعة والتليفزيون والصحافة . . ثم يستغل فى إنتاج الدمار على نطاق واسع ، بينما العالم يهدده الفناء بالجوع . والطاقة الذرية — التى تستخدم للدمار — هى وحدها — فى الوقت الحاضر — التى كان يمكن أن تزيد إنتاجية الأرض من الغذاء لسد الأفواه الجائعة المسكينة !

* * *

وفى النمو الاجتماعى والاقتصادى والسياسى كذلك . .

إطار عام يسمح بانفساح الصورة . ولكنه لا يسمح بانحراف الصورة !

أشار القرآن إلى نمو « الأمة » الإسلامية من قبائل متفرقة متناحرة إلى « أمة » موحدة الهدف مترابطة الكيان :

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون[2] »

وأشار إلى مقومات هذه الأمة ، وأسس حياتها وخصائص نظامها .

---

(1) عن كتاب الإسلام دين العلم الخالد لفريد وجدى .

(2) سورة آل عمران [١٠٣]

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله[1] »

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون[2] »

« وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان[3] »

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم[4] »

« إنما المؤمنون إخوة[5] »

« وأمرهم شورى بينهم[6] »

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا[7] »

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم[8] »

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون[9] »

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما[10] »

ثم لم يحدد « صورة » الأمة كيف تكون . تكون مرة مجتمعاً رعوياً . ومرة مجتمعاً زراعياً . ومرة مجتمع مدينة ، ومرة مجتمع تجار . أو صناع . ومرة..

---

(1) سورة آل عمران [110]
(2) سورة آل عمران [104]
(3) سورة المائدة [2] .
(4) سورة النساء [59]
(5) سورة الحجرات [10]
(6) سورة الشورى [38]
(7) سورة الحشر [7]
(8) سورة المائده [49]
(9) سورة المائدة [44]
(10) سورة النساء [65]

ومرة . . لايتقيد المجتمع فى نموه بصورة معينة ، ولايجد عائقاً واحداً يعوقه عن النمو ، إنما يجد دائما توجيهات توجهه فى عملية النمو وتمنعه من الانحراف .

ثم يشهد التاريخ أن النمو الاجتماعى والحضارى فى المجتمع الإسلامى قد بلغ الذروة — فى عصره — فلم يأل المسلمون جهداً فى الاستفادة بكل التنظيمات الإدارية التى وجدوها عند الأمم المفتوحة . ولا الحصيلة الحضارية التى وجدوها عندهم سواء فى مصر أو الشام أو فارس،فيما لايعارض عقيدتهم وتصورهم الخاص لغايات الحياة الإنسانية . كما اطلعوا على أسس الحضارات الرومانية والإغريقية والهندية ، واقتبسوا بحرية كل ما لايتعارض مع الأصل الذى ابتعثهم الله ليقروه فى الأرض ، جاعلين عقيدتهم وتصورهم الميزان الذى يقبلون على أساسه مايقبلون ويرفضون ما يرفضون .

وقد كان المجتمع الإسلامى — رغم كل ما أصابه من تدهور لأسباب مختلفة — قمة عالية أيام الحروب الصليبية نشأ من احتكاك الصليبيين بها كل ما حدث من تقدم فكرى واجتماعى وحضارى فى الغرب الحديث ، بشهادة من مرت شهادتهم من الكتاب الغربيين .

* * *

أما النمو الاقتصادى فقد وضع القرآن له إطارا ثابتا ، ثم تركه ينمو بحرية داخل الإطار ، دون أن يضع له صورة معينة ، أو يعوقه بقيد واحد عن النمو الصالح الرشيد .

النظرية العامة للاقتصاد الإسلامى تقوم على أساس أن الله سبحانه استخلف الإنسان — كنوع — فى الأرض ، وأن المال فيها مال الله ، والجماعة الإنسانية مستخلفة فيه ، وفق شروط الله الواردة فى شريعته ، سواء فى صورة مبادئ

كلية أو تشريعات جزئية ـ والأولى هى الأكثر ـ وأن الفرد موظف فى هـذا المـال ، تقوم وظيفته فيه على أساس الملـكية الفردية لجانب من هذا المـــال مقابل جهد يبذله ، و بشرط حسن التصرف فى هذه الملـكية ـ بما يعود على نفسه وعلى الجماعة كلها بالخير ، وفى حدود شروط الله التى بدونها لا يتحقق الخير . فإن هو سفه وأساء استخدام حق الملـكية قيد حق التصرف ، وعاد حق التصرف هذا إلى الجماعة ، صاحبة الحق الأول المستمد من خلافتها عن الله فى الأرض . وهذا لا يخل بقاعده الملـكية الفردية التى يقوم عليها نظام الإسلام كله ـ لا النظام الاقتصادى وحده ـ ولـكنه فقط يحيط هذه القاعدة بالقيود التى تـكفل حسن التصرف فى هذه الملـكية ، ويحفظ للجماعة حقها المقرر فى مال الأفراد بالزكاة وغيرها من التـكاليف بقدر حاجة الأمة وبحسبها ، مع الإبقاء على ملـكية الأفراد ، فيما عدا بعض الموارد العامة التى تبقى ملـكية عامة :

«آتوهم من مال الله الذى آتاكم »(١)

« ولا تؤتوا السفهاء أموالـكم التى جعل الله لـكم قياما »(٢)

ثم يجعل هناك قاعدة عامة لتوزيع المـال فى الجماعة :

« كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »(٣)

فلا ينبغى أن تحتـكره أيدى الأغنياء فى أية صورة . يجب أن توزع ملـكيته فى الأيدى الـكثيرة كى تتداوله، وكى تتم دورة المـال الطبيعية فى أيدى أكبر عدد من الأمة .

وهناك حق المعوزين والمحرومين ، تتقاضاه الجماعة حقا مفروضا ، وتوزعه على المحتاجين إليه :

---

(١) سورة النور [٣٣] (٢) سورة النساء [٥]
(٣) سورة الحشر [٩]

« وفى أموالهم حق للسائل والمحروم »[1]

هو حق الزكاة . ووراءه التكاليف الطارئة التى يؤخذ بحسبها كلما وجدت من أموال الأغنياء .

ثم هناك قواعد لكسب المال والتعامل فيه . فلا يجىء هذا الكسب ، ولا يتم هذا التعامل بطريقة فيها مضارة من أى وجه لفرد أو أكثر فى الجماعة . ومن ثم يحرم الغصب والنهب والسرقة والغش والاحتكار . كما يحرم الربا وهو أبشع هذه الوسائل جميعاً :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله . وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون[2]» «الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا . فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله . ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لايحب كل كفار أثيم »[3]

وهناك أمر بالمعاونة « النظيفة » . « فإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون »[4] .

تلك قواعد عامة . وذلك هو الإطار الذى ينمو فيه الاقتصاد الإسلامى بلا عائق . . إلا العوائق التى تمنع الانحراف .

---

(١) سورة الذاريات [١٩]
(٢) سورة البقرة [٢٨١]
(٣) سورة البقرة [٢٧٥ — ٢٧٦]
(٤) سورة البقرة [٢٨٠]

ولقد نما الاقتصاد الإسلامى فى ظل هذه المبادئ العامة نموا مطردا من الرعى إلى الزراعة إلى التجارة إلى الصناعة [البسيطة] إلى تداخل هذه الأنواع جميعاً فى وقت واحد . ونما معه الفقه الإسلامى فى جوانب « المعاملات » نموا هائلا حتى كون ثروة تفخر بها البشرية . وفى الوقت ذاته حالت تلك المبادئ العامة دون كثير من الانحرافات التى أصابت الاقتصاد الغربى . فحالت دون الإقطاع فى صورته الأوربية البشعة التى كانت تستعبد الفلاح للأرض ، وللهوى السيد الذى كانت تجتمع فى يده فى وقت واحـد السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية . . . مما لم يكن له مثيل فى الإسلام . وكان قمينا أن يحول دون بشاعات الرأسمالية لو بقى حياً عاملا فى الأرض ، ولم توجه إليه الضربات القاصمة من كل مكان ، ولم يتهاون أهله فيه كما حدث فى القرون الأخيرة على وجه التحديد.

وهنا قد يبدو لبعض الناس أن الإسلام ـ وهو يحرم الربا ـ يضع قيوداً على « النمو » الاقتصادى ، تمنع التقدم والانطلاق . . . وقد كانت تلك الشبهة تلذع بعض المسلمين فى مبادئ هذا القرن فيسعون إلى الاعتذار عن الإسلام فى هذا الأمر ! أو يسعون إلى الإفتاء بجواز الربا للضرورة أو جوازه لأنه اليوم شىء آخر غير المنهى عنه فى القرآن ! وما زالت الشبهة تلذع بعض المسلمين حتى اليوم فيصنعون هذا وذاك !

ولا نحتاج ـ فى هـذا العصر خاصة ـ أن نطيل الحديث فى ويلات الرأسمالية ، وهى النظام الذى يقوم على الربا أساسا ، ويضيف إليه أو ينتهى إلى الاحتكار .

إن بشاعات الرأسمالية الربوية غنية عن البيان . وقد قال فيها أعداؤها ـ بل أصدقاؤها أنفسهم ـ ما فيه الكفاية . ولا يطلب عاقل من الإسلام أن يبيح الأداة التى تتسبب فى كل هذا الظلم وكل هذا الدمار !

أما كيف يدار الاقتصاد المسلم بغير الربا فى ظل التقدم الصناعى فبحث متخصص لا نتعرض له هنا . وقد ألف فيه بعض العلماء المسلمين . فألف السيد أبو الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية بباكستان ثلاثة بحوث رئيسية : « أسس الاقتصاد الإسلامى » و « الربا » و « ملكية الأرض فى الإسلام ». وألف سيد قطب كتاب « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » . ونشر غيرهما بحوثا متفرقة عن الموضوع فى أولها بحوث الأستاذ عيسى عبده إبراهيم فى صحف شتى، وما زال الأمر متسعا لمزيد من البحث . . ولكن الأمر الذى ينبغى أن يستقر فى أذهاننا ابتداء أنه لا يمكن أن يحرم الله شيئاً فيه مصلحة للناس لا تتحقق بغيره! وقد أثبت التطبيق العملى صدق ذلك مرة بعد مرة . وكلما تقدم العلم وتقدمت تجارب البشرية [وانحرافاتها] ظهرت أسباب كانت مجهولة ، توجب تحريم ما حرم الله ! ثم بعد ذلك على المسلمين أن يستنبطوا النظم والتنظيمات التى تنفع الناس ولا تحل ما حرم الله . لأنه حرمه لسبب . لأنه يريد للناس الخير ولا يريد بهم الضر ويريد بهم اليسر ولا يريد لهم الحرج : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم »(١) « وما جعل عليكم فى الدين من حرج »(٢) .

وكذلك قد يقال إن الإسلام يضع قيوداً على « النمو » الاقتصادى لأنه لا يرحب كثيرا بخروج المرأة للعمل ؛ « والتقدم » الصناعى الحديث قد استوجب ذلك .

وقد بينا من قبل أن الإسلام لا يمنع خروج المرأة للعمل عند الاقتضاء ، وإن كان حقيقة لا يرحب بذلك كثيرا فى غير الوظائف النسوية الخاصة .

ولكنا نضيف هنا : أنه تبين لنا أولا مدى الضرر الذى يصيب المرأة من

---

(١) سورة المائدة [٦]

(٢) سورة الحج [٧٨]

تحويلها إلى رجل يعمل فى السوق وفى المصنع ... ضرر لا يوازى قط أى زيادة فى الإنتاج المادى يمكن أن يحدثها اشتراك المرأة فى العمل .

وتبين لنا ثانياً مدى الضرر الأخلاقى الذى أصاب المجتمع الغربى فى مقابل تلك الزيادة فى الإنتاج . وهو ضرر يوشك أن يدمر الدنيا كلها .. فلا تستفيد حتى بذلك الإنتاج !

ثم .. إن الإنتاج فى سبيله أن يتولاه الإنسان الآلى والمخ الإلكترونى والآلة الضخمة السريعة الإنتاج . . فما الحاجة غدا — فى الغد القريب — إلى إشراك المرأة فى العمل . . إلا شهوة الإشراك ؟ ! وحتى من قبل ذلك ، فها نحن أولاء نرى الرجال يتعطلون بالألوف والملايين ، بينما تفتح الأبواب لتشغيل النساء . فهل هى مصلحة الإنتاج التى تحتم أن يتعطل الرجال ويضطلع النساء بالعمل ؟ أم إنه أمر آخر تعرفه بروتوكولات صهيون ؟

والإسلام يبيح النمو الطبيعى الصالح الراشد البنّاء .. ولكنه ليس مسئولا أن يبيح انحرافات البشرية !

* * *

وفى الكيان السياسى وضع الإسلام القواعد العامة ، وترك التفصيلات للنمو الدائم الذى يلائم كل مرحلة من مراحل النمو العلمى والحضارى والاجتماعى والاقتصادى .

« إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم »(١)

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »(٢)

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا »(٣)

---

(١) سورة يوسف [٤٠]

(٢) سورة المائدة [٤٤]

(٣) سورة الحشر [٧]

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شىء فردوه إن الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر »(1)

« و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »(2)

« وأمرهم شورى بينهم »(3)

هذه القواعد : الحاكمية لله وحده . والحكم بشريعة الله دون سواها . والعدل من الحكام . والطاعة من المحكومين فى حدود شريعة الله . والشورى بين المحكومين و الحكام .. هى أسس الحكم فى الإسلام . أما شكل الحكومة فهو متروك بكليته للأمة المسلمة تقرره فى حدود هذه القواعد . فكل حكم بغير شريعة الله فهو حكم غير إسلامى . وكل حكم بغير شورى فهو حكم غير إسلامى . وكل حكم لا عدل فيه فهو حكم ينكره الإسلام .

و ربما لم يكن التطبيق الواقعى فى عالم السياسة والحكم كاملا إلا فى فترة الخلافة الراشدة ، التى وضعت القواعد السليمة للحكم : « إذا أحسنت فأعينونى وإذا أخطأت فقومونى » [أبو بكر] . « أطيعونى ما أطعت الله فيكم . فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » [أبو بكر] .. ثم فى فترات متقطعة أخرى.

ولكن الفقة الإسلامى على أى حال قد شهد فى عصوره المختلفة « نمواً » ضخما فى النظرية السياسية ، استفاد فيه من كل ما جد على المجتمع الإسلامى من أطوار ، واستنبط لكل ماجد أحكاما من الإسلام .

والذى يعنينا هنا أن نثبت المرونة الكبيرة التى يتسم بها التشريع الإسلامى فى السياسة ، مع الحيلولة دون الانحراف [فى الأصول الشرعية . أما أسباب

(1) سورة النساء [٥٩]

(2) سورة النساء [٥٨]

(3) سورة الشورى [٣٨]

الانحراف فى التطبيق فليس هنا مجالها . وهى انحراف على أى حال !] والقيمة الكبرى هى أن يضع الإسلام الموازين التى يتبين فى مواجهتها كل انحراف عند التطبيق ، ويوصم بأنه انحراف !

* * *

ذلك موقف الإسلام من الجانب المتغير فى حياة الإنسان .

لا يعوق التقدم ؛ بل يدفع إليه . ولكنه يضع المبادئ التى توجه إلى الخير وتمنع الانحراف . فيتمثل فيه الثبات والتطور فى وقت واحد . ثبات القواعد وتطور الأشكال . . .

وقد رفضت أوربا وصاية الدين على التطور العلمى والتطور الاقتصادى والاجتماعى والسياسى . . فماذا كانت النتيجة ؟

تقدم العلم حقا تقدما باهراً فى ظل النهضة الأوربية اللادينية . ولكن لا لأنها لا دينية ! ! وإنما لأن الدين الكنسى هناك كان يحارب العلم ويفرض القيود على العقل ليستديم الجهل أطول مدى مستطاع ! ولكن هذا التقدم العلمى ذاته مأخوذ — كما مر بنا من شهادة بريفولت ودريبر وغيرهما — من المسلمين ، الذين كانوا يضعون العلم — والحياة كلها — تحت وصاية الدين ، ويستمدونها من قواعد الدين . .

ثم . . ؟

ثم انطلق العلم — المنفلت من وصاية الدين — بلا ضابط فوقع فى غواية الشياطين . . يفسدون به الأخلاق ، ويحلون روابط المجتمع ، ويشيعون به التفاهة والسطحية والضحالة . . ويدمرون به وجه الأرض .

أما الاقتصاد . . فيكفى الإقطاع والرأسمالية ثم الشيوعية لبيان الفساد الذى حل بالاقتصاد الأوربى حين أبى وصاية الله عليه ! فساد يحيل البشر إلى سادة وعبيد ، مع اختلاف فقط فى صورة السيادة وصورة الاستعباد !

وفى الاجتماع .. تكفى المفاسد الاجتماعية والخلقية التى يعانيها المجتمع الغربى ، والتى ردته مجتمعا حيوانياً هابطا لا يفيق من متعة الجسد ولا يشبع . ولا يتعاطف بنوه كما يتعاطف بنو الإنسان . وإنما يعيش الغرب فى فردية بغيضة كريهة . فردية انفصالية لا تجمع شتات أمه « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى »[1]. ويعيش الشرق الشيوعى فى جماعية آلية لا تعرف طعم المودة الإنسانية الحقيقية ، وإنما تحكمها الدولة بالإكراه ، فى المزارع الجماعية والمصانع الجماعية التى يسيطر عليها الإرهاب.

وفى السياسة . . تكفى المظالم التى تملأ وجه الأرض اليوم . . من استعمار واستغلال واستعباد . ومن دكتاتوريات بشعة تستخدم الحديد والنار والتجسس ، وأبشع أنواع التعذيب التى يتصورها العقل ، لتحتفظ سلطانها الجبرى على الجماهير . . تكفى هذه المظالم ، فهى ليست فى حاجة إلى بيان .

أما الإسلام — فى هذه الأمور كلها — فهو « المحجة البيضاء » كما عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . المحجة التى تفرق النور عن الظلمة ، والصلاح عن الفساد .

المرونة الكاملة التى تسمح بالنمو . والصلابة الكاملة التى تمنع الانحراف .

وهو يستمد مزيته الكبرى فى هذا الشأن من مطابقته التامة للفطرة الثابتة الجوهر ، المتغيرة الأشكال .

* * *

ذلك موقف الإسلام من الثابت والمتطور فى حياه الإنسان .. موقف لا يصدر إلا عن تدبير إله !

فكل النظم التى صدرت عن تدبير البشر انحرفت ذات اليمين وذات الشمال . ولم تهتد إلى الصواب . . لأنها لم تهتد إلى « الفطرة » . . .

---

(1) سورة الحشر [١٤]

جهلتها — كما قال ألكسس كاريل — جهلا مطبقا ، ثم راحت — بهذا الجهل — تشرع للإنسان !

والإسلام - كلمة الله إلى البشر — يقف موقفا فريداً في كل مفاهيم البشرية وتصوراتها ، وتطبيقاتها العملية لهذه المفاهيم والتصورات .

إنه يشمل جوانب الفطرة جميعها فلا يركز على جانب ويهمل بقية الجوانب.

ويساير الفطرة في جميع جوانبها ، ويعطيها غذاءها الحق . فما كان منها ثابتا ، أعطاه التشريع الثابت ، وما كان منها متغيراً سمح له بالتغيير المطلوب . وبذلك فهو دين الفطرة . .

وهو كذلك دين البشرية كلها في جميع عصورها وجميع «تطوراتها» .

دين يدفع بذاته إلى التطور الصاعد الراشد البناء . ولا يقف من التطور الحق موقف الجمود والرجعية . إنما غيره من النظم المنحرفة ، التي تضفي على الانحراف ثوب التطور ، هي التي يمكن بحق أن تسمى رجعيات !

الإسلام والرجعيات

كل انحرافات البشرية التي تلبس ثوب التطور .. هي رجعيات جاء الإسلام ليقومها ويصححها !

ولأول وهلة قد تبدو هذه القضية بعيدة عن التصديق !

كيف ؟ ! وهذا « التقدم » كله الذي أحرزه العلم ؟ و« النمو » و« التطور » الذي حدث في النفس والمجتمع ؟

كيف يكون هذا كله رجعية ؟ وكيف يكون الإسلام — السابق في الزمن — قد جاء ليقومها ويصححها ؟ !

* * *

من أجل الحكم في تلك القضية الغريبة المظهر ، ينبغي أن نضع مقياسا للتقدم والرجعية .

هل هو مقياس الزمن وحده ؟ كل « جديد » تقدم ، وكل « قديم » رجعية ؟ !

إن هذا المقياس يصلح حقا لقياس التقدم العلمي . فكل جديد في دنيا العلم يمثل خطوة تقدمية لأنه يبدأ من الخطوة السابقة ويضيف إليها .. وإن لم يضف إليها فإنه يفقد مبرر وجوده .

أما بقية أنواع التحول .. الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، والنفسي والخلقي .. فهل ينطبق عليها المقياس ذاته ، فيصبح الزمن وحده هو المقياس ؟

نريد أن نرد الأمور إلى مقياسها الصحيح ..

هل الثلاجة الكهربائية والطائرة والصاروخ والمخ الإلكتروني هو مقياس التقدم .. أم « الإنسان » هو المقياس ؟ !

سيقول قائل : أوليس الإنسان هو الذي صنع الطائرة والصاروخ والمخ الإلكتروني ؟

بلى . ولا شك . ولكن : كيف يستخدمها ؟ هذا هو المقياس .

يستخدمها ليرتفع بها ؟ليشعر بمشاعر « إنسانية » أكثر ؟ ليكون شعوره بأخوة البشرية أعمق ؟ ليكون شعوره برباط « النفس الواحدة » أشد ؟ ليحب أخاه ؟ ليكون إنسانا مع عدوه ؟ أم ليصبح وحشا ساحقاً ماحقاً يحكمه البغض وتوجهه الأنانية وتعميه وحشية الصراع . . أو تفاهة الصراع ؟

أيهما المقياس ؟

الآن . . هل اتضحت الفكرة أكثر ؟ هل بدا لنا — كما ينبغى أن يبدو — أن التقدم العلمى فى ذاته لا يرفع إنسانا ولا يخفضه . إنما الروح التى يستخدم بها الإنسان ثمار العلم هى التى تخفض وترفع ، وتقربنا من الحيوان أو تقربنا من الإنسان ؟

الآن . . هل اتضح لنا المقياس ؟

هل نعتبر حرب الإبادة حضارة ؟ والتفرقة العنصرية حضارة ؟ والاستعباد حضارة ؟ والفوضى الخلقية حضارة ؟ والجنون والمرض والانتحار حضارة ؟ وتحطم الأسرة والمجتمع حضارة ؟ والشقاء الشامل حضارة ؟ !

أى خير قدمه العلم للبشرية فى النهاية ، فى ظل التوجيه الفاسد والنظرة المرتكسة إلى « الإنسان » ؟ !

* * *

ولن نلغى العلم بطبيعة الحال ، ولن نسقطه من ميزان التقدم . .

ولن نلغى النمو الاجتماعى والاقتصادى والسياسى . . والنمو النفسى . .

كل واحد منها له وزن فى الميزان . .

لكن . . فى الكفة الأخرى نضع « الإنسان » . . وموازين الإنسان .

ننظر هل يهدف هذا العلم وهذا التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى إلى رفع « القيم الإنسانية » أم إلى تحطيمها و إبادتها . . ؟

وننظر فى مجموع الأمر . لا فى جزئيات متفرقة .

فالطب تقدم ولا شك . والعلم بمخترعاته وكشوفه قد يسر كثيراً من « الخدمات » وحقق خيراً كثيراً للناس . وكل ذلك ينبغى أن نحسب حسابه ونحن نقوّم هذه الحضارة فى الميزان .

لكن مَنْ .. يرجح ؟ هذا الخير على كثرته ؟ أم ذلك الشر الواغل فى الأعماق ؟

كيف نهرب من شهادة القرن العشرين ؟ كيف نلوى عيوننا عن مواجهة دلالتها ؟

ثم . من ذا الذى يقول : إنه إما أن نقبل هذه الشرور كلها ، ليتحقق لنا قدر من الخير . . وإما لاخير على الإطلاق ؟

من قال إن الخير ضريبته التدمير ؟ وضريبته إفساد الأخلاق ؟ وضريبته إشقاء البشرية ؟ !

إن هذه هى الصورة « الغربية » للحضارة . . ولكنها ليست الصورة « البشرية » للتقدم !

والمطلوب أن نبقى كل الخير الذى حققه العلم والتقدم ، ونقوّم فى ذات الوقت ما أحدثه التوجيه الفاسد من شر .

ذلك شأن « الإنسان » الحق . . وذلك مقياس الرجعية والتقدم !

* * *

المقياس هو « الفطرة » !

المقياس هو الإنسان !

« يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شىء . ولكن الواقع هو عكس ذلك . فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه . إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ، لأنه لايملك معرفة عملية بطبيعته . . ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة ، هو إحدى الكوارث التى عانت منها البشرية . . إننا قوم تعساء ، لأننا ننحط أخلاقياً وعقليا . . إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها

الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها »
[ألكسس كاريل] .

شهادة واضحة حاسمة لاتحتاج إلى تعليق .

« الإنسان » هو المقياس الذى ينبغى أن نقيس به التقدم والرجعية . فكل نظام يرفع « الإنسان » فهو نظام تقدمى . وكل نظام يرتد بالإنسان إلى الوراء من حيث كيانه الإنسانى فهو رجعى أيا كانت درجة الحضارة المادية التى يشتمل عليها ، وأيا كانت الآلات التى يستخدمها من الدقة والجبروت !

وحقا إن استخدام العدد والآلات والسعى إلى تحسينها مزية إنسانية أصيلة . ولكنها وحدها لاتنشىء الإنسان ! ووحدها لا تصلح مقياسا لتقدم الإنسان !

ماذا لو تضخمت يد الإنسان جداً ، وأصبحت لها قوة جبارة . . وبقية الجسم كسيح مقعد لا يستطيع أن يتحرك من مكانه ؟ ماقيمة اليد القوية الجبارة وهى لاتستطيع أن تمتد بقوتها خطوات ؟ !

ذلك وضع التقدم العلمى والصناعى والحضارة المادية فى القرن العشرين ! يد جبارة فى جسم مقعد كسيح ! وفضلا عما فى هذا الوضع من اختلال بالنسبة لمجموع « الإنسان » ، فإنه — فى النهاية — يذهب بالفائدة العملية من هذا التقدم الجبار .

ولكن هذا القول المجمل يحتاج إلى تفصيل .

ماهى مواضع الاختلال فى الكيان الإنسانى فى القرن العشرين ؟ماانحرافاته التى ترجع به إلى الوراء فى سلم « الإنسانية » وتجعل حصيلته « رجعية » فى نهاية المطاف ؟

أو . . من ناحية أخرى : ما خصائص « الإنسان » التى ينبغى أن يحافظ عليها ، وركائزه الرئيسية التى دمرتها حضارة القرن العشرين ؟

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء »(١) من عجب أن تكون كل القضايا الثابتة هى التى اختلت وانهارت فى هذا القرن العشرين !

قضية العقيدة . قضية النفس الواحدة . قضية الجنسين . قضية الإنسانية الواحدة . . ! تلك بالذات التى حدث فيها الاختلال . . وتلك بالذات التى تنذر اختلالاتها بتدمير البشرية !

* * *

حين انحرف الناس عن العقيدة فى القرن العشرين . حين جعلوها وراء ظهورهم . حين نحوها من حياتهم العملية تنحية كاملة ، وصارت — فى أحسن حالاتها — ظلا باهتا فى ضمائر الناس ..هل ارتفعوا فى سلم الإنسانية أم انحدروا هابطين ؟ !

إن العقيدة المدركة الواعية ـ كما رأينا فى بحثنا من قبل ، وكما رأينا من كلام جوليان هكسلى نفسه وهو ملحد ـ(٢) ركيزة من ركائز « الإنسان » تميز بها عن الحيوان(٣) . . فإلغاؤها ـ أو إهمالها ـ ارتداد عن خاصية إنسانية بحتة ، ورجعة إلى الوراء !

وقد لمسنا بالفعل آثارها فى حياة هذا الجيل من البشرية .

فقد أنتجت ـ أول ما أنتجت ـ ذلك التمزق فى نفس الإنسان . التمزق بين حاجة النفس الفطرية إلى خالقها ، وحاجتها إلى الأمن الاجتماعى والسياسى و « الحضارى » . . الذى يأبى الغرب فى موجته الملحدة الكافرة اليوم أن يربطه بالعقيدة فى الله !

وأنتجت ـ فيما أنتجت ـ ذلك القلق النفسى والروحى الذى يفسد أعصاب الناس فى الغرب . ففى وسط هذا الصراع المدمر الرهيب الذى يخوضه الناس فى

(١) سورة النساء [١] .
(٢) ص ١١٢ من هذا الكتاب (٣) انظر كتاب الدراسات .

كل لحظة وفى كل جانب من جوانب الحياة : صراع فى عالم المادة وصراع فى عالم الأفكار وصراع فى عالم السياسة وصراع فى داخل المجتمع وصراع فى داخل النفس المفردة . . فى وسط هذا الصراع المدمر الرهيب يحتاج الإنسان إلى سند . يحتاج إلى قوة ثابتة يرتكن إليها . يحتاج إلى من يمسح على قلبه المتعب وضميره الحيران . يحتاج إلى اليد الحانية التى تمسك به فى أزمته وتقوده إلى الطمأنينة والهدوء . .

يحتاج إلى الله . . .

و « الحضارة » الغربية تنهاه — بتوجيهاتها وتنظيماتها — أن يلجأ إلى الله ! تنهاه أن يلجأ إليه فى السياسة ، أو يلجأ إليه فى الاقتصاد . أو يلجأ إليه فى تنظيم المجتمع . أو يلجأ إليه فى وضع دستور للآداب والأخلاق والسلوك . أو يلجأ إليه فى الفن . . . وإنما يلجأ إليه — إذا شاء بعد هذا كله — فى سويعة عابرة فى الصلاة فى الكنيسة . ثم يعيش بقية يومه وبقية عمره فى جو مضاد للعقيدة ، واقف لها بالمرصاد !

فيتمزق ويقلق . . ويضطرب ويحتار . .

ويهبط فى ميزان « الإنسان » . .

وليس هذا وحده . . فحين لايؤمن الناس بالله الإيمان الحق ، ولا يؤمنون باليوم الآخر .. فليس فى حسبهم إذن إلا هذه الحياة الدنيا .. ينتهبون لذائذها فى الفرصة المتاحة التى لن تتكرر . . ولن تعود !

ويتكالب الناس على متاع الأرض .. متاع الجنس ومتاع الحس . ومتاع القوة ومتاع السلطان . .

وتنقلب حياتهم — بدلا من المتعة الزائدة المرجوة — إلى جحيم من العذاب. عذاب القلق الدائم على الفرصة الذاهبة . وعذاب السعار الذى لايشبع لأنه متلهف على الدوام !

ويهبط الناس فى ميزان « الإنسان » . .

يهبطون إلى مستوى أدنى حتى من الحيوان . فالحيوان يملك الضوابط الفطرية الغريزية التى تقف به قبل نقطة الهلاك وتصون طاقته عن الدمار . .

والإنسان — بلا عقيدة — يرتد أسوأ من ذلك الحيوان . لأنه يصبح بلا ضوابط . . ولا أهداف :

« لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها. أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون[1] .

إنها نكسة . . رجعية ! ومع ذلك . . فبمقياس الزمن ذاته .. هل هى حقاً « اختراع » جديد فى القرن التاسع عشر أو العشرين ؟ !

كلا ! ما أقدمها فى التاريخ !

ليست أول وثنية ! ليست أول كفر بالله وإلحاد . . ما أقدمها !

ما الدليل على وجود الله ؟ كيف يرسل الله الرسل ؟ كيف ينزل الوحى ؟ كيف يبعث الموتى ؟ كيف . . ؟

« وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ؟ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . تشابهت قلوبهم . قد بينا الآيات لقوم يوقنون »[2]

«وقالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا . نموت ونحيا . وما يهلكنا إلا الدهر»[3]

« أإذا كنا عظاما ورفاتا .. أئنا لمبعوثون ؟ »[4]

بل أبلغ من ذلك وأدق ! إنك حين تقول للناس اليوم فى القرن العشرين إنه ينبغى توحيد الألوهية . فلا يكون إله للعبادة . وإله للعلم . وإله للاقتصاد . وإله للسياسة . . يستنكرون ! ويقول القرآن حكاية لقول الكفار القدماء :

« أجعل الآلهة إلها واحداً ؟ ! إن هذا لشيء عجاب ! »[5]

---

(١) سورة الأعراف [١٧٩] (٢) سورة البقرة [١١٨] .

(٣) سورة الجاثية [٢٤] (٤) سورة الإسراء [٤٩] .

(٥) سورة ص [٥] .

وهذه الرجعية التى يمارسها القرن العشرون فى عالم العقيدة ، هى ذاتها التى جاء الإسلام ليصححها ويقومها ، ويرد البشرية فيها إلى الصواب . . وما زال موقفه منها هو ذات الموقف فى القرن العشرين !

* * *

وقضية الجنسين . . بما فيها « الأخلاق » . .

لقد تحدثنا عنها بما فيه الكفاية . . ولا نحتاج إلى حديث جديد . لا عن طبيعتها ولا عن آثارها فى حياة البشرية . .

فهذا الشقاء البالغ الذى أحدثته فى نفوس الشباب من الجنسين . . هذا الشرود الخطر الذى لا يجعل أحداً يستقر . . هذا التدمير فى الأسرة والمجتمع والنفوس . . وهذه الحيوانية التى يأنف منها الحيوان . . وهذا السعار المجنون الذى لا يشبع . .

إنها ردة بمقياس « الإنسان » . . فما خلق الله الإنسان ليهبط هذا الهبوط كله ، ويشرد ويقلق ويحل به الدمار ، وما كان « التقدم » ليصيب الناس بكل هذا الشر ، الذى رأينا أمثلة بارزة منه فى شهادة القرن العشرين . . إنما الشر ينتج من الانحراف . من الابتعاد عن الفطرة . من عدم ملاءمة هذا النظام « للإنسان » . .

ومع ذلك . . فبمقياس الزمن ذاته . . هل هو تقدم أم رجعية ؟ !

لقد قال القرن العشرون إنه « يتطور » فى مسائل الأخلاق والجنس . ويُحدث جديداً لم تعرفه البشرية من قبل . ثم قالت شهادة التاريخ إنه أمر قديم جداً موغل فى التاريخ .. عرفته اليونان القديمة وروما القديمة والهند القديمة وفارس القديمة . .

عرفته على نفس الصورة . . أو فى صور مختلفة . . لا فرق ! لا فرق من الداخل فى نفس « الإنسان » . ولا فرق من الخارج فى واقع البشرية .. انحراف

لابد أن يؤدى إلى نتائجه المحتومة لأنه يخالف الفطرة . . وهى الحقيقة الحتمية الوحيدة فى تاريخ الإنسان . . عنها تتفرع كل الحتميات !

إنه ذات الرجعية التى جاء الإسلام ليصححها ويقومها ، و يرد البشرية فيها إلى الصواب .

إنها الجاهلية التى كانت تتبرج فيها المرأة وتقعدلفتنة الرجل وإغرائه ،ويشغل فيها الرجل بتلك الفتنة والإغراء ، سواء فى الجزيرة العربية أو فى خارجها . وجاء الإسلام ليرفع الناس من بهيميتها ، ويقر فى ضمائر الناس قيما عليا ترفع علاقة الجنس عن أن تكون بهيمية جسد مسعور . يرفعها إلى السكن والمودة والرحمة : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها . وجعل بينكم مودة ورحمة » . و يرفعها إلى « التنظيم » الذى يليق بالإنسان .

وهذا الذى يصنعه القرن العشرون ، سواء بمقياس « الزمن » أو بمقياس « الإنسان » لايزيد على أن يكون رجعية هابطة ، يصححها الإسلام !

* * *

وقضية النفس الواحدة . وقضية الإنسانية الواحدة . .

إن القرن العشرين ينحرف فيها انحرافات شتى . من أبرزها : انحراف الفردية الطاغية التى تطغى على المجتمع ، وانحراف الجماعية الطاغية التى تطغى على الفرد ، وانحراف العدوان المستمر من بنى الإنسان على « إخوتهم » فى البشرية .

انحراف الفردية الطاغيـة يمثله اليوم النظام الرأسمالى الذى يقول عنه الغرب إنه « تطور » ! و يمثله الدكتاتوريون الطغاة فى كل الأرض . . فهل هو « تطور » لا مثيل له من قبل ؟

من حيث « الصورة » نعم . . أما من حيث الجوهر ؟

إن « رأس المال » فى صورته الصناعية الجديدة تطور فى نوع الملكية وتطور فى صورة الاستغلال . لكنْ طغيان المالك و استغلاله لمن لا يملك . . هل هو

جديد حقا على البشرية ؟! أو ليست هي ذات « الدوافع » في النفس البشرية المنحرفة ، وتؤدى إلى ذات الظلم ؟ هل كان الغنى فى الجزيرة العربية . . أو فى الدولة الرومانية أو الفارسية شيئاً آخر فى معدنه غير الرأسمالى الحديث الذى يطغى بسلطان رأس المال ؟

أو ليس هو الانحراف ذاته الذى جاء الإسلام لتصحيحه ؟ جاء ليأخذ السلطان الطاغى من هذا الفرد ، بسلبه حق التشريع الذى يستعبد به الناس . ورد التشريع إلى الله الذى لا يحابى أحداً من البشر . فلم يعد الحاكم يشرع لنفسه ولا لطبقته كما يحدث فى العالم الرأسمالى . . وفى كل مكان فى الأرض لا يقوم على هدى الإسلام . .

فالفردية الرأسمالية الطاغية — رغم صورتها الظاهرية الجديدة — رجعية كانت موجودة قبل الإسلام فى صورة من الصور ، وجاء الإسلام ليصححها ويقوّمها . وما زال وضعه منها اليوم هو وضعه منها قبل مئات السنين !

أما فردية الدكتاتور الطاغية — التى عرف هذا القرن العشرون نماذج طاغية منها — فقد عرفتها البشرية كثيراً قبل الإسلام . وجاء الإسلام ليرفع هذا الطغيان عن كاهل البشرية بأن يجعل العبودية واحدة لله وحده ، ولاعبودية لأحد من البشر على الإطلاق . ومن ثم عاد الطغاة المقدسون بشراً عاديين بلا قداسة . وصار الحكام أشخاصاً عاديين لا سلطان لهم إلا تنفيذ شريعة الله . فأما إن اعوجوا فلا طاعة لهم على الناس . وإنما التقويم أشد التقويم : قال سلمان الفارسى لعمر ابن الخطاب ، أعدل حاكم فى تاريخ الأرض : « والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف » فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فى رعية عمر من يقوم عمر بسيفه !

ذلك موقف الإسلام من الطغيان من قبل . . وهو موقفه منه حتى اليوم . الطغيان فى أية صورة من صوره رجعية ترجع بالبشرية إلى ماقبل الرشد .. الذى

يحدده فى تاريخ البشرية مولد الإسلام . وقد جاء الإسلام ليصحح وضع البشرية من هذا الطغيان . .

أما الطغيان الجماعى الذى تمثله اليوم الشيوعية — آخر « تطور » فى عالم الاقتصاد والاجتماع — فهو صورة جديدة . نعم . أما الجوهر ؟

هذا الطغيان الذى يذيب كيان الفرد . ويجعله مجرد واحد من القطيع . . يتبعه أين يسير . . لا رأى له فى تقويمه ، ولا الإشـراف عليه ، ولا له كيان متميز يحس بذاته فى وقت من الأوقات . . هل يختلف من حيث الجوهر عن طغيان « القبيلة » قبل الإسلام ، ذلك الطغيان الذى أنطق الشاعر الجـاهلى بهذا البيت :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت . . غويت و إن ترشد غزية أرشد ؟ !

ثم جاء الإسلام . . جاء ليرد « للفرد الإنسانى » كيانه إزاء طغيان المجموع . بأن جعله — وهو الفرد — قوة هائلة حين يتصل بالله ، و يعبده حق عبادته ، و يستلهم هداه . قوة توجه المجتمع إلى الصلاح وتصده عن الفساد . « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر »[1] وتوجه الحاكم إذا اعوج ، وتُشاوَر فى شأن الحكم وسياسة المجتمع .. ومن ثم يرفع عنها العبودية للمجموع .

وهذا الطغيان الجماعى الجديد الذى تمارسه الدول الجماعية ، لا يزيد على أن يكون رجعية من تلك الرجعيات التى جاء الإسلام ليصححها و يقومها . ومازال موقفه منها اليوم كوقفه منها يوم جاء !

إن الإسلام ينصب الميزان الحق بين الفرد والمجتمع . لا هذا يطغى ولا ذاك . و يستمد ميزانه من الحقيقة الثابتة : « خلقكم من نفس واحدة » . .

---

(١) سورة آل عمران [١٠٤] .

وبذلك يقوّم الرجعيات .

* * *

أما العدوان المستمر الذى يمارسه القرن العشرون .. عدوان البشر على البشر .. فى الحرب وفى السلم . عدوان أمم على أمم وأمم على أفراد . وأفراد على أفراد .. التفرقة العنصرية . والاستعمار والاستعباد . والتعذيب الوحشى الذى يمارسه الطغاة ليسندوا حكمهم ضد ثورة الجماهير . ما اسمه ؟ ما اسمه فى ميزان « الإنسان » ؟ تقدم أم رجعية ؟ هل فيه جديد إلا الزيادة فى الوحشية والضراوة فى القتل والتعذيب ؟

ولقد واجه الإسلام يوم جاء صنوفاً مختلفة من هذا العدوان . فجاء ليصححها ويقومها . بتهذيب الضمير البشرى من ناحية ، ووضع التشريعات التى تمنع العدوان من ناحية أخرى . نظف النفس من « الغل » الأحمق البشع الذى يدفع إنساناً إلى قتل أخيه الإنسان أو تعذيبه أو العدوان عليه . وجعل الحرب الوحيدة التى يبيحها هى الحرب لله . لإعلاء كلمة الله لا كلمة بشر من الناس . وبشروط « إنسانية » تمنع القتل الوحشى والتمثيل والتعذيب .

إن ما يمارسه « التقدم » العصرى فى القرن العشرين ، هو الرجعية ذاتها التى جاء الإسلام ليصححها ويقومها .. وما زال موقفه منها اليوم كموقفه منها يوم جاء !

وهكذا .. كلما تتبعنا شيئاً من « تطورات » الغرب وجدنا أنها ليست تطوراً فى الحقيقة . وإنما هى انحراف ورجعية . انحراف بمقياس « الإنسان » ورجعية بمقياس الزمان .

إنها نكسة حيوانية إلى الوراء ..

وموقف الإسلام منها هو موقفه من الرجعيات جميعاً : موقف التقويم والتصحيح .. موقف القوة التقدمية الهادية التى تشير للناس إلى الطريق الصحيح .

وهكذا كان ينبغى أن يكون موقفنا نحن من الغرب ..

ولكن .. أين نحن ؟ !

نحن والغرب

حين تكون المقدمات كلها صحيحة ، فينبغى أن تؤدى إلى نتيجة صحيحة . .

وما دام الإسلام هو القوة التقدمية الهادية المرشدة إلى الطريق الصحيح . .
وما دامت الحضارة الغربية تشتمل على كل هذا القدر من الانحراف والردة إلى عالم الحيوان . . فقد كان ينبغى أن نكون نحن — المسلمين — فى مقعد القوة والتمكن والتقدم والحضارة والسلطان ، والنظافة الكاملة فى التعامل والأخلاق، والترابط فى المجتمع ، ويكون الغرب فى مكان الضعف والذلة والهوان .. ولكن الأمر الواقع هو العكس .فالغرب ليس قوياً فقط ، وليس « متحضراً » فحسب، بل إنه فى معاملاته الفردية نظيف نظافة ملحوظة ، مستقيم استقامة واضحة . . قلما يخدع الإنسان منهم غيره ، أو يغشه ، أو يحاوره أو يداوره . أو يكذب عليه فى مجال التعامل اليومى ، وفوق ذلك يخلص فى عمله ويتقنه ويضع فيه كل جهده . . بينما نحن — المسلمين ! — نغش ونخدع ، ونحاور ونداور، ونكذب وننافق ، ولانخلص فى عملنا ولا نتقنه ولانضع جهدنا الحقيقى فيه .

دين بلا نظافة . . ونظافة بلا دين !

تلك هى الصورة التى تربك أفهام الأجيال الناشئة فى العالم الإسلامىفتصرفها عن الإسلام !

وهى لاتنصرف عنه تلقائياً . . وإنما بذل جهد جهيد خلال القرن الماضى كله وما يزال يبذل فى هذا القرن للوصول إلى هذه النتيجة . .

جهد جهيد بذله المبشرون والمستشرقون . . ثم تلقفه منهم « تلاميذهم » المسلمون (!) فى الشرق الإسلامى ، فأخذوا يرددون الاسطوانة ذاتها ، ولايملون من ترديدها ليصلوا فى أذهان الأجيال الناشئة إلى الربط بين هذه « الحقائق » الظاهرية . . لتصل إلى النتيجة المطلوبة . .

المبشرون بادئ ذى بدء كانوا يقولون إن الإسلام رجعى متأخر . . بدليل التأخر والرجعية المخيمة على أهله . والمسيحية تقدمية متحضرة .. بدليل الحضارة والتقدم الموجود فى الغرب المسيحى .

والمستشرقون على آثارهم [وهم بقية منهم لبسوا مسوح البحث « العلمى » ليخفوا وراءها مسوح التبشير] قالوا إن سر التأخر والرجعية كامن فى الإسلام ذاته . فهو — بذاته — الذى قاد أهله إلى الانحطاط والتأخر ، لأنه جامد لايتطور ولايسمح بالتطور ! [ولعلهم يقولون أيضا إنه يدعو إلى الجهل وعدم الأخذ بأسباب القوة ! !]

ثم جاء تلاميذهم من « المسلمين » . . من « قادة » الفكر والصحافة والأدب والسياسة يقولون : هلم ننبذ تعاليم هذا الدين الرجعى الجامد المتأخر . . لكى نتحضر . لكى نصبح مثل أوربا لكى ننال العلم والقوة والتقدم والسلطان.

والتقت تلك الإيحاءات السامة كلها فى نفوس الأجيال الناشئة فى العالم الإسلامى ، لتؤدى إلى نتيجة معينة : نحن متأخرون لأننا مسلمون وأوربا متحضرة لأنها ليست مسلمة !

ثم دار الزمن دورة واختفت من الأفق أقوال المبشرين المباشرة . . فقد احتجبوا عن العمل المباشر بعد أن اطمأنوا إلى قيام تلاميذهم « المسلمين » بالدعوة بدلا منهم ، واطمأنوا إلى سياسة الدولة التعليمية التى أوحوا بوضعها عن طريق الاستعمار الذى كان بيده مقاليد الحكم والتوجيه . . سياسة لا تعلم الناشئة شيئاً عن حقيقة الإسلام ، وإنما تعلمهم بدلا منه أوربا وحضارتها وتفوقها الساحق .. وتعلمهم كذلك شبهات حول الإسلام يتسرب إلى أفهامهم تأثيرها المسموم بوعى أو بغير وعى . واطمأنوا كذلك إلى دور المدارس الأجنبية وما تحدثه من آثار سامة فى تحطيم عقائد المسلمين ، ولى أعناقهم إلى أوربا و « الحضارة » الأوربية .. واطمأنوا أخيراً إلى تكبير تلاميذهم وتضخيمهم حتى يصبحوا هم

قادة الفكر والتوجيه و يصبح فى أيديهم من السلطان مايكفى لتثبيت ذلك التوجيه ..

واختفت كذلك من الأفق حملة المستشرقين المباشرة على الإسلام ، التى كانت على أشدها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، إذ ظهر للمستشرقين بالتجربة العملية أنها أدت إلى عكس الغرض المطلوب ، إذ أيقظت المسلمين من سباتهم ، ووجهت مشاعرهم وعقولهم وأقلامهم إلى الدفاع عن الإسلام . فظهرت عشرات من الكتب أو مئات تدافع عن الإسلام . وكان فى هذا خطر عظيم على الهدف المنشود من وراء حركة الاستشراق . خطر صرح به المستشرق المعاصر « ولفرد كانتول سميث » فى كتابه « الإسـلام فى التاريخ المعاصر Islam in Modern History» حيث يقول فى أكثر من مكان فى كتابه : إن الحركة المتحررة التى قادها الكتاب المتحررون ، والتى اتجهت إلى نقد الدين ، كانت كفيلة بأن تؤتى ثماراً طيبة . لولا أن حركة « الدفاع » عن الإسلام قد حالت دون هذه الثمار ! !

لذلك اتجه المستشرقون إلى وسيلة أخبث ، تنوم المشاعر للسموم بدلا من أن توقظها للخطر الماثل ، وهى البدء بتمجيد الإسلام وتعظيمه ، وإعطائه حقه المنصف ، حتى إذا استرخت أعصاب القارئ المسلم على المديح ، واطمأنت نفسه إلى « نزاهة القصد والضمير العلمى ! » فى هذا المستشرق أو ذاك ، دس له السم فى العسل ، ووضع فى خلال المديح والتمجيد ما يشاء من التشويه والتشكيك ، وهو مطمئن إلى مفعوله الأكيد ! ثم .. الإيحاء — بل التصريح — بأن الإسلام كان عظيما ونافعاً وتقدمياً أيام زمان ! أما اليوم فهو عقبة فى سبيل التقدم ، ولا مجال لهذا التقدم إلا بالأخذ بوسائل الغرب فى كل شىء [انظر كل كتب المستشرقين المعاصرين ! و بصفة خاصة كتاب « جب » « الاتجاهات الحديثة الاسلام Modern Trends in Islam » وكتاب « جرونيباوم » « الإسلام كتاب سميث المشار إليه «Islam in Modern History »]

اختفت الحملة الأولى والثانية وظهرت فى الأفق دعوة جديدة ، هى التى ما تزال قائمة حتى اليوم ، على يد أولئك « التلاميذ » المخلصين من « المسلمين ! »

إن أوربا اليوم متقدمة . . وهى ليست متدينة !

لقد طرحت الدين جانباً فتقدمت وتحضرت ووصلت إلى القوة والسلطان !

ونحن متدينون (!)

وفى الوقت ذاته متأخرون !

فينبغى أن نسلك الطريق القويم . . ننبذ ديننا — كما فعلت أوربا — فنتقدم ونتحضر ونصل إلى القوة والسلطان ! وليس من الضرورى أن نكفر ونلحد ! إنما يجب أن نسارع إلى فصل الدين عن كل ما له علاقة بواقع المجتمع وواقع الحياة !

وتلك هى خلاصة السموم كلها التى وضعها التبشير والاستشراق والاستعمار !!

* * *

ولكن . . بغض النظر عن هذه القصة الطويلة التى استغرقت قرنين من الزمان ، فإن هناك واقعاً ملموساً ينبغى تبين أسبابه : واقع القوة والتمكن و « النظافة » الحسية والمعنوية فى الغرب فى المعاملات اليومية [بصرف النظر عن شئون الجنس !] ووقائع الضعف والتخلف و « القذارة » الحسية والمعنوية فى الشرق « الإسلامى » [بالإضافة إلى انتشار الفساد الخلقى فى شئون الجنس ! !]

هذا واقع ينبغى تبين أسبابه ، لتتضح القضية فى أذهاننا على حقيقتها ، وتتضح الصلة بين المقدمات التى قدمناها كلها وبين الواقع . . وإلا فقدت دلالتها الحقيقية وأصبحت غير ذات موضوع !

* * *

هذا الواقع . . حقيقةٌ مضللة !

وظاهر هذه الحقيقة يقول : هناك دين بلا نظافة [في الشرق] ونظافة بلا دين [في الغرب] .

وباطن الحقيقة ليس كذلك !

والمرجع هو التاريخ . . .

إن أوربا اليوم ليست متدينة . . بمعنى أن الدين لا يحكم الحياة . لا يحكم واقع المجتمع ، ولا يحكم الاقتصاد والسياسة ، ولا يحكم التعليم ، ولا يحكم التوجيه الفكرى للناس . وإن كان — فيما عدا هذا — قد يسيطر على مشاعر الناس لحظات فى داخل الكنيسة ، أو الاحتفال بقديس من القديسين أو . . فى التأثر ببعض الأساطير ! !

ولكنها دون شك لم تكن كذلك قبل قرون . .

يومئذ كانت العقيدة فى النفوس أرسخ ، وتوجيهها للحياة أشد . .

وربما لم تكن أوربا فى يوم من الأيام مسيحية بكل معنى الكلمة . فقد ظلت فى أعماق الضمير الأوربى — تحت القشرة المسيحية — رواسب عميقة من آثار الفكر اليونانى القديم والحضارة الرومانية الوثنيين ، يوجهان جوانب من الحياة الأوربية بوعى أو بغير وعى . . ولكن هذا لا ينفى أن العقيدة المسيحية كانت هى الغالبة فى القرون الوسطى .

ثم ضاق الناس بكنيستهم لأسباب عدة :

كانت الكنيسة قوة طاغية غاشمة تفرض على الناس الإتاوات والعشور وترهقهم من أمرهم عسراً .

وكانت تفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين .

وتفرض عليهم أفكاراً « علمية » مزيفة ، باسم أنها كلمة السماء . فإذا أثبت العلم التجريبى والنظرى كذبها راحت الكنيسة تحرق العلماء وتعذبهم كما فعلت

بكوبرنيكوس وجاليليو و جوردانو برونو لأنهم لم يوافقوا على نظريتها فى شكل الأرض ومركزها من الكون .

إلى جانب ذلك مهزلة صكوك الغفران التى تحول الدين إلى سخرية لاهية ضخمة ، وتنزع عنه كثيراً من جديته وقداسته . . وكذلك الفساد الخلقى الذريع الذى كان يمارسه « رجال الدين ! » متسترين وراء مسوح الرهبان ، مما يعف عنه الفرد العادى غير المتمسك بأهداب الدين !

كل ذلك أحدث انفصاماً بين الدين وحياة الناس . . وعزل الدين من الواقع الحى إلى داخل الوجدان .

ثم حدث حادث ضخم فى الحياة الأوربية ترتبت عليه آثار فى غاية الخطورة . وهو الحروب الصليبية .

ففى تلك الحروب التى انهزم فيها الأوربيون — المسيحيون — فى كل حرب تقريبا ، وفى النهاية الحاسمة كذلك — تيقظ أولئك الغربيون إلى أمر حاسم : لا بد أن يكون فى حياتهم أخطاء واختلالات أدت بهم إلى الهزيمة المنكرة ، ولا بد أن يكون فى حياة المسلمين من أسباب السلامة والقوة ما مكنهم من الانتصار .

ومن هذه اليقظة تولدت « النهضة » الأوربية . . فى كل مجال .

نهضة علمية ، واجتماعية ، وسياسية ، واقتصادية ، وفكرية ، وروحية . . الخ .

« لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية[1] على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج . . إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا ، لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام . ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة . بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية . فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى

(١) راجع الهامشة ص ٢٣٦ من هذا الكتاب .

الازدهار الأوربى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون ، وأهم ما تكون ، فى نشأة تلك الطاقة التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره : أى فى العلوم الطبيعية ، وروح البحث العلمى » .
[بريفولت فى كتاب « بناء الإنسانية Making of Humanity »] .

وعلى الرغم من اهتمام الرجل بالعلوم ، وروح البحث العلمى ـ وما لهذا من دلالة فى النهضة الأوربية المعاصرة ـ فإنه لم يغفل الحقيقة الأوسع مدى وهى أنه « ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة » .

وليس هنا مجال التفصيل فى هذا الشأن . . فذلك تتولاه بحوث التاريخ .

ولكنا نقول فى إيجاز شديد إن الحروب الصليبية هى التى وجهت أوربا إلى إنشاء نظام « الأمة » بعد أن كانت إقطاعيات يحكم كلا منها إقطاعى تتمثل فى شخصه السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية ، ويستعبد الناس فى الأرض.. وقد وجد الصليبيون فى العالم الإسلامى « أمة » تحكمها حكومة مركزية موحدة ويسرى فيها قانون واحد يطبق على الجميع بالسوية . . فنقلوا هذا النظام إلى بلادهم فصارت أمما ودولا بعد أن كانت إقطاعيات . وتحطم النظام الإقطاعى وتحرر عبيد الأرض ليصيروا أحراراً كالمسلمين

والحروب الصليبية وما تلاها من الاحتكاك بالفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية هى التى أدت إلى الثورة الدينية على الكنيسة ، التى قام بها مارتن لوثر وكالفن فى أوربا .

وهى كذلك التى أدت إلى الحركات التحريرية الكبرى ومن بينها الماجنا كارتا وإعلان حقوق الإنسان . .

وكانت ـ إلى جانب ذلك ـ ذات أثر كبير فى الأخلاق الأوربية . فقد

أخذ الصليبيون ـ المنهزمون ـ عن المسلمين ـ الظافرين ـ كثيراً من أخلاقهم الشخصية من صدق وأمانة وإخلاص وتماسك وترابط وتحاب ومودة وتعفف عن الدنايا .. وقد كانوا ـ في أثناء إقامتهم مع المسلمين في الشام ـ يرون كيف كان التاجر المسلم إذا جاء وقت الصلاة يترك متجره ـ مفتوحاً ـ ويذهب إلى المسجد يؤدي فريضته ثم يعود فلا يسرقها سارق ! ويرون كيف يحترم الصغير الكبير ، وكيف يتفشى « السلام » بين الناس سواء بالتحية بالفم أو في واقع المجتمع . . كما كانوا يرون دقة أصحاب الصنايع وإتقانهم أعمالهم والإخلاص فيها ، وكيف كانت « ذمة » التاجر المسلم رأس ماله الأول ، يعد ويفي ويضبط الميعاد !

بهذه الأمور كلها تأثرت الحياة الأوربية إلى جانب الحركة العلمية الكبرى التي نشأت من انتقال المذهب التجريبي من مدارس الأندلس ومدارس المشرق إلى الغرب الأوربي ...

وخلاصة هذا الأمر أن الأخلاق الأوربية ذات أصل ديني مسيحي وإسلامي على السواء !

... ولقد وقعت الجفوة بين الدين والحياة في أوربا .. للأسباب التي ذكرناها.

وكانت جفوة تدريجية بطيئة استغرقت بضعة قرون حتى وصلت ذروتها في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

وفي أثناء هذه الجفوة تنكر الناس للدين ، وفصلوه عن كل القيم النافعة في الحياة !

فصلوه عن العلم . . فنشأت حركة إحياء العلوم على أساس لاديني . . بل على أسس مناهضة للدين .

وفصلوه عن المجتمع . . فجاء النمو الاجتماعي الحديث على أساس لاديني (secular) إن لم يكن على أسس معادية للدين .

وفصلوه عن الأخلاق !

قالوا : إن الأخلاق جميلة نعم . . ولكن ليس من الضروري أن نأخذها

من تعاليم الدين فلنجعلها قائمة بذاتها ، تستمد من « الواقع » أو من « العقل » أو من « الضمير الاجتماعى » . أو من أى معين إلا الدين ! [ولا يدخل فى هذا الشأن الأخلاق الجنسية . . فهذه قضوا عليها نهائياً بتوجيه الشياطين !]

وهكذا بقيت لأوربا أخلاق . . لكن بغير عنوان الدين !

وقد كانت الجفوة من الشدة والعنف بحيث لم تفصل فقط بين الدين والأخلاق ، بل قد نفّرت الناس تنفيراً من أن يربطوا أى ربط بين الدين والأخلاق . . بل إلى إنكار وجود رابط بينهما على الإطلاق . . بل إلى الإصرار على رفض الأخلاق إن كانت تلبس ثوب الدين ، وعدم قبولها إلا إن كانت مفصولة عن الدين واقفة له بالمرصاد !

نعم ، يجب أن تكون لنا أخلاق .. ولكن حذار من ربطها بالدين. وإلا تركناها لكم بأجمعها وصرنا لا أخلاقيين ! كما أصبحنا من قبل لادينيين!

وزيادة فى التحذير والتنفير تنشأ «مذاهب» كالوجودية تناقش « الأخلاق» من حيث المبدأ ، وتقول : لاأخلاق ! فما أراه « أنا » خيراً فهو خير . . وما أراه شراً فهو شر !

* * *

ولكن هذه مرحلة فى « التطور » !

والذين يظنون أنها يمكن أن تقوم إلى الأبد هم الذين ينظرون إلى رقعة صغيرة من التاريخ ! الذين ينظرون إلى عقرب الساعات فى الساعة بضع دقائق، ثم يقولون إنه لايتحرك من مكانه ولايريم !

لقد بقيت الأخلاق الأوربية — النابعة من المعين الدينى — بقيت فترة من الزمن وهى منفصلة عن معينها الأصلى ، تسير بقوة الدفع الذاتية ، بغير عنوان الدين .

ظلت أوربا فترة من الزمن « نظيفة » الأخلاق ، تتعامل على استقامة . . لايخدعك الغربى ولايغشك فى المعاملات اليومية الفردية . لايقول لك كلاما

ويقصد كلاماً آخر . لايقدم لك البضاعة المزورة. لايعطيك الوعد ويخلفه ... إلا في السياسة !

وقال الناس — هنا في الشرق الإسلامي —: لاتحتجوا على الغرب بالسياسة.. فالسياسة خدعة ! ولكن انظروا إلى التعامل الشخصي .. إنها بالضبط الأخلاق التي تنسبونها للإسلام ! ولكنها هنالك واقع عملي . يربى عليه الطفل فيتشربه ، ويربى عليه المجتمع فيصونه ! إنها ليست نظريات كالتي تقدمونها باسم الإسلام! ليست مواعظ ! إنها حقائق تربوية ضخمة . يبذل فيها جهد دائب لتربية الطفل عليها منذ مولده . يربيه عليها والداه في المنزل ، والمدرسون في المدرسة ، والواقع الخارجي في المجتمع .. فتتأصل .

الوالدان بذاتهما قدوة .. لاتكذب الأم أمام الطفل ولا الأب فلايشاهد الطفل الكذب أمام عينيه . فيتعود الصدق من الواقع الموجود في الأسرة . ثم يذهب إلى المدرسة فلا تكذب عليه المدرسةولا المدرس . ويخرج للمجتمع فيجد الصدق حقيقة . . فينشأ صادقا لا يكذب .

والأمانة كذلك . لاتغش الأمولا الأب . ولا المدرسةولاالمدرس . ولاالناس في المجتمع . فتصبح الأمانة في نفس الطفل حقيقة .. حقيقة ذات رصيد من الواقع .

وكذلك كل آداب السلوك ..

وبهذهالصورة تنشأ كل « الفضائل » التي نفتقدها فيالشرق « الإسلامي » . إنها هنالك حقيقة ولدينا نحن خواء ومواعظ دينية !

وهم هنالك يصنعونها لا باسم الدين . . وتفلح ! ونحن هنا نعظ إليها باسم الدين . . فلا تنجح !

حقا . . هذا هو الوجه الظاهر من القضية . .

ولكن هذه كما قلت مرحلة من مراحل « التطور » ! . . ولهـــا بعد نتائجها . . الحتمية !

لقد انفلصت الأخلاق في الغرب عن معينها الأصلي . معين الدين. فكيف صارت؟

قامت السياسة بادئ ذي بدء على غير أساس أخلاق !

في الداخل .. صارت « الطبقة » التي تحكم تشرع لصالحها هي على حساب بقية الطبقات . وظن « علماء » السياسة والاقتصاد هناك أن هذه حتمية « اقتصادية » ! وليست حتمية اقتصادية في الواقع . ولكنها تصبح حتمية حين تنفصل السياسة عن مبادئ الدين . . فتصبح السياسة بلا أخلاق ! وحين كان المسلمون مسلمين لم تكن هناك طبقة حاكمة تشرع لصالحها . وإنما كان الحكام ينفذون مبادئ الدين التي تقضي بالعدالة بين الجميع !

وفي الخارج . . كانت السياسة الغربية كلها خداعا واحتيالا وغشا و نصبا وسرقة وغصباً وامتصاصاً للدماء ! وظن « علماء » السياسة والاقتصاد هناك أن هذه أيضاً حتمية اقتصادية ! وإنما هي نتيجة حتمية لانفصال السياسة عن مبادئ الدين ! وحين كان المسلمون مسلمين كانت « السياسة » الخارجية هي الصدق والأمانة في السلم وفي الحرب سواء . ومحافظة المسلمين على عهودهم ومواثيقهم مضرب المثل في التاريخ ! يقول « ت . و . أرنولد في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » [ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ، ص٥٨ من الترجمة العربية] : « كذلك حدث أن سجل في المعاهدة التي أبرمها أبو عبيدة مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة : فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا » ثم قال : « . . . فلما علم أبو عبيدة قائد العرب بذلك (أي بتجهيز هرقل لمحاربته) كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ماجبي من الجزية من هذه المدن ، وكتب إلى الناس يقول : إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع . وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وإنا لا نقدر على ذلك . وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم . ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا إن نصرنا الله عليهم » .

وهذا هو الإسلام !

ثم انفصل السلوك الجنسى عن الأخــــلاق ! وقال الناس هنا وهناك إن هذا « تطور » !

وقد بينا فى كل الفصول السابقة أنه ليس « تطورا » و إنما هو انحلال . ولا نحتاج أن نعيد هنا ماقلناه من قبل من آثار الهبوط الجنسى والإباحية الحيوانية فى المجتمع الغربى . . فيكفينا فى هذا شهادة القرن العشرين ، التى أدلى بها الغربيون أنفسهم ، وشكوا فيها من انحطاط تلك « الأخلاق » . إنما يعنينا أن نبرز حركة « التطور » المستمرة ، الناشئة من انفصال الأخلاق فى الغرب عن معينها الأصلى . . معين الدين . وكيف يشمل الفساد جزءاً منها بعد جزء . . لسبب واحد . . هو أنها انفصلت عن ذلك المعين !

إن الذى يزيغ أبصار الناس هنا وهناك . . أن هذا الفساد الخلقى فى شئون الجنس — الذى نشأ من ابتعاد المفاهيم الخلقية عن مفاهيم الدين — قد وقف عند هذا الحد ، ولم يسر إلى بقية شئون الأخلاق ! فماذا علينا إذن — ما دام هذا — ولنسمه الفساد — تطوراً « حتمياً ! » ، ماذا علينا أن نبيح هذا الفساد الذى لن نستطيع أن نقوّمه أو نقف فى وجهه ، ما دامت بقية الكيان الخلقى مازالت سليمة ، والتعامل مستقيما ونظيفاً لم يمسسه السوء ؟!

إن الشاب والفتاة فى الغرب منحلان خلقيا فى شأن الجنس [بمقاييسنا نحن !] ولكنهما ما زالا نظيفى التعامل . لا غش . ولا كذب ولا خداع . واستقامة فى الخلق والضمير . و إخلاص فى العمل و إتقان . . فماذا نخسر لو جاريناهم وماذا نكسب من دعوى الرجوع إلى الدين ؟!

حتى فى هذا . . نعود إلى شهادة القرن العشرين !

أين هى « الأخلاق » فى الجيل الناشىء فى الغرب اليوم ؟!

عصابات الخطف والنهب والسرقة والإجرام . . وعصابات الحشيش والأفيون . هل هذه هى الأخلاق ؟!

عصابات تيسير الطلاق ، التي توقع الأزواج أو الزوجات في جريمة الزنا ، ثم تضبطهم متلبسين ، لتيسر على الطرف الآخر أن يطلب الطلاق ويقدم الأسباب. والتي يقوم بها أطباء ومحامون . . هل هذه هي الأخلاق ؟ !

بيع أسرار الدولة العسكرية لأعدائها مقابل تلبية الشذوذ الجنسي . . هل هذه هي الأخلاق ؟ !

إنها ليست «حالات فردية» مما يوجد في كل مجتمع ولا يلفت إليه الأنظار ! إنها ظاهرة اجتماعية تجتمع لها المؤتمرات لتدرسها وتحققها . وتنبه إلى خطورتها !

ثم . . هي آخذة في الازدياد !

حتى الأخلاق « البسيطة » جداً . . التي كانت مضرب الأمثال في الغرب : «الأمانة» في الترام والأتوبيس وعدم «التزويغ» من دفع أجرة الركوب ! حتى هذه ! صار الجيل الناشئ في أوربا يهرب منها ويخالفها !

قالوا . . هذا أثر الحرب !

وربما كان كذلك ! وحقاً إن هذه ليست — بعد — الصورة الغالبة للمجتمع الغربي ! ولكنها في طريقها إلى الازدياد .. ومن هنا خطورتها . ومن هنا دلالتها .

كلا ! ليست الحرب !

لقد خاض العالم الإسلامي حروبا جمة . . ولقد عاش نصف القرن الأول في حرب دائمة لا تفتر ! ومع ذلك فقد كان نصف القرن هذا بالذات هو الفترة التي ترسخت فيها أخلاق الإسلام ، وانتشرت في كل مكان وطئته جنود الإسلام !

ليست الحرب ! إنما هو الابتعاد عن الدين ! هو فصل الأخلاق عن معينها الأصلي الذي لا معين لها سواه !

لقد خُدع الناس في الغرب خديعة ماكرة حين ظنوا أنهم يستطيعون أن يظلوا بعيداً عن الدين ، ثم يظلوا ناجحين ، ويظلوا على خلق قويم !

إنها مرحلة من مراحل «التطور» .. لاتثبت ! كيف يثبت الناس على المنزلق ؟!

لقد بدأ الفساد بالسياسة . ثم شئون الجنس . ثم بقية « الأخلاق » .

نتيجة حتمية .. لأنها سنة الله ! وسنة الله هي الحتمية الوحيدة في كل الكون !

ومظاهر القوة والتماسك والصعود والتقدم التي تزيغ أبصار الناس في الشرق وفي الغرب ، فيحسبون أنهم يستطيعون أن يبتعدوا عن قانون الله في أي شيء ثم يظلوا ناجحين . . هذه المظاهر خداعة ماكرة ! ولنسأل كنيدي . . ولنسأل خروشوف !

إنهما يخشيان نتيجة الانحلال الحالي على مستقبل أمريكا وروسيا ! وهما ليسا طفلين صغيرين . وليسا هازلين . . إنما هما جادان أشد الجد . . يبصران مالا يبصره هنا الكتاب المزيفون . . التقدميون التطوريون .

إن الغرب يملك قوة حقيقية جبارة وهائلة . . لأنه ما زال يملك رصيداً من « الأخلاق » التي كانت في أصلها مستمدة من الدين . . ولكنه — حين فصلها عن معين الدين — بدأ يهبط . . في كل مجال . ووصل الهبوط إلى الحد المنذر بالخطر . . الذي أطلق الصيحة على لسان كنيدي وخرشوف .

ولن ينهار الغرب غداً .. في أيام أو سنوات !

لا تقاس أعمار الأمم بالأيام والسنوات ! وإنما تقاس بالأجيال !

ولكن يتضح الخط الصاعد والخط الهابط من خلال الأجيال !

وشهادة القرن العشرين تقدم لنا الجواب ! إنها تقول في أوضح صورة : هذا الجيل في طريقه للانحدار !

كلا .. لا نظافة بلا دين ! ! إنما هي مرحلة من مراحل الانزلاق .. لم تصل بعد إلى القذارة الكاملة ، لأن الأمم تنزلق في بطء شديد .. في أجيال

وقد بدأ الغرب فى الهبوط على المنزلق .. وشهد بذلك الناس هناك !

* * *

أما نحن .. فلسنا مسلمين !

كل دعوى بأننا مسلمون .. باطلة !

مسلمون بأسمائنا ؟! مسلمون بسكنانا فى الأرض التى « كان » يسكنها المسلمون ؟!

أين نحن من الإسلام ؟ ! ماذا فينا يحكمه الإسلام ؟ !

الإسلام لا يحكم واقع حياتنا كله .. ولا سلوكنا الفردى .. فكيف نكون مسلمين ؟ !

ولقد كتبت كتابا كاملا سميته « هل نحن مسلمون ؟ » بينت فيه كيف بعدنا عن الإسلام وجافيناه . وما أحتاج أن أعيده هنا فى هذا الكتاب !

ولكنى فقط أقول هذه البديهية التى يستطيع أن يراجعها كل إنسان فى نفسه : ماذا فينا يحكمه الإسلام ؟ !

إن تلك البقية الباقية من العقيدة الإسلامية فى صورة «عبادات» . فى صورة صوم وصلاة ومسابح ، و « حج مبرور » . . كلا ! ليست إسلاما !

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا . وأولئك هم المتقون »(١) « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما »(٢) .

---

(١) سورة البقرة [١٧٧]   (٢) سورة النساء [٦٥]

الإسلام هو أن نكون مسلمين فى كل لحظة وكل عمل . كل شئون المجتمع . كل شئون الحيـــاة . كل التعامل الفردى . كل السلوك الشخصى . . وإلا فلسنا بمسلمين .

الإسلام أن يحكم الإسلام أخلاقنا وسلوكنا ؛ وواقعنا ومجتمعنا ؛ واقتصادنا وسياستنا . . وإلا فلسنا بمسلمين .

ونحن ضعاف متخلفون .. كذابون منافقون .. مخادعون غشاشون .. لأننا غير مسلمين .

ويوم كنا مسلمين . . لم يكن شىء من ذلك كله فى واقعنا ولا فى أخلاقنا !

ولم تكن « الأخلاق » يومئذ وعظا باسم الدين ! إنما كانت تربية كاملة فى ظل الدين . تربية ينشأ عليها الطفل منذ مولده ، ويجد قدوتها فى والديه ، ورصيدها الواقعى فى المجتمع .

ولكننا انحرفنا عن الإسلام فى المدى الطويل . . !

وما بى هنا أن أدافع عن الإسلام أو أدافع عن الغرب ! إن حرباً واحدة أو حربين متلاحقتين أفسدتا من المجتمع الغربى ما أفسدتاه فى كل مجال . . حتى الأخلاق الفردية التى كان يفاخر بها الغرب ! والعالم الإسلامى قد لاقى صنوفا من الويلات : اليهود والتتار والصليبيين والمستعمرين والمبشرين والمستشرقين ، وتلاميذ المبشرين والمستشرقين . والحكام الطغاة من الداخل ، والأعداء من الخارج .. وظل متماسكا ألف سنة .. حتى أخذ فى الانهيار بعد كل هذه الويلات !

والموجود عندنا اليوم على أى حال ليس دينا بلا نظافة . . وإنما هو لادين! فقد انحرفنا عن كل مفاهيم الدين ، وكل مقومات الدين !

ومع ذلك .. فهناك فرق رئيسى بين انحرافنا وانحراف الغرب !

انحرافنا وانحرافهم

لقد انحرف الغرب . . وانحرفنا ! وطال علينا الأمد فى الانحراف . . عدة أجيال !

وحالنا ولاشك أسوأ من الغرب . . فهم على الأقل ما يزالوان يستمسكون بعدة فضائل — و إن كانت فى طريقها إلى التفكك والانحلال بعد الحرب الثانية على الخصوص . . ولـكنها لم تتفكك بعد على تمامها . مازالوا يستمسكون ببعض الفضائل الفردية فى التعامل : من استقامة وصدق و بعد عن الغش والنصب والاحتيال . و بعض الفضائل الجماعية فى « التنظيمات » المختلفة التى يقوم عليها المجتمع الغربى . . وفى « العمل » بصفة خاصة ، فالعامل أو الموظف يعمل ثمانى ساعات متوالية (مع فترات من الراحة القصيرة تبلغ فى مجموعها ساعة أو أكثر) بجد كامل و إخلاص ، لا يتحدث ، ولا يقص القصص ، ولا يتشاغل عن عمله فى صورة من الصور . ومن أجل ذلك كله يملك الغرب القوة « المادية » والقوة العلمية والقوة التنظيمية التى يملـكها اليوم . .

ونحن لم تعد لدينا فضائل . . .

لافضائلنا نحن الإسلامية الأصيلة . . ولافضائل الغرب الذى نقلده اليوم كالقرود تارة وكالعبيد تارة !

لانحن فى تعاملنا الفردى نصدق أو نخلص أو يستقيم لنا وعد أو نية . . ولاتنظيماتنا تتماسك إلا بمقدار ماتخشى السلطة القائمة عليها ، وسرعان ماتتراخى اليد الممسكة بالسلطة ، وسرعان ماتتفكك التنظيمات ! وحالنا فى « العمل » و « الإنتاج » هو حالنا فى التنظيمات والتعامل الفردى : لاصدق ولا إخلاص ،

ولا صبر على عملية الإنتاج . ومن أجل ذلك نتخلف فى عملية السباق الجبار الذى يصطرع فيه العالم الحديث . .

ومع ذلك . . فانحرافهم أخطر من انحرافنا وأمعن فى الضلال !

* * *

وللوهلة الأولى لن تصدق هذه الحقيقة !

فقد ربّانا الاستعمار الصليبي فى الجيل الماضى على أن أوربا عملاق ضخم لا ينهار ولا يقهر .. ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فكل مايفعله صواب ، وكل ما يأتى من عنده فضيلة . . ومن أجل ذلك انسقنا فى التقليد . . كالقرود والعبيد .. فقلدناهم فى الانحلال الخلقى والتفاهات «والتقاليع !» . . فى «موضات» الأزياء وموضات الأفكار سواء . ولم نقلدهم فى الصبر على العمل والصبر على التنظيم ، لأن « العبيد » لا يقلدون « السادة » فيما يحتاج إلى الهمة والجهد ، إنما يقلدون فى مظاهر الأشياء . . التى تناسب العبيد !

ثم ولد جيل جديد ظللنا نقول له إننا تحررنا من سيطرة الاستعمار ، وصرنا « سادة » . . ولمس هذا الجيل بالفعل بعض مظاهر القوة و بعض مظاهر السيادة .. ولكنه رأى بعينيه أننا نأخذ وسائل الحياة الغربية كلها دون تمييز ، ونتخلى عن مكوناتنا كلها دون تمييز .. نتخلى عن مقدساتنا لنصبح تطوريين .. أى أننا فى الحقيقة نستعبد أنفسنا للغرب ، حتى ونحن نصطرع معه على السيادة ؛ وندخل فى نطاق تأثيره حتى ونحن نحاول التحرر منه . . ! وفى النهاية لا ننال الغرض الحقيقى على تمامه : وهو احتذاء الغرب فى القوة المادية والقوة العلمية والتنظيم .. لأننا مشغولون فى عملية تحطيم الدين والأخلاق والتقاليد ، وشبابنا مستنفد الطاقة فى السينما والتلفزيون ، وأقاصيص الجنس المحموم !

لذلك لن يصدق هذا الجيل أوذاك لأول وهلة هذه الحقيقة : أن انحراف الغرب أخطر من انحرافنا ، رغم أننا الضعفاء وهم الأقوياء !

* * *

حياتنا وحياة الغرب قائمتان على أسس منحرفة .

لكن الفرق بين انحرافنا وانحرافهم ، أنهم لا يملكون أساسا للتقويم ، ونحن نملك هذا الأساس !

نحن نملك الأساس السليم للقوة والتقدم والحضارة « الإنسانية » الحقيقية والرفعة والصعود . . وعيبنا أننا لا ننشئ حياتنا وحضارتنا عل ذلك الأساس السليم . . وذلك سر تخلفنا ، وسر ما فينا من ضعف وانحراف .

أما الغرب فلا يملك أساس التقويم . . عيبه ناشئ من حضارته ذاتها . . فكلما سار فيها شوطا ، على خطوطها المنحرفة ، زاد فى الانحراف . بل كلما زاد فى القوة — على خطوطها المنحرفة — زاد فى الهبوط !

« إننا قوم تعساء ، لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا . إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ، ولكنها لا تدرك ذلك » . [ألكسيس كاريل] .

إن الحضارة الغربية ذاتها هى المنحرفة . . والناس هناك لا يفسدون لأنهم ينحرفون عن الخطوط الأصلية للحضارة الغربية ، ولكن لأنهم — على وجه الدقة — يسيرون على خطوط تلك الحضارة ، ويتبعونها بصدق وإخلاص !

نحن المسلمين انحرفنا عن الإسلام .. ففسدنا وضعفنا وتخلفنا .. أما الغربيون فلم ينحرفوا عن وحى حضارتهم . لقد اتبعوها صادقين ، فكانت هى السبب فى انحرافهم ، وانحدارهم — كما يقول « كاريل » — إلى البربرية والهمجية والضياع .

الانحراف الغربي الأكبر ، أنه لا يدرك ما فى حضارته من انحراف !

* * *

تقوم الحضارة الغربية الحالية على أسسها الإغريقية الرومانية القديمة ، بنفس الأهداف ونفس الروح . .

الحضارة الإغريقية مدتها « بالأفكار » . . التجريدية بصفة خاصة .

والحضارة الرومانية مدتها « بالتنظيم » ، والبحث عن الفائدة العملية ، والبحث عن المتاع .

ولقد أخذت عن العالم الإسلامى « المذهب التجريبى » فى العلم ، الذى قامت عليه كل الحركة العلمية الحديثة ، كما أخذت عنه كثيراً من الأفكار والاتجاهات.. ولكنها مزجت ذلك كله بالروح الإغريقية الرومانية الوثنية ، لأنها قامت — بادئ ذى بدء — على عداء مع الكنيسة ونفور من الدين . .

لذلك انحرفت . . بادئ ذى بدء !

وظل الانحراف يزداد !

لقد فصمت هذه الحضارة — ابتداء — ما بين السماء والأرض من روابط ، ففصمت — مقابلها — جانبين ممتزجين فى كيان الإنسان ، فجعلت كلا منهما على حدة ، ثم كبتت أحد الجوانب بكل وسائل الكبت ، ونمت الآخر بكل وسائل التنمية !

تلك هى الخطيئة الأولى فى هذه الحضارة، التى تلتها الخطايا الأخرى متتابعات.

إن النفس البشرية وحدة. والسماء والأرض وحدة. وفصل السماء عن الأرض فى الحس البشرى ، وما يقابله من فصل الجانب الروحى عن الجانب المادى من الإنسان ، لابد أن تترتب عليه نتائجه « الحتمية » . فكلا الجانبين المعزولين ،

سواء الذى كبت منذ البدء ، والذى عمى أكثر من طاقته .. لابد فى النهاية أن يذبلا معاً . . لأنهما منفصلان ! وذلك مغزى الكلمة الصادقة التى يقولها ألكسس كاريل ، ويؤكدها فى كتابه بشتى أنواع التوكيد « العلمى » القائم على الدراسة والمشاهدات .

فصمت الحضارة الغربية ما بين الإنسان والله . فماذا كانت النتيجة ؟

تقدم العلم . ونظمت الحياة على الأرض أرقى أنواع التنظيم . . وخيل للناس هناك أن هذا التقدم والرقى هو حصيلة ذلك الفصام[1] !

ذلك وهم أنشأته الظروف والملابسات هناك !

فالتقدم العلمى ليس عدوا للدين . وكذلك تنظيم الحياة على الأرض !

قد يكون هذا وذاك عدوا للمفهوم الكنسى للدين أو لرجال الدين والكنيسة. ولكنه ليس عدواً « للدين » ذاته . ليس عدواً لدين الله . فدين الله لا يمكن أن يقف فى سبيل البشر ، وهو الذى نزل لإصلاح البشرية .

والدليل هو الإسلام !

فالحركة العلمية الكبرى التى نشأ عنها المذهب التجريبى . . أو العلم الحديث فى أوربا ،قد نشأت فى ظل الإسلام، بل نشأت من وحى الإسلام وتوجيه الإسلام!

فالعرب ــ من قبل ــ لم يكونوا أهل علم. والعلوم اليونانية التى أخذ المسلمون عنها وتتلمذوا عليها بادئ الأمر لم تكن فى ذاتها تنحو نحو التجريب ، كما قال بريفولت ودريبر[2] ، ولم تكن ــ بذاتها ــ تحدث تلك النهضة . إنما التوجيه الإسلامى هو الذى حولها من التأمل إلى التجريب . ومن ثم تقدمت تقدما كبيرا بحساب ذلك الزمان .

---

(١) اقرأ فصل « الفصام النكد » فى كتاب « المستقبل لهذا الدين » .

(٢) راجع ص ٢٣٦ — ٢٣٨ .

و « التنظيم » بكل أنواعه أخذ المسلمون أشكاله وأجهزته من الحضارات السابقة فى ظل المبادئ الإسلامية الثابتة ، ومزجوه بروح الإسلام وأضافوا إليه، فلم تقم العداوة بينه و بين الدين . بل كان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب هو الذى سارع – بروحه المسلم المتمكن فى الإسلام – إلى « تدوين الدواوين » .

فالوهم الباطل الذى خيل للغرب أن التقدم العلمى والتنظيم الحضارى هما حصيلة الفصل بين الدين والحياة العملية . . و هم أنشأته ملابسات خاصة هناك ، وليس حقيقة بشرية !

ولكنه كان أخطر ماجنت به الحضارة الغربية على أجيال البشرية !

لقد أنشأ مسخا مشوها فى مكان « الإنسان » !

مسخا نمت فيه الجوانب الفكرية والجوانب المادية إلى أقصى حد .. وضمرت فيه الجوانب الروحية إلى أقصى حد .. فصار كريها منفراً مخيفا . . ينذر بالضياع والدمار !

هذا المسخ المشوه قد أغلق على نفسه نوافذ المعرفة كلها إلا مايدخل من نافذة « الذهن » ونافذة « الحس » . وألغى ما يدخل من نافذة « الروح » .

والإنسان — إذا شبهناه مؤقتا بمعمل هائل دقيق التركيب — لا بد أن تدخل الأضواء إلى ظلماته من جميع النوافذ فى آن واحد . . ليستطيع أن يقوم «بالتمثيل الضوئى » الخاص به على طريقة الإنسان ! وكل خلل يصيب جهازا من أجهزته، أو كل نقص يصيب « الضوء » النافذ إلى ظلماته ، يجعل الحصيلة النهائية ناقصة، وقد يجعلها تنتج مركبات خطرة . . سامة . . مدمرة لكيان الإنسان !

وهذا المسخ المشوه الذى لايؤمن إلا بما تدركه الحواس ويدركه الذهن . يصاب — أول مايصاب — بالعمى النوعى .فلا يبصر أمامه إلا جانبا من الشاشة. جانباً من الحياة . وبقية الشاشة فى نظره مظلم . . أو لا وجود له على الإطلاق .

وتأثير ذلك فى إدراكه وفى سلوكه خطر وشديد الخطورة !

فهو يدرك الأشياء ناقصة ، وتتكون فى حسه الصورة مشوهة . . ثم يسير فى حياته على هدى هذه الصورة المشوهة ، فإذا كل خطوه اضطراب .

ولا نحتاج هنا أن نعيد كل شهادة القرن العشرين . . وإنما نحتاج أن نشخصها لنعرف علاجها .

فحين تعمى روح الإنسان عن حقيقة الحياة والكون ، ولا ترى منها إلا الجانب الظاهر للحس . . يختل التوازن فى داخل كيان الإنسان كما يختل مسار الكوكب لو حجبت عنه فجأة بعض عناصر الجاذبية وترك لبعضها الآخر ! وقد اختل بالفعل توازن الإنسان فى هذا العصر ، فجذبته الأرض بكل عنفها ، حين انقطع عن جاذبية السماء !

نشاط الروح . . فى اتصالها بخالقها ، واستمدادها النور منه ، والاتصال بروح الكون اتصال المحبة والتفاهم والتعاون ، والاتصال بروح البشرية على إخاء . هذا النشاط لم يودعه الخالق كيان الإنسان اعتباطا ، تعالى الله عن العبث وعدم القصد : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين »[1] « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً » ؟ ![2] . وإنما أودعه كيان الإنسان ليعادل به جواذب الأرض وهواتفها ، وهى عنيفة شديدة تحتاج دائماً إلى مايوازنها ويعادلها .

فلما حدث « الفصام النكد » فى الغرب بين الإنسان والله . بين الدين والحياة . . انكفأ الإنسان على وجهه يهيم فى الأرض . . باحثا عن اللذة والمتعة والقوة . . بلا هدى يعصمه من السعار .

والسعار المحموم الذى يغشى المدنية الغربية اليوم هو النتيجة الحتمية لذلك الفصام .

---

(١) سورة الدخان [٣٨] .
(٢) سورة المؤمنون [١١٥] .

إنه ليس انحرافا عن أصول الحضارة الغربية . . إنما هو الحضارة الغربية ذاتها فى ذروة اللمعان ! إنه لايمكن أن يُتقى .. مادام الأساس ذلك الأساس !

و « الطيبون » الذين يظنون أنهم يستطيعون أن يأخذوا الحضارة الغربية — على أصولها الغربية — ثم يحولوا دون انحرافاتها .. أو يمتنعوا عن أضرارها .. هم «طيبون» جداً . مضَلَّلون جداً .. لأنهم يتخيلون شيئاً لايمكن أن يحدث .. شيئاً ضد طبائع الأشياء !

هذا السعار المحموم الذى يتجلى فى « الإغراق » فى كل شىء . . الإغراق فى المادية . الإغراق فى الآلية . الإغراق فى وحشية الصراع . الإغراق فى متاع الجنس . الإغراق فى البحث عن السلطان . . إنه ليس شيئاً عارضاً نشأ عن مخالفة الناس فى الغرب لأصول الحضارة الغربية ، إنما هو شىء فى صميم تلك الحضارة ، ونتيجة حتمية من نتائجها .

نتيجة حتمية لطمس الجانب الروحى فى الإنسان !

ولقد سخر الغرب كله بحقيقة الروح . . سخر منها التفسير المادى للتاريخ [وهو ليس ملكا للشيوعية وحدها فى الحقيقة ، فقد رأينا أن الغرب الرأسمالى محكوم بمفاهيمه [1]] وسخر منها التفسير الجنسى للسلوك البشرى . وسخر منها التفسير الجمعى للإنسان [دركايم] وسخر منها طائفة كبيرة من الكتاب والعلماء والصحفيين والفنانين . . أو فى القليل تجاهلوها فلم يجعلوها فى الحساب !

وكانت النتيجة الحتمية هى ذلك الانحراف المجنون .

حين لا يؤمن الإنسان بالله واليوم الآخر . . أو لايؤمن بهما إيمانا جاداً يحكم السلوك والمشاعر والحياة العملية . . فالنتيجة الحتمية هى أن يرى هذا العالم

(١) راجع شهادة ول ديورانت الأمريكى فى فصل شهادة القرن العشرين .

وحده . . عالم الأرض . . وأن يعبد شيئا من القوى الأرضية : يعبد الدولة . أو يعبد المجتمع . أو يعبد المادة . أو يعبد ذاته . أو يعبد الشيطان !

ثم . . يتكالب على متاع الأرض كله .

يتكالب على الفرصة الوحيدة المتاحة للمتاع . .

ومن هنا لا يكون شيء من التكالب الذى يدمر البشرية اليوم أمراً عارضاً فى الحضارة الأوربية يرجى له الصلاح . إنما هو شيء فى صميمها ، ونتيجة حتيمة من نتائجها !

تكالب الفرد الرأسمالى فى الغرب على تركيز المال فى يده ، وتركيز السلطة الناشئة من المال .. ومايتبع ذلك من استغلال بشع ، وامتصاص دماء ، واستعمار وطغيان .. إنه ليس خللا « اقتصاديا » فى الحضارة الغربية . إنه نتيجة «التفرغ» لهذه الأرض .. والانصراف عن هدى الله .

وتكالب الدولة الشيوعية على تركيز المال فى يدها وتركيز السلطة الناشئة من المال .. ومايتبع ذلك من استعباد الدولة للناس ، وإذلالهم ، ونزع آدميتهم ، وتحويلهم إلى آلات .. ليس مجرد اختلال «اقتصادى» مقابل لاختلال الرأسمالية. إنه مثلها تماما ، اختلال فى تصور الكون والحياة وتصور الإنسان .. اختلال نشأ من التفرغ لهذه الأرض .. والانصراف عن هدى الله .

وتكالب الشرق والغرب على القوة ، بالصورة التى تنذر بالتدمير .. ليس اختلالا « سياسياً » عارضاً .. وإنما هو اختلال أصيل فى النظرة إلى « القيم » التى تحكم الحياة

والتكالب الجنسى .. لايحتاج إلى تعليق ![1]

---

(١) أقرأ فصل « تخبط واضطراب » من كتاب « الإسلام ومشكلات الحضارة »

كلها اختلالات !

اختلالات لها ظروف محلية فى أوربا . . ولـكنها نشأت بادئ ذى بدء من ذلك الفصام النكد بين الدين والحياة .

هذا الفصام هو الذى أتاح للتوجيه اليهودى أن يدخل المعركة لتدمير المسيحية، وتدمير « الأمميين » بصفة عامة .

وهذا الفصام هو الذى أقام الانقلاب الصناعى فى صورته المادية الخالصة التى لا تراعى قواعد الأخلاق ولا قواعد « الإنسانية » .

وهذا الفصام هو الذى أخرج المرأة من وظيفتها الفطرية الأولى إلى المصنع والمتجر والطريق . . وأخرجها للإغراء والغواية . . لتحطيم ما بقى فى الحياة من علوية ورفعة . . والهبوط بها إلى حمأة الجنس المسعور .

وهذا الفصام هو الذى سخر العلم فى طريق الشر [إلى جانب ما يؤديه من خدمات للبشرية] فأفسد الأمم والأفراد .

وهذا الفصام هو الذى جعل صورة « الإنسان » مشوهة ممسوخة . . فقامت نظم التربية ونظم السياسة ونظم الاقتصاد ونظم المجتمع والفنون تغذى هذه الصورة الممسوخة وتمد لها فى التشويه !

وفى اختصار هو الذى أنشأ كل ما فى الغرب من الفساد !

* * *

وهو فساد خطر لأنه لا يملك السبيل إلى التوقف أو العلاج !

لا يملك مقياس الحكم الصحيح على الأشياء . .

لو كانت للحضارة الغربية مقاييس « إنسانية » صالحة ، انحرف الناس عنها ، لـكان هناك الأمل فى عودة الناس إلى المقاييس « الصحيحة » ، ورجوعهم عن الفساد .

ولكن ما هى المقاييس « الصحيحة » لهذه الحضارة ؟ !

لقد « قالت » هذه الحضارة كلاما كثيراً عن « حقوق الإنسان » و « الحرية والإخاء والمساواة » و « الكرامة الإنسانية » و « الرفعة الإنسانية » و « العظمة الإنسانية » و . . . و . . . و . . .

ثم عملت هذه الحضارة — مخلصة — على خطوطها الأصيلة — لتحقيق هذا الكلام !

عملت — مخلصة — وهو ترى « الإنسان » فى الحقيقة فى صورة « الحيوان » ! وهى تفصل الإنسان عن الله . وتفصل الحياة عن الدين . وتفصل المادة عن الروح . وتفصل الدنيا عن الآخرة !

وكانت النتيجة أن عملها أوصلها إلى غايتها المحتومة !

فانقلبت حقوق الإنسان ، والحرية والإخاء والمساواة ، والكرامة الإنسانية ، والرفعة الإنسانية ، والعظمة الإنسانية ، . . إلخ . . إلخ إلى هذه الصورة البشعة التى لمسنا جانباً منها فى شهادة القرن العشرين ، ولمسنا جانباً منها فى هيروشيما ونجازاكى ، وجانباً منها فى التفرقة العنصرية فى أمريكا وأفريقيا . . وجانباً منها فى كل مجال وفى كل مكان !

لم ينحرف الناس عن « أصول » الحضارة الغربية ! إنما اتبعوها فأوصلتهم إلى البوار !

و « الطيبون » الذين يرون الوجه اللامع من الحضارة الغربية ، والبقية الباقية من الفضائل الموجودة فى الغرب ، عليهم أن يروا كذلك الوجه الأسود الكالح لهذه الحضارة ، ثم يتذكروا شهادة كاريل :

« إننا قوم تعساء ، لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً . إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هى على وجه الدقة الجماعات والأمم

الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها » .

إنها نهاية الخط . . خط الانحراف .

ولكنه انحراف أصيل فى هذه الحضارة لم يطرأ عليها من خارجها . لم يطرأ من انحراف الناس فى تصور مفاهيمها أو تمثل حقائقها . وإنما نشأ من طبيعة قيامها منذ أول لحظة على أساس معادٍ للدين ، شاردَ من الله .

ونحن — كما أسلفنا — أسوأ من الغرب فى وضعه الراهن . .

نحن أضعف منه قوة وعلماً وتنظيما . . وكذلك نحن فاسدو الأخلاق .

أخلاقنا هى الغش والنفاق والكذب والخديعة . . وهى النفور من المسئولية وعدم الصبر على التنظيم وعدم الجد فى الإنتاج .

وأخلاقنا فى شئون الجنس لم تعد فى شىء أنظف من الغرب ! والبركة فى التوجيه المستمر من الصحافة والإذاعة والسينما والتليفزيون وكتاب القصة «الفنانين» «الموهوبين» «المبدعين» !

ولكننا مع ذلك نملك السبيل إلى التقويم ، بصرف النظر — مؤقتا — عن اتجاهنا أو عدم اتجاهنا إلى السبيل !

نحن نملك الإسلام . .

نملك أكبر قوة إصلاحية على وجه الأرض . .

وانحرافاتنا كلها هى الانحراف عن الإسلام . .

وطريقنا للقوة والصعود والتمكن والتقدم والحضارة والإنسانية. بل طريقنا لإنقاذ البشرية كلها . . هو الرجوع إلى الإسلام .

أما الغرب . . فلا طريق أمامه — على خطوطه الحالية — إلا طريق الضياع والدمار . .

فأى الطريقين هو الذى يكتب مستقبل البشرية ؟ !

مستقبل البشرية

حين أطلق الفيلسوف المعاصر « برتراند راسل» نبوءته الصادقة سنة ١٩٥٠:
« لقد انتهى العصر الذى يسود فيه الرجل الأبيض . وبقاء تلك السيادة إلى الأبد ليس قانوناً من قوانين الطبيعة . وأعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقى أياما رضية كتلك التى لقيها خلال أربعة قرون . . » حين أطلق نبوءته الصادقة هذه لم يكن يشير إلى ملابسات « سياسية » معينة تنهى دور الرجل الأبيض فى تاريخ الحضارة البشرية .. فالسياسة فى الحقيقة إن هى إلا المظهر الخارجى لحقيقة الأوضاع الداخلية للأمم : الأوضاع الفكرية والروحية والنفسية والاجتماعية والعلمية والمادية . . سواء ! وإنما كان الرجل — الفيلسوف — يدلى — على طريقته الفلسفية — بنصيبه فى شهادة القرن العشرين !

انتهت سيادة الرجل الأبيض . لأن حضارته قد وصلت إلى غايتها — على خطوطها المنحرفة — فأخذت فى الانهيار . . تلك شهادة القرن العشرين من جميع جوانبها ، ومن بينها نبوءة ذلك الفيلسوف .

وليس أمام الرجل الأبيض طريق — من حضارته الحالية — ينقذ به نفسه ، وينقذ البشرية التى يتولى اليوم قيادتها ، ويتولى كذلك هلاكها[1] !

فطريقه الذاتى مملوء بالحفر المدمرة . . وهو منطلق بأقصى ماوسعه من طاقة فى هذا الطريق . . طريق الشيطان !

* * *

ومع ذلك فلسنا متشائمين بمستقبل البشرية !

---

(١) اقرأ فصل «انتهى دور الرجل الأبيض » فى كتاب « المستقبل لهذا الدين » .

ولسنا نبنى تفاؤلنا — بطريقة صبيانية — على التقدم العلمى الجبار الذى سييسر الحياة فى المستقبل ، وسيصنع الأعاجيب ! ولا على دعاوى « الإنسان » فى السيادة على البيئة والتحكم فى الظروف والتحرر من العجز والتحرر من القيود .. إلى آخر هذه الدعاوى الفارغة التى يرددها كتاب الغرب المفتونون وتلاميذهم فى الشرق ، الذين يحسبون أنفسهم من « الرواد » حين يلوكون هذه الأقاويل . . فقد رأينا من شهادة ألكسيس كاريل أن التقدم العلمى ذاته — على خطوطه الحالية — هو الذى سيسرع بالناس إلى العودة للبربرية والهمجية ، وأن تحكم الإنسان فى البيئة وسيادته عليها — بتصوراته الحالية — هو ذاته الذى يجعله ينشىء حضارة لا تلائمه ، وتؤدى به إلى الدمار !

وإنما نبنى تفاؤلنا على الواقع السيئ الذى تعيشه البشرية اليوم فى ظل الحضارة الغربية ! والذى يأخذ طريقه إلى الازدياد !

فهذا الواقع السيئ هو الذى سيهدى البشرية إلى الصواب !

* * *

لم يعد لدى حضارة الغرب رصيد طيب تعطيه . . !

إن التقدم العلمى هو الرصيد الوحيد الذى سيسلمه الغرب للبشرية . . وهو من الأصل رصيد البشرية كلها على مدار الأجيال . بدأه المصريون القدماء والإغريق والهنود . . وأخذه المسلمون منهم وأضافوا إليه . . وسلموه لأوربا ففتحت فيه فتوحاً واسعة . . وستسلمه أوربا غداً لمن يحمل الراية فى المستقبل .. دورة دائمة تتداولها الأجيال .

ولكن الغرب — فيما عدا هذا — لا يملك الكثير !

هناك فضائل نفسية واجتماعية وتنظيمية مازال يحملها الغرب ولا شك . . هى التى تحفظ كيانه إلى هذه اللحظة أمام هذا السيل الجارف من المدمرات . . فى الفوضى الجنسية والخلقية ، والإلحاد ، وتفكيك روابط الأسرة والمجتمع ، الانفلات من كل القيم وكل المعنويات .

ولكن هذه الفضائل هى التى تتضاءل يوماً بعد يوم . . كل حرب وكل أزمة تنقص منها وتزلزلها . . لأنها فقدت معينها الأول الذى يصونها ويجددها على الدوام : معين الدين . . الصلة الحقة بالله .

وشهادة القرن العشرين . . والشباب المهدد بالضياع .. وصيحة كنيدى وخرشوف .. وبرتراند راسل .. وغير هؤلاء وهؤلاء .. كلها تشير إلى أن هذه الفضائل فى طريقها إلى التضاؤل . والانهيار !

« سنة الله فى الذين خلوا من قبل . ولن تجد لسنة الله تبديلا »(1)

* * *

وإذن فلن يكون الخلاص على يد الحضارة الغربية ، ولا حضارة من نوع الحضارة الغربية !

البشرية فى حاجة إلى تحول جذرى فى مجالاتها جميعاً .. فى حاجة إلى بناء جديد.

وهناك خطوط ستظل بلا شك دون تغيير أو حاجة إلى التغيير .. فالعلم يسير على خط صاعد وسيظل كذلك . ولا خوف عليه — حين تتغير نظم البشرية ومناهجها — أن يتوقف أو يضيع ! وتاريخ البشرية كله يومئ إلى أنه لم يتوقف قط . وإنما تتسلمه أمة من أمة لتزيد عليه وتنميه . وفى التاريخ الحديث شواهد على ذلك . فقد كانت روسيا حين بدأت ثورتها تكاد تكون أمية فى دنيا العلم .. ثم إذا هى تسبق الغرب — الذى تتلمذت عليه — فى أبحاث الذرة وأبحاث الفضاء ! والصين بدأت من تحت الصفر ! واستعارت من روسيا كل شيء .. العدد والأدوات والفنيين والأموال .. ثم .. إذا هى خطر ماثل ، يلجئ روسيا ذاتها إلى محاولة التفاهم مع الغرب للوقوف أمام الخطر الأصفر . . .

لا ارتباط إذن بين التقدم العلمى وبين الحضارة الغربية الحالية .. ولن يقف العلم أو ينهار إذا انهارت فى القريب أو البعيد حضارة الرجل الأبيض !

و « التنظيم » العلمى للحياة لا يتوقف هو الآخر . . إنما يحتاج إلى تعديل

---

(1) سورة الأحزاب [62]

« الآلية » المسيطرة عليه ، والتى تأخذ اليوم برقاب الغرب ، وتقتل منه الروح ، و « فردية » الإنسان[1] .

وفيما عدا هذا ينبغى أن يشمل البشرية تغيير جذرى يغير كل طريق البشرية !

* * *

ماصورة هذا التغيير ؟

فلننظر فى انحرافات البشرية الحالية ، لنعرف كيف يكون التغيير الذى يهدف، إلى معالجة الانحراف !

هنالك نقطتان رئيسيتان تنحرف فيهما البشرية الحالية انحرافا جذرياً خطيراً .. أو هو انحراف أصلى نشأ عنه انحراف آخر لا يقل عنه خطورة . .

الانحراف الأصلى هو البعد عن الله . . النفور من الدين . . وإقامة الحياة كلها على أساس لا دينى (secular) .

والانحراف الذى نشأ عنه هو تشوه التصور الإنسانى « للإنسان » . فهو يقوم من ناحية على أساس التصور المادى الحيوانى للإنسان ، ومن ناحية أخرى على أساس « جزئية » الإنسان .

والعلاج — إذن — هو العودة إلى الله بادئ ذى بدء . وهو تصحيح تصور الإنسان لنفسه . على أساس « إنسانية » الإنسان من ناحية . و« شمول » الإنسان من ناحية أخرى .

العودة الى الله لاتعنى مجرد إضافة قدر من « الروحانية » على أسس الحياة الغربية الحالية ! فهذا المزيج المتنافر لن يصلح الحياة البشرية فى شىء ! ولن يزيد الناس إلا تمزيقاً واضطراباً وحيرة فى مواجهة الحياة !

* * *

(١) كل إنسان — كما خلقه الله — عالم فرد لا يتماثل مع غيره من الأفراد ، وإن تشابه مع الجميع . ولكن الآلية التى يعكسها العلم اليوم على الغرب تفقد الفرد فرديته ، وتصب الناس فى قوالب جاهزة كالإنتاج المادى ! [انظر كاريل : الإنسان ذلك المجهول] .

إنما المقصود شيء آخر . . شيء يصنع تغييراً جذريا فى « التوجه » الإنسانى ذاته ! فيتجه بادئ ذى بدء إلى الله ! لا إلى أحد سواه !

إنه شيء حقيقى . شيء جاد ! لا مجرد تلهية وعبث وزخرفة !

التوجه إلى الله معناه إفراده — سبحانه — بالألوهية . معناه حاكمية الله وحده . معناه أن يكون هو — سبحانه — صاحب الأمر الحقيقى بين الناس . هو الذى يضع للناس شريعتهم ومنهج حياتهم . هو الذى يخطط لهم سياسة مجتمعهم وسياسة أموالهم . هو الذى يحدد لهم علاقة الفرد بالمجتمع . وعلاقة الناس بالدولة . وعلاقة الرجل بالمرأة . وعلاقة الأمة بالأمم . وعلاقة «الإنسان» « بالإنسان » .

شيء حقيقى جاد . . لا مجرد تلهية وعبث وزخرفة !

ليس مجرد صلوات لله فى المعابد ، ولا سبحات روحية مرفرفة ، ولا تزجية لأوقات الفراغ !

إنما هو إقامة الحياة كلها على أساس العبودية الحقة لله ! وعدم الاستنكاف من عبادة الله على هذا المنوال !

أما المزج بين الحياة الحالية و بين « قدر » من التدين ، فقد كان النقطة الخطرة التى بدأ عندها الانفصام الحالى ، والتمزق ، والحيرة ، والاضطراب !

إن الحياة لا تصلح بعبادة إلهين مختلفين . أو إله فى السماء وآلهة متعددة فى الأرض ! نهايتها الحتمية هى ماوصلت إليه أوربا اليوم من تمزق وفساد .

ولا تصلح كذلك بعبادة إله غير الله . فكل إله غير الله باطل ، سريعا ما يعطب و يعطب عبَّادَه . وآخر هؤلاء الآلهة المزيفين هو الإنسان ذاته .. حين عبد الإنسانُ ذاته ! فسر يعا ما عطب ذلك المعبود وأعطب نفسه التى تعبده ! وأسرع بنفسه إلى الهلاك والبوار !

« أإله مع الله ؟ ! بل هم قوم يعدلون ! »[1]

« أإله مع الله ؟ ! بل أكثرهم لايعلمون ! »[2]

« أإله مع الله ؟ ! قليلا ما تذكّرون ! »[3]

« أإله مع الله ؟ ! تعالى الله عما يشركون ! »[4]

« أإله مع الله ؟ ! قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ! »[5]

* * *

وعبادة الله الواحد معناها نقض الأسس الحالية كلها للسياسة والاجتماع والاقتصاد . . وتغيير صورة الحياة بأكملها .

معناها إلغاء عبادة الدولة . وعبادة رأس المال . وعبادة المجتمع . وعبادة الفرد الإنسانى . . ومايترتب على كل هذه العبوديات من انحراف .

النظم الجماعية التى تجعل الدولة — أو الزعيم — هو المعبود . . والنظم الفردية التى تجعل رأس المال هو المعبود . . والنظم التى تقدس المجتمع وتجعله محور ارتكازها الآمر الناهى المسيطر ، وتلغى بذلك كيان الفرد وتسحق وجوده ، فلا يتبقى له إلا كونه فرداً فى القطيع . . والنظم التى تقدس الفرد فتنفخ فى كيانه على حساب المجتمع ، فتفكك المجتمع . كلها نظم باطلة . . منشأ بطلانها هو « العبادة » المنحرفة التى تتوجه بها لغير الله !

ولن تصل هذه النظم إلى « التوازن » الذى يوازن انحرافاتها ويعدلها إلا بنفض هذه العبادات المنحرفة كلها ، والعودة الحقيقية إلى عبادة الله . . أى استمداد النظم والمناهج كلها منه ، لا لمجرد التسلى بالتوجه إليه فى ساعات الفراغ !

والانحرافات الاجتماعية والخلقية التى رأينا جانبا منها فى شهادة القرن العشرين ،

(١) سورة النمل [٦٠]
(٢) سورة النمل [٦١]
(٣) سورة النمل [٦٢]
(٤) سورة النمل [٦٣]
(٥) سورة النمل [٦٤]

والتى تخصصت كتب « غربية » كاملة لشرحها والإفاضة فيها . . لن تتوازن كذلك إلا بنقض العبادات المنحرفة ، ومن بينها عبادة المجتمع وعبادة الإنسان لذاته . . أى لشهواته !. والعودة إلى عبادة الله ، الذى يضع الضوابط المنظمة للحياة البشرية .

* * *

أما انحراف التصور الإنسانى « للإنسان » . . وهو فرع من الانحراف الأصلى الذى بعد بأوربا عن الدين ، فانفلت قيادها التصورى كما انفلت قيادها الاجتماعى والخلقى . . أما هذا الانحراف فقد أخذ طريقين رئيسيين .

إقامة الحياة كلها على أساس حيوانية الإنسان وماديته .

وإقامتها على أساس المفهومات الجزئية للإنسان .

وكلاهما أنشأ ألوانا من الفساد الخطر فى حياة البشرية . .

حيوانية الإنسان وماديته ترتب عليها فى التصور الأوربى إقامة مجتمع لا تسيره مفاهيم « الإنسان » ولا تصوراته ، ولا مشاعره ، ولا سلوكه . إنما تسيره فى مكان ذلك كله مفاهيم « الحيوان » ! ومفاهيم « الآلة » ! ومن ثم تضاءل مكان العقيدة فى حسه ، وانفلتت ضوابطه الخلقية فى مجال الجنس ، وهبطت علاقة الجنسين عنده إلى علاقة جسدية « بيولوجية ! » همها الحصول على اللذة ، والإغراق فى المتاع . وذلك — بصفة خاصة — هو الذى يسرع بتدمير البشرية كما قالت شهادة القرن العشرين ! كما ترتب عليها تحويل الإنسان إلى « آلة » إنتاجية . . تنتج وتنتج وتنتج . . ولا « تحس » إلا على مستوى الحيوان[1] .

أما جزئية الإنسان فقد ترتب عليها تضخيم جوانب منه على حساب جوانب أخرى ، أو تجاهل الكيان الكلى عامة ، ومحاولة « إنشاء » إنسان جديد على أسس فاسدة تصطدم مع الفطرة وتفسد كيان الإنسان .

فالتفسير المادى للتاريخ ، والتفسير الجنسى للسلوك ، والتفسير الجمعى للحياة ،

---

(١) راجع « كاريل » : الإنسان ذلك المجهول ، و« ول ديورانت » : مباهج الفلسفة .

والتفسير « الرجالي » للمرأة[1] . . والتفسير الآلي للسلوك [الذي يفسر السلوك البشري على أنه صادر عن « الآلة » البشرية] وغيره وغيره وغيره . . كلها قائم على أخذ جزء من الإنسان والزعم بأنه هو «الإنسان» ، وتصور الحياة كلها على هذا الزعم !

وانعكاس هذا الانحراف وذاك على الحياة البشرية المعاصرة واضح شديد الوضوح . فتضخيم الجانب المادي من الحياة على حساب الجانب الروحي والعاطفي . وتضخيم الجانب الجنسي على حساب الجانب الخلقي . وتضخيم الجانب الجماعي على حساب الجانب الفردي [أو العكس] . . ومحاولة « صياغة » إنسان جديد لايحس ولايفكر على مستوى « الإنسان » وإنما على مستوى الآلة أو مستوى الحيوان . . ومحاولة «إنشاء» امرأة ليست أنثى .. الخ . . الخ .. كلها تهوسات نشأت من انحراف التصور الإنساني للإنسان ، ولاعلاج لها إلا العودة للتصور الشامل للإنسان !

التصور الشامل الذي يتصور الإنسان في حقيقته الشاملة المتكاملة : قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله ، ممتزجتين مترابطتين ، يتكون منهما كيان واحد موحد الأجزاء .

الجسم والروح حقيقة واحدة .

الجانب المادي والجانب الروحي حقيقة واحدة .

الجانب الاقتصادي والاجتماعي والجانب الخلقي والمعنوي حقيقة واحدة .

كل نشاط الإنسان حقيقة . . وحقيقة مترابطة ممتزجة .

لاينفصل النشاط الجنسي عن الأخلاق ، لأن هذا وهذه جزءان غير منفصلين من كيان « الإنسان » .

والبحث عن الطعام . . والإنتاج المادي . . وتحسين أساليب الإنتاج . .

---

(١) راجع شهادة الطبيبة الممسوية ص ٢١٨ ــ ٢٢١

والتقدم العلمى .. كلها لاتنفصل عن النشاط الروحى و«القيم» الخلقية والإنسانية. لأنها جميعاً جوانب متعددة — مترابطة — من كيان واحد شامل متكامل .

ومن ثم لاتنفصل فى حياة الإنسان عقيدته عن واقعه . وأخلاقه عن سلوكه. ونشاطه الجنسى عن نشاطه الروحى . ونشاطه المادى عن نشاطه المعنوى . . لأنه لاانفصال فى نفس الإنسان بين هذه وتلك . وليست نفس الإنسان « خزائن » منفصلة : خزانة للعقيدة ، وخزانة للواقع . خزانة للجنس ، وخزانة للأخلاق . خزانة للنشاط المادى ، وخزانة للنشاط الروحى . وإنما يواجه الإنسان الحياة بكيانه المتكامل ونشاطه الشامل ، وإن برزت — فى لحظة — بعض جوانبه وانحسرت جوانب أخرى . . فهى لا تنفصل بحال من الأحوال[1] !

وبهذا التصور المبنى على حقيقة الإنسان ، تتوازن الحياة البشرية وتنجو مما فيها من انحراف .

* * *

ذانك هما الانحرافان الأساسيان فى حياة القرن العشرين : البعد عن الله ، وفساد التصور « للإنسان » .

ومن هذين الانحرافين الرئيسيين نشأت كل الانحرافات الأخرى الجزئية .

ووصل الانحراف إلى درجة من السوء لايمكن أن تستمر ! لايمكن أن تستمر دون تدمير البشرية !

وهذه هى النقطة التى ينشأ منها التغيير !

فحين تحس البشرية بالخطر على كيانها ذاته .. حين تقف على حافة الهاوية. تستيقظ ! وتسعى إلى التغيير !

وستستيقظ البشرية من هوستها المجنونة لاشك ! وستسعى للتغيير !

ستعود — ولابد — لنظام يتجنب ماوقعت فيه من انحراف .

ستعود إلى الله . وإلى التصور الصحيح للإنسان .

---

(١) راجع كتاب « الدراسات » .

ستعود إلى الإسلام !

فليس فى أفكار البشرية كلها فكرة واحدة تُصلح هذا الانحراف كله إلا الإسلام !

فهو الذى يربط الإنسان — ربطاً جاداً — بالله ، ويستمد من الله منهج الحياة . وهو الذى يتصور الإنسان على حقيقته الشاملة المتكاملة المتوازنة .

وليس أمام البشرية إلا طريقها المنحرف الذى تسير فيه اليوم ويوصلها إلى الهاوية . . أو الرجوع إلى الإسلام .

ونحن نعتقد — من واقع البشرية الحالى — أنها ستفيق من غشيتها ، وتفىء إلى الإسلام ! مالم يكتب الله لها التدمير فى هذا الجيل أو الجيل الذى يليه فى غد غير بعيد !

ونحن أكثر إيماناً برحمة الله من أن يدمر البشرية — فى غوايتها فى هذا الغد القريب .. قبل أن تستجيب !

* * *

ولكن هذه لن تكون مسألة سهلة !

حقا لقد بدت بوادر توحى بعودة الإنسان فى الغرب إلى الدين !

فالعلماء ـ أنبياء البشرية اليوم ـ بدأوا واحدا إثر واحد يصلون بعقولهم العلمية البحتة إلى وجود الله من وراء الدقة المعجزة التى يدار بها الكون !

قال چيمس چينز العالم الفلكى الذى بدأ حياته ملحدا شاكا : «إن مشكلات العلم الكبرى لايحلها إلا وجود إله ! »

وقال أ. كريسى موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ، فى كتابه « Man Does Not Stand Alone » المترجم بعنوان : « العلم يدعو للإيمان » :

« إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لانهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة . وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض ، والمظاهر الفاخرة لذكائه ، إنما هى جزء

من برنامج ينفذه بارئ الكون[1]. . . . إن الإنسان ليكسب مزيداً لا حد له من التقدم الحسابي في كل وحدة للعلم . غير أن تحطيم ذرة دالتون ــ التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون — إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب وإلكترونات طائرة ، قد فتح مجالا لتبديل فكرتنا عن الكون والحقيقة تبديلا جوهريا . ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادى . وإن المعارف الجديدة التى كشف عنها العلم لتدع مجالا لوجود مدبر جبار ، وراء ظواهر الطبيعة[2] »

وكان أول انعكاس فى نفس جاجارين رائد الفضاء الروسى حين خرج إلى الفضاء . . هو البحث عن الله ! وإن كانت « الدولة » الشيوعية قد انزعجت من تصريحه بذلك بعد عودته إلى الأرض ، وخشيت على ماجهدت فى نشره من الإلحاد ، فأوحت إلى الرائد الثالث « تيتوف » أن يقول إنه بحث عن الله فى السماء فلم يجده !

المهم . . أن رجال « العلم » بدأوا يلوذون بحمى الله . . فى داخل معاملهم وأبحاثهم العلمية البحتة . . وذلك أول الطريق !

ثم إن صيحات الخطر تنطلق فى كل مكان تنذر بسوء مصير البشرية إن هى داومت السير على ما هى فيه اليوم من انحراف . . وكلها تنادى أن العودة إلى الله هى العلاج ، والعودة إلى التفسير الشامل للإنسان !

ولكن الأمر ليس هينا بحيث تكفى فيه صيحات متفرقة من هنا أو هناك !

إن أسبابا جمة ــ حقيقية وخطيرة ــ تصد الناس فى الغرب عن الله ، وعن النهج القويم للحياة .

* * *

---

(١) يلاحظ تأثر الكاتب برواسب الحضارة المادية حتى وهو يستشرف بعقله إلى النور الإلهى . . « برنامج ينفذه بارئ الكون » . . لأنه تعبير مثقل برواسب الحضارة المادية وأساليبها العملية . . والإدارية ! !

(٢) العلم يدعو للإيمان . ترجمة محمود صالح الفلكى ص ٤٤ — ٤٥ .

إن الحماقات التى ارتكبتها الكنيسة الأوربية كانت حماقات تاريخية ! ولم تكن شيئاً عارضا فى حياتها أو حياة البشرية !

يستوى فى هذه الحماقات الطغيان البشع الذى مارسته الكنيسة على الناس . والجهالة المخرفة التى عاش فيها رجال الدين فى القرون الوسطى . والمفاسد الخلقية الشنيعة التى ارتكبوها فى ذات الأمكنة المخصصة للعبادة والقداسة والترفع عن الشهوات . ومهزلة صكوك الغفران . . ثم تقتيل العلماء وتعذيبهم حين يكتشفون حقائق الكون والحياة !

هذه الحماقات كلها قد حفرت آثاراً عميقة فى مشاعر الغرب وأفكاره . . ليس من الهين إزالتها . . وهى حصيلة أجيال !

حقا إنها حصيلة غير منطقية ! فلم يكن لزاما على الغرب حين عادى الكنيسة أن ينفر من الله ويعادى الدين . وكان بوسعه أن يصحح مفهومه الدينى بدلا من تحطيمه . ولكن هذا هو الأمر الذى وقع بالفعل ، وهو الذى يواجهنا بنتائجه اليوم أياً ما كان فيها من أخطاء !

والعودة إلى الدين ـ مهما كانت بوادرها ظاهرة اليوم ـ ستكون ـ حسبما نرى بمنطقنا البشرى المحدود ـ بطيئة بطيئة تحتاج إلى أجيال ! [مالم يرد الله غير ذلك ! وما أسهل مايريد الله . وما أسهل ماينقلب الإنسان فرداً وجماعة من موقف العناد مع الله ، إلى موقف التسليم !وهى حالة لها نماذج مكرورة فى البشرية، خاصة فى أوقات الأزمات !]

وليس هذا هو السبب الوحيد . . فقد لابسته كذلك ظروف وملابسات .

إن « المنطق العلمى » الذى يسيطر اليوم على الغرب ، أو « المنطق المادى »، يقف عثرة فى سبيل العودة إلى الدين والعودة إلى الله !

إن الإيمان « بقوانين الطبيعة » وثبوتها .. يفسد تفكير الغرب ، ويفسد توجهه إلى الله ! « فالعلم » كله فى الغرب قائم على أساس ثبوت هذه القوانين وعدم تعرضها — ولا إمكان تعرضها — للتغيير ! وهذا حق من أحد

جوانبه . فلم يكن العلم ليتقدم خطوة واحدة لولا افتراض ثبوت السنن الكونية ، التى تبنى عليها المشاهدات والتجارب ، وتستمد منها النتائج والقوانين ..

ولكن الغرب .. يريد أن يقيد بها قدرة الله !

ومن ناحية أخرى يتصور أن الله — مع التسليم بوجوده — قد أودع الكون هذه القوانين ثم تركها تعمل بطريقة آلية فتؤدى إلى كل عمليات « الخلق » وكل عمليات الكون ، دون تدخل منه سبحانه !

وقد لقيت فتىً ألمانيا — مسلماً ! — اجتذبته بساطة العقيدة الإسلامية واستقامتها وشمولها فآمن بأنها الحق ، ومع ذلك فهو يجد أزمة عنيفة فى نفسه من أجل « المعجزات » لأنها تخالف قوانين الطبيعة !

إنه لا يستطيع أن يتصور حدوث المعجزة بحال ! ولا تدخل الله المباشر فى شأن من شئون الخلق أو شئون الحياة ، بعدما أودعها « القوانين » التى تسير عليها !

وحين قلت له إنه يخطىء فى تصور أن تدخل الله المباشر لا يحدث إلا فى « مخالفة » قوانين الطبيعة وإنما يحدث هذا التدخل المباشر فى كل لحظة للمحافظة على ثبوت هذه القوانين ، وإلا ما ثبتت على ما هى عليه . . كانت هذه مفاجأة ضخمة لتفكيره ! هذا وهو يقرأ فى القرآن : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده »[1]

فكيف بغير المسلمين فى الغرب الذى أفسدته هذه التصورات ؟ !

لقد نما المذهب التجريبى فى العالم الإسلامى فى ظل العقيدة الإسلامية ، وفى ظل الإيمان بثبوت « سنة الله » [التى يسميها الغرب جهلا وعناداً منه « قوانين الطبيعة ! »] ومع ذلك لم يصطدم فى حسهم بقدرة الله المطلقة التى تستطيع أن تغير ماتشاء حين تشاء ! فآمنوا بالعلم ، وآمنوا بالمعجزة ؛ فى بساطة بلا تعارض ولا تمزق فى التفكير ! وهذا هو المنهج الصائب فى تفهم الحقيقة الإلهية والحقيقة الكونية .

ولكن « العلم » فى الغرب المبنى على تفهم قاصر ، يصد الناس عن السبيل !

* * *

(١) سورة فاطر [٤١]

والمتاع الزائد عن الحد . . .

إنه « الأزمة » الحقيقية فى حياة الغرب . .

لقد يمكن أن يصطلح « العلم » مع الإيمان «بالغيب» فى يوم قريب أو بعيد.. وخاصة بعد البحث فى قلب « الذرة » الذى غير النظرة كلها إلى الكون «المادى» وقرب مابين المادى واللامادى فى أفكار الغربيين .

ولكن المتاع الزائد عن الحد مشكلة ضخمة . .

من ذا الذى يستمع فى لذة هذا المتاع إلى صوت الدين ؟ !

الشبان والفتيات الذين يقضون أوقات فراغهم أكواما من اللحم المسعور؟

كيف يفيقون ؟ كيف تصدق أعصابهم الملتذة بهذا المتاع أنهم مدمَّرون ؟!

قد يرى « الحكماء » ماهم فيه من دمار محقق . . أما هم . . وهم يحترقون بالنار المحببة . . هل يحسون — أو يبالون — أنهم يحترقون ؟ !

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة،والخيل المسومة والأنعام والحرث،ذلك متاع الحياة الدنيا..»(١).

والمتاع الزائد عن الحد اليوم فنون . . وفنون !

إنه ليس ساعات اللقاء الجنسى وحده .. ولكنه كل شىء فى حياة الغرب !

العمل هناك — على طريقة الآلة الإنسانية — مرهق للأعصاب ، كابت للحيوية والانطلاق . ثم .. ينطلق الناس من أعمالهم ، ليزيحوا الكبت الواقع على كيانهم الحى . . ولكن ينطلقون على طريقة الحيوان !

حيوانية الإنسان وآليته . . ذلك تصور القرن العشرين .

ومن أجل احتمال الآلية المملة الرتيبة ، توضع أشد المشهيات فى الجانب الآخر . . جانب الحيوان !

ولم يكن هذا ضرورة « حتمية » فى حياة الناس . ولكنه « ضرورة » فى هذا التصور المنحرف المجنون .

---

(١) سورة آل عمران [١٤]

ثم .. تدخل اليهودية العالمية . . تنتهز الفرصة المواتية للتدمير !

الإغراء . . فى كل صورة . .

المرأة مغرية فى الشارع . . مغرية فى السينما . . مغرية فى المسرح . . مغرية فى الشاطىء . . مغرية فى الغابة . . عارية فى كل مكان !

والسينما والمسرح والنادى والملعب . . والشارع والمكتب . . مجالات للإغراء !

والفن . . الموسيقى والأدب والرقص والغناء .

وترف الحياة ونعومتها . .

من ذا الذى يفكر فى الدين .. أو فى الأخلاق . . ليحد من هذا المتاع؟!

* * *

وكل تنظيمات الغرب القائمة على أساس لا دينى (secular) والتى فرح الغرب بفصلها عن الدين ! كيف يعود — بسهولة — فيقيمها على أساس من العقيدة فى الله ؟

التنظيمات الاقتصادية . والتنظيمات السياسية . والتنظيمات الاجتماعية . و.و. من ذا الذى يرحب بإقامتها على أساس العقيدة فى الله ، التى تحد من مطامع الطامعين ، وتضبط شهوات « أصحاب المصالح » فى كل هذه الميادين ؟

والمرأة.. المرأة التى « تحررت » من كل قيد قيدتها به الأجيال ! كيف تعود؟!

كيف تعود إلى مهمتها الفطرية وتقصر نفسها عليها وهى ترى نفسها اليوم ملء « المجتمع » ، وملء المصانع والمتاجر والدواوين والشوارع .. وأهم من ذلك كله .. ملء مشاعر الرجل .. كل رجل ؟ !

كيف تقبل أن ينحصر سلطانها فى بيت واحد ورجل واحد ، وهى اليوم ترى « وجودها » واسع الآفاق ، يشمل كل رجل يقع عيناه على فتنتها ، فيعجب بها ولو لحظة عابرة فى الطريق .. وتتجمع اللحظات لتكون لها « الحياة » !

* * *

كلا ! لا يرجع الناس فى الغرب بسهولة إلى الدين ! ولا ترجع البشرية كلها

التى يحكمها الغرب اليوم ، وتنتشر منه إليها المفاهيم ، وأنماط السلوك ..

لا يرجعون إلا بقارعة !

ولـكن القارعة على الأبواب !

إنهم ليسوا مخيرين !

أوهم مخيرون! بين الدمار الشامل الرهيب .. وبين العودة إلى حمى الله ومنهج الله مهما يكن فيه — فى تصورهم المنحرف اليوم — من « القيود » !

والدمار يفتح فاه فى كل لحظة . . انتهاء سيادة الرجل الأبيض رعب [له !] والخوف على المستقبل فى روسيا وأمريكا رعب [لهما] والحرب الذرية رعب يشمل الجميع !

وكلما هم العالم أن يستريح لابتعاد خطر الحرب .. عادت الأزمة تطل من جديد.

القارعة على الأبواب .. والناس ليسوا مخيرين . . أو هم مخيرون بين العودة إلى الله وبين الدمار الرهيب .

وستجد البشرية ذات يوم أن الله أكرم لها وأشفق عليها من أنفسها .. فتعود إليه .

ولن يكون هذا صباح الغد !

إنما تقع القارعة — أو الصحوة — فى المعتاد حين يشتد الفساد بالناس جيلا بعد أجيال !

ونحن — حين نقول إن مستقبل البشرية هو العودة إلى الله — لا نرقب هذا الغد القريب الذى يحوى أعمارنا وأعمار هذا الجيل !

فعمر البشرية لا يقاس بعمر فرد أو أفراد فى جيل .. إنما يقاس بأجيال بعد أجيال!

ولـكنا — مع ذلك — نراه بوضوح كأنه الغد !

نراه . . لأنه سنة « حتمية » . سنة الله .

ستعود البشرية غدا إلى الله . . .

ولـكن . . ماذا يكون يا ترى دور المسلمين ؟ !

دور المسلمين

دور المسلمين هو أن يكونوا دائما فى الطليعة . أن يمسكوا فى أيديهم مقدم الزمام .

« هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس »(١)

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »(٢)

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٣)

ذلك دور المسلمين : أن يكونوا خير أمة فى الأرض ، ويكونوا — بهذا — شهداء على الناس وقادة للبشرية .

ولكن الموقف اليوم أن المسلمين فى ذيل القافلة لا فى مقدم الزمام .

ذلك لأنهم ليسوا مسلمين !

ووعد الله للمسلمين وعد صادق لا يتخلف : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات : ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »(٤)

---

(١) سورة الحج [٧٨] (٢) سورة البقرة [١٤٣]
(٣) سورة آل عمران [١١٠] (٤) سورة النور [٥٥]

الشرط أن يكونوا مسلمين !

وحين ينحرفون عن الإسلام كما انحرفوا بالأمس وينحرفون اليوم ، فليس لهم إلا وعد الله الصادق الذى لا يتخلف : « قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون · قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ، انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون »[1].

ولكن لهم — حين يكونون مسلمين — دوراً لهذه البشرية المنحرفة الضالة التى تشقى اليوم بانحرافها وضلالتها !

إنهم — وحدهم فى كل الأرض — الذين يملكون المنهج الصالح للحياة .. المنهج الهادى من الضلال .

هم — وحدهم — الذين يملكون المنهج الذى يرأب صدع البشرية ويداوى انحرافاتها المدمرة .

المنهج الذى يرأب الفصام الذى أحدثته أوربا بين الإنسان والله ! بين الدين والحياة . بين الدنيا والآخرة . بين الجسم والروح . بين الواقع والمثال .

المنهج الذى يلم شتات النفس البشرية بتوحيد وجهتها وتوحيد عبادتها : تعبد إلها واحداً ، وتتجه وجهة واحدة · فى نشاطها الروحى والمادى · نشاطها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى . نشاطها العقلى والفنى[2] .. كل لون من ألوان النشاط . وبذلك يقف الاضطراب القلق الذى يمزق النفس البشرية اليوم ويأكل نشاطها ، ويفسد الشباب ويدمر المجتمع ، ويفزع المسئولين عن التوجيه فى الدول الكبرى والصغرى على السواء !

المنهج الذى يكفل للنفس البشرية أن تنشط كل نشاطها الطبيعى بلا قلق

---

(١) سورة الأنعام [٦٤ـ ٦٥]

(٢) انظر كتاب « منهج الفن الإسلامى » .

ولاتصادم ، كما يسير الكوكب فى مداره الصحيح ، موزونا بين الشد والجذب ، متحركا حركة اتزان .

تنشط فى دنيا العلم بلا تصادم مع العقيدة ولا نفرة من الدين .

وتنشط فى دنيا الواقع غير مثقلة بالكوابت المعوقة ولا منفلتة من الفرامل الضابطة .

وتمارس نشاطها « الحيوى » كله ، بما فى ذلك نشاط الجنس ، فى نظافة تشبع الرغبات ولا تفسد الأعصاب .

وتنظم مرافق الحياة كلها فى تعقل واتزان .

ذلك هو المنهج الذى يملكه المسلمون . .

وهو هو المنهج الذى تحتاج إليه البشرية لينقذها من انحرافها ، وينقذها من الدمار الرهيب .

ولكى تهتدى البشرية إلى حقيقته ، فإن يكفى أن تقرأ عنه وتفهمه . . إنما ينبغى أن تراه فى صورة عملية واقعية . . صورة منفذة فى واقع الأرض . . وذلك دور المسلمين للبشرية !

* * *

ولكن البشرية المعادية اليوم للدين .. والمعادية للإسلام والمسلمين على وجه الخصوص لن تتركهم ينفذونه فى واقع الأرض ! لن تترك لهم فرصة إثبات حقيقته العلوية !

ستحاربهم حرب الإفناء !

والحرب قائمة بالفعل اليوم فى العالم الإسلامى من المحيط إلى المحيط .

الحرب الصليبية الجديدة التى بدأت فى القرن الماضى وما تزال . . وتساندها الصهيونية .

حرب بجميع وسائل الحرب . بالسلاح والجيوش . بالاستعمار « الاقتصادى » والاستعمار الفكرى والروحى . . بإفساد الأخلاق . بتدمير اهتمامات الشباب

الجادة وتحويلهم إلى فتات يتهافت حول السينما والتليفزيون ، وأقاصيص الجنس المحموم ، ومباريات الجمال ومعارض الأزياء ، وسائر ماابتدعته الشياطين . . يستهلك فيها طاقته الحيوية .

تنسلخون من دينكم — أيها المسلمون — نعطيكم من كل الخيرات : نموّنكم ونحضركم ، ونعطيكم قروضا ومشروعات وأدوات وآلات وإمكانيات . . وتصرون على دينكم . . فلن نسمح لكم بالحياة !

تلك هي الحرب المسعورة التي يواجهها الإسلام . حرب لاهوادة فيهاولاهدنة ولا فتور . حرب تشمل حركات البعث الإسلامي من المحيط إلى المحيط . حرب يصرح بها بعض الصرحاء أحياناً كما صرح بها « بيدو » وزير خارجية فرنسا السابق ، حين قال عن حرب الجزائر إنها حرب الهلال والصليب ويجب أن تمضي إلى غايتها . . ويخفيها آخرون .

* * *

والمسلمون في حاجة إلى فترة طويلة من الجهاد والجهد لكي يستطيعوا أن يؤدوا دورهم للبشرية .

في حاجة أولا إلى تفهم دينهم . . فإنهم لايفهمونه !

الجهالة الطويلة التي رانت على قلوبهم منذ عصر الركود . وحرب التشويه التي شنها المبشرون والمستشرقون والمستعمرون الصليبيون ، وتلامذتهم من « أساتذة » الجيل . والفتنة بالمذاهب الغربية — ذات السيادة — المعادية للدين . والتأثر بما قاله الأوربيون في دينهم كما صورته لهم الكنيسة ، والظن بأنه ينطبق على كل مفهوم « الدين » . ثم موقف الضعف السياسي والحربي والاقتصادي إزاء الغرب ، الذي يشككهم في كل قيمهم الذاتية ، ويسهل عليهم تصديق كل نقيصة في أنفسهم وكل فضيلة في الأقوياء المتمكنين !

هذه الأسباب كلها مجتمعة قد غشت على قلوب المسلمين وأبصارهم فلم يعودوا

يعرفون حقيقة هذا الدين . فصارت المهمة الأولى لهم أن يعرفوه .

وهم فى حاجة ثانياً إلى أن يعيشوه !

فالمعرفة النظرية وحدها لاتكفى ! لا تعطى الطعم الحقيقى لشىء من الأشياء ! إنما يعرف الإنسان حقيقة الفكرة حين يعيشها بالفعل ، و يتفاعل معها فى واقع الحياة .

والإسلام غريب اليوم على قلوب المسلمين وضمائرهم غربته يوم بدأ . أو أشد غربة !

لقد كان غريباً — حقيقة — يوم بدأ . ولكنه كان يواجه نفوسا لم تفسد فطرتها كل الفساد أو لم تكن عميقة الغور فى الفساد . فسرعان ما انجابت القشرة الفاسدة وصفت النفوس للنور الحق .

واليوم يواجه الإسلام — فيمن يسمون « المسلمين » ذاتهم — نفوسا توغل فيها الفساد : الفساد الذى أحدثه الجمود والانحسار والتوقف . والفساد المجلوب من الغرب . والتحلل الخلقى والاستمتاع الزائد عن الحد ، الذى يصرف الغرب عن الرجوع إلى الدين . كما يواجه مسلمين تعودوا — بحكم الأمر الواقع تحت توجيه الاستعمار الصليبى — أن يعيشوا بعيداً عن روح الإسلام وتشريع الإسلام .وأن تحكم حياتهم كلها — فى الأخلاق والسلوك والتفكير والتنفيذ— مفاهيم غير إسلامية .

لذلك فالغربة اليوم عن الإسلام أشد .

والمسلمون فى حاجة — بعدأن يعرفوا الإسلام — أن يعيشوه فىواقع الحياة.

ثم هم فى حاجة — بعد أن يعيشوه بالفعل — أن ينمّوا الفقه الإسلامى ليواكب الحياة الحاضرة فى القرن العشرين ويحكم كل جزئياتها .

وهو جهد ضخم مافى هذا شك . ولكنه ليس الجهد الأول ولا الأخطر ! إنما الجهد الأول والأخطر هوأن يعرفوا الإسلام ويعيشوه ! وبعد ذلك سيجىء

النمو تلقائياً وتدريجياً — فى ظل الحياة الإسلامية والمفهوم الإسلامى — على يد الفقهاء المجتهدين .

وفى أثناء ذلك كله هم فى حاجة إلى التعرف على علم الغرب كله وأسباب قوته المادية من تنظيمات وبحوث وخبرات . حتى يستعيدوا حاستهم العلمية الأصيلة — التى فقدوها فى الأجيال الأخيرة — ويشاركوا مشاركة حية فعالة — على طريقتهم الإسلامية النظيفة — فى تلك التنظيمات والخبرات والبحوث .

* * *

كل ذلك يحتاج إليه المسلمون أولا حتى يؤدوا دورهم للبشرية .

وهو جهد ضخم شاق . . ولكنه مع ذلك ضرورى . ضرورى للمسلمين أنفسهم لكى يعيشوا على مستوى «الإنسان» كما علمهم الله بالإسلام . الإنسان المتنور المتحضر المتوازن النظيف المتطلع إلى الإمام . وضرورى كذلك للبشرية لكى ترى النموذج الواقعى الحى للفكرة النظيفة السليمة ، فتتبعها — راضية — لتخرج بها من الظلمات إلى النور ، وتتقى الدمار الذى ينذر بإفناء البشرية .

ولكن العداوات المحيطة بالإسلام لن تدع المسلمين يقومون بهذا الجهد !

الحرب الدائرة المسعورة لن تهدأ . لن تفتر .

لن يدع أعداء الإسلام المسلمين يفهمون دينهم أو يعيشونه .

إنه لامانع لديهم من أن يبقى الإسلام — إذا شاء — صلوات ومشايخ ومساجد للبركة !

ولا مانع لديهم من « تطوير » الدين وتعديل مفاهيمه بإدخال المفاهيم الغربية فى صلبه !

أما قيام مجتمع مسلم واع فاهم مثقف نام يفهم الإسلام ويعيشه بالفعل . . فهذا بالذات هو الأمر المرهوب الذى يرهبه أعداء الإسلام . . والذى ينبغى أن يحولوا دونه بكل سبيل !

كلا ! لن يدع الأعداء الفرصة لنماء هذا الدين !

ولقد قاموا بالفعل بقتل جميع الإمكانيات بالنسبة لقيام جماعة مسلمة فى هذا الجيل !

* * *

ولكن البشر ليسوا هم المحكّمين فى دين الله !

« والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ![1]

ذات يوم فى التاريخ توغل الصليبيون فى البحر الأحمر وقلبوا سفينة للحجاج وقتلوا من فيها ، ونزلوا فى جدة ، وساروا بالفعل نحو الأرض المقدسة بأقدامهم المدنسة .

لو أن إنساناً وقف يرصد التاريخ فى تلك اللحظة ، مقطوع الصلة بالغيب المستور ، لقال إن الإسلام قد انتهى ولن تقوم له قائمة بعد اليوم . فليس بعد ذلك شيء . .

ولكنا نعلم من التاريخ أن هذه الحادثة بالذات هى السبب فى قومة صلاح الدين . . قاهر الصليبيين !

واليوم يخنق الصهيونيون والصليبيون الإسلام فى كل الأرض . .

ثم . . ثم ينتشر الإسلام فى أفريقيا بصورة تزعج أعصاب المبشرين والدول التى تبعث المبشرين !

وينتشر الإسلام فى زنوج أمريكا المضطهدين . . فى داخل السجون التى تضطهدهم وتشردهم !

تلك إشارة إلى المستقبل !

وهى إشارة موحية للأجيال القادمة من المسلمين !

« والله غالب على أمره . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » !

صدق الله العظيم .

---

(١) سورة يوسف [٢١]

الفهرس

الموضوع	الصفحة

من كتب دار الشروق الإسلامية

مصحف الشروق المفسر الميسر
مختصر تفسير الإمام الطبري
تحفة المصاحف وقمة التفاسير
في أحجام مختلفة وطبعات منفصلة لبعض الأجزاء

تفسير القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الإسلام عقيدة وشريعة
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الفتاوى
الإمام الأكبر محمود شلتوت

من توجيهات الإسلام
الإمام الأكبر محمود شلتوت

إلى القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الوصايا العشر
الإمام الأكبر محمود شلتوت

المسلم في عالم الاقتصاد
الأستاذ مالك بن نبي

أنبياء الله
الأستاذ أحمد بهجت

نبي الإنسانية
الأستاد أحمد حسين

ربانية لا رهبانية
أبو الحسن علي الحسيني الندوي

الحجة في القراءات السبع
تحقيق وتقديم الدكتور عد العال سالم مكرم

الفكر الإسلامي بين العقل والوحي
الدكتور عبد العال سالم مكرم

على مشارف القرن الخامس عشر الهجري
الأستاذ ابراهيم بن علي الوزير

الرسالة الخالدة
الأستاذ عبد الرحمن عزام

محمد رسولاً نبياً
الأستاد عبد الرزاق نوفل

مسلمون بلا مشاكل
الأستاذ عبد الرزاق نوفل

الإسلام في مفترق الطرق
الدكتور أحمد عروة

العقوبة في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

موقف الشريعة من نظرية الدفاع الاجتماعي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الجرائم في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

مدخل الفقه الجنائي الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

القصاص في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الدية في الشريعة الإسلامية
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الإسراء والمعراج
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

القضاء والقدر
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

قضايا إسلامية
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

التعبير الفني في القرآن
الدكتور بكري الشيخ أمين

أدب الحديث النبوي
الدكتور بكري الشيخ أمين

الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

اليهود في القرآن
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

أيام الله
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

مسلمون وكفى
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

الدعوة الوهابية
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

قال الأولون ـ أدب ودين
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

قل يا رب
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

الإيمان الحق
المستشار علي جريشة

الجديد حول أسماء الله الحسنى
الأستاذ عبد المغني سعيد

الجائز والممنوع في الصيام
الدكتور عبد العظيم المطعني

مناسك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة
الدكتور عبد العظيم المطعني

أيها الولد المحب
الإمام الغزالي

الأدب في الدين
الإمام الغزالي

شرح الوصايا العشر
للإمام حسن البنا

القرآن والسلطان
الأستاذ فهمي هويدي

خفايا الإسراء والمعراج
الأستاذ مصطفى الكيك

الخطابة وإعداد الخطيب
الدكتور عبد الجليل شلبي

تأريخ القرآن
الأستاذ إبراهيم الأبياري

الإسلام والمبادئ المستوردة
الدكتور عبد المنعم النمر

سلسلة أعلام الإسلام ١٦/١

سلسلة أهل البيت ٦/١

إسهام علماء المسلمين في الرياضيات
تأليف الدكتور علي عبد الله الدفّاع
تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقي
مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد

الخبر الواحد في السنة والتراث وأثره في الفقه الإسلامي
الدكتورة سهير رشاد مهنا

الأديان القديمة في الشرق
دكتور رؤوف شلبي

رقم الايداع ٥٩٨٤/٨٧

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٧٧٤٨١٤ ٧٧٤٥٧٨ برقيا شروق تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص.ب ٨٠٦٤ هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ ٨١٧٢١٣ - برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

